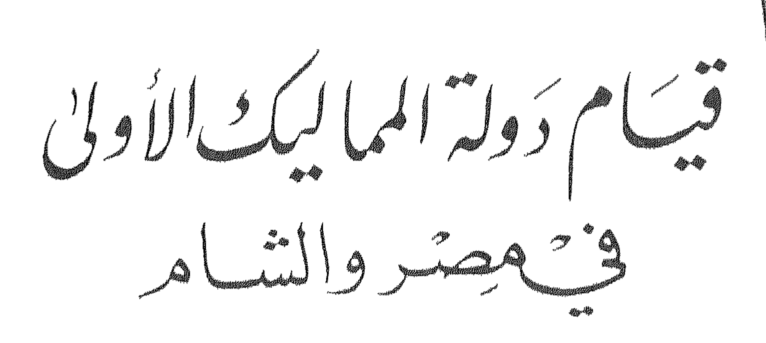
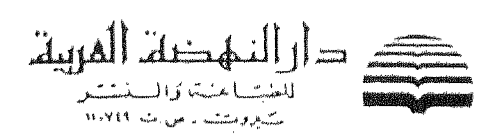
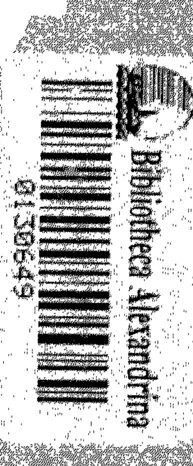


الدكتور أحمد مختار العبادي

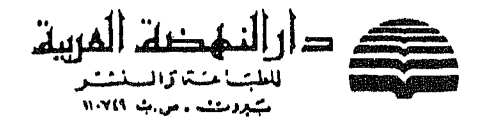




قيام دولة المماليك الأولى
في مصر والشام

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام

تأليف
الدكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية



١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

* الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا -
بناية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ -
برقياً: دانهضة -
ص.ب.: ٧٤٩ - ١١ -
تلكس: NAHDA 40290 LE

* التوزيع : شارع البستاني - بناية اسكندراني
رقم ٣ غربي جامعة بيروت
العربية - تلفون: ٣٠٣٨١٦ -
٣١٦٢٠٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ المماليك ، عرضت فيه لقيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام • والدراسة التاريخية لمثل هذا الموضوع تحتاج الى النظرة الشاملة التي تستوعب التيارات والحركات منذ نشأتها الى وقت نضجها واستقامة عودها وتأثيرها في مجريات الحوادث • واقتضى ذلك معالجة أصل استخدام المماليك في الدولة الاسلامية عامة في الباب الاول ، مما تطلب شيئا من الافاضة في الرق وأسبابه ، وأشهر أنواع الرقيق ، ومراكز جلبهم وما يتصل بذلك من الكلام عن صفاتهم وأحوالهم التي مهدت للأتراك والصقالبة منهم سبيل النقلة من الخدمة في القصور الى الخدمة في وظائف الدولة وقيادة الجيوش • ومن ثم تطرق الموضوع الى الدور الخطير الذي لعبه المماليك الاتراك في الحركات الاستقلالية التي قامت في شرق الخلافة العباسية والدويلات التي أقاموها هناك مثل الدولة الغزنوية والدولة الخوارزمية ودولة سلاطين المماليك في الهند • وما يقال عن الترك في المشرق ، يقال أيضا عن الصقالبة في المغرب والاندلس وما قاموا به من اعمال هامة في ميادين العلم والسياسة والحرب منذ القرن الثالث حتى أواسط القرن الخامس الهجري •

وفي الباب الثاني ، أفردت الكلام عن مماليك مصر الاسلامية قبل قيام دولتهم بها أي حتى نهاية العصر الايوبي • فتتبعت نفوذهم

أيام الطولونيين والأشيديين والفاطميين مشيرا الى اهتمام الفاطميين بتربية صغار مماليكهم وغلمانهم المعروفين باسم الترابي والصبيان الحجرية • ثم تكلمت عن مماليك الدولة الأيوبية متتبعا نمو نفوذهم الذي جعلهم صلب جيش الدولة وعدتها حتى أصبح بأيديهم اقامة السلاطين وعزلهم في أخريات أيامها • ثم وقفت قليلا عند لفظ « بحرية » الذي سميت به فرقة المماليك الصالحية التي كونها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فشرحت أصل هذا اللفظ ومدلوله مبينا آراء المؤرخين فيه • واستعرضت أخيرا حملة لويس التاسع على مصر مع العناية بابراز الدور الذي قام به المماليك البحرية الصالحية في القضاء على تلك الحملة ، وما اقترن بذلك من حوادث أدت الى نهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى في مصر •

وشرحت في الباب الثالث العقبات والصعاب التي اعترضت قيام الدولة المملوكية الناشئة ، والوسائل التي تغلب بها السلطان أيبك التركماني على تلك الصعاب مما كان له الأثر البالغ في تدعيم أركان تلك الدولة •

وفي الباب الرابع تكلمت في الخطر المغولى على مصر بعد اجتياحهم الأراضي الاسلامية الأخرى ، واتخذت وقعة عين جالوت مادة لبيان ما لتلك الوقعة من أهمية في تدعيم دولة المماليك ، وجعلت أقوال المؤرخين المعاصرين وشهود العيان تفصح عما كان لهزيمة المغول على يد السلطان قطز من أثر قوى في تقوية الدولة المملوكية داخليا وخارجيا في آن واحد •

وفصلت الحديث في الباب الخامس في الدعائم الأخرى التى يرجع الفضل فيها للسلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، وهى الدعائم التى

وطدت أركان الدولة المملوكية نهائيا ، ومثال ذلك : احياء الخلافة العباسية في القاهرة ، والعناية بالجيش والاسطول ،وتحصين الثغور وأطراف الدولة ثم الجهاد ضد الصليبيين والمغول ، وختمت الكتاب عند نهاية عهد هذا السلطان ، لأنني لم أهدف الى كتابة تاريخ مفصل للسلاطين الذين تداولوا عرش الدولة المملوكية ، بل أردت أن أبين ما لبعض الأحداث التاريخية المعينة من أثر في قيام هذه الدولة دون التقيد بالعهود وسنواتها ٠

كذلك حرصت في عنوان هذا الكتاب على تجنب الاسم الشائع الذي اطلقه المؤرخون على هذه الدولة وهو : « دولة المماليك البحرية »، وذلك لان معظم سلاطين تلك الدولة لا ينتسبون لفرقة المماليك البحرية الصالحية ٠ ولهذا فضلت اختيار تلك التسمية التي سبق أن نادى بها استاذي المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة وهي : « دولة المماليك الاولى في مصر والشام » على أساس ان هناك عصرا ثانيا وآخر ثالث وهما اللذان اطلق عليهما المؤرخون عصر المماليك البرجية او الشراكسة ، وعصر المماليك العثمانيين أو البكوات ٠

والله أسأل السداد والتوفيق في الفكر والقول والعمل ، انه نعم الموفق والنصير ٠

الباب الأول

المماليك الأتراك والصقالبة في المجتمع الاسلامى

تعريف المملوك ـ أصل استخدام المماليك في المجتمع الاسلامى ـ الرق في الاسلام وشروطه ـ أشهر أنواع الرقيق ـ مراكز جلب الرقيق ـ أسواق الرقيق في بعض المدن الاسلامية ـ أهمية الأتراك في الجيش العباسى ـ المماليك والنزعات الاستقلالية في الدولة العباسية ـ مماليك الدول الصفارية والسامانية والغزنوية والغورية في الشرق الاسلامي ـ سلاطين المماليك في الهند ـ الصقالبة في المجتمع القرطبى ـ الدويلات الصقلبية في شرق الاندلس ـ صقالبة بنى صالح والاغالبة والفاطميين في المغرب الاسلامى .

الباب الأول

المماليك الأتراك والصقالبة في المجتمع الاسلامي

المملوك عبد يباع ويشترى ، غير أن التسمية أقتصرت في معظم الدول الاسلامية المتأخرة على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء لتكوين فرق عسكرية خاصة في أيام السلم ، واضافتها الى الجيش العام أيام الحرب • ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المماليك فيمصر والشام التى اتخذنا قيامها موضوعا لهذا الكتاب •

والمعروف أن المعتصم العباسى (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ ــ ٨٤٢ م) أول من شكل فرقا عسكرية من الأتراك ، اذ عنى باقتناء أبناء هــذا الجنس صغارا ، وعكف على جلبهم مــن سمرقند وفرغانة والسنــد وأشروسنة والشاش وغيرها من أقالم ما وراء النهر حتى بلغت عــدة مماليكه بضعة عشر ألفا (١) • وامتلأت بغداد بأولئك العسكر الجدد الذين ألبسهم المعتصم أفخــر الملابس ، وسمح لهم بركوب الخيل في شوارع بغداد مما أدى الى اصطدامهم بالناس في الطرقــات ، واثارة

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ ، القرمانى : أخبار الدول ص ١٥٧ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢٣٣ •

سخط أهل العاصمة ، وألجأ الخليفة أخيرا الى الانتقال الى سامرا التى بناها لتكون عاصمة له ومقرا لجيوشه التركية من المماليك والأحرار . هذا مجمل لما يتواتر في الكتب في أصل المماليك ، غير أن البحث التاريخى يتطلب الرجوع الى ما قبل المعتصم ، اذ ليس المعقول أن يكون استخدام المماليك من الترك أجنادا في الجيش العباسى جاء بغتة كما تريد الكتب أن تصوره ، ولا بد أن سبقت ذلك خطوات أدت اليه .

والواقع ان المعتصم استخدم الجنس التركى تخلصا من النفوذ الفارسى والعربى في الجيش والحكومة سواء ، اذ ألفى منذ أول خلافته أن سياسة الدولة أضحت بسبب المنافسة الشديدة بين هذين الجنسين ، أشبه برجل يركب جوادين في وقت واحد ، فهو على شفا السقوط مهما مهر في الركوب . لهذا لجأ المعتصم الى تملك الأتراك بالشراء ، وتربيتهم واعدادهم للجيش ، اعتقادا منه خطأ بأنهم مجردون من الطموح الذى اتصف به الفرس ، ومن العصبية التى عرف بها العرب (١) ، ولكن سرعان ما أخذ أولئك الأتراك المماليك في التدخل في شئون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون (٢) . ولابن طباطبا في كتاب الفخرى في الآداب السلطانية عبارة تصف تلك الحال في الدولة العباسية حيث قال ان الأتراك استولوا على الخلافة منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وأنهم استضعفوا الخلفاء فكان « الخليفة في أيديهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه » (٣) .

---

(١) راجع (Muir : The Caliphate P. 334)

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ١ ص ٣١

(٣) محمد بن طباطبا (ابن الطقطقى) : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٢٠

على أن استخدام المماليك في المجتمع الاسلامى يرجع الى ما قبل عهد المعتصم بكثير ، كما يرجع استخدامهم في الوظائف الكبرى بالدولة الى أوائل أيـام العباسيين ، وأوضح الأدلة عـلى ذلك ولايـة يحيى ابن داود الخرسى امارة مصر (١٦٢ ـ ١٦٤ هـ) = (٧٧٨ ـ ٧٨٠ م) من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور ، ويحيى هذا مملوك تركى وصفـه المنصور وصفا ينبىء بكثير عما وصل اليه بعض المماليك من الترك في صدر الدولة العباسية ، اذ قال « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله » [(١)] . ويذكر الطبرى في حوادث سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) أن طرسوس عمرت على يد أبى سليم فرج الخادم التركي [(٢)] .

ومن هذا وحده يتضح ان علاقة المماليك بمصر أبعد عهدا مـن قيام دولتهم بها ، اذ اتخذ امراء الدولتين الطولونية والاخشيدية جنودا من المماليك ، واتخذ الفواطم من المماليك الذين اشتروهم من الاسواق ، أو أسروهم في الحروب طوائف أسموها « مماليك » . ولكن هؤلاء وأولئك دخلوا الجيش في حدود ضيقة ، فلم يزيدوا عن فرقة الحرس الخاص بالأمير او الخليفة ، واستمروا في تلك الحدود الضيقة الى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب [(٣)] .

فلفظ مملوك اذن لم يكن جديدا أو غريبا على مصر حينما قامت دولة المماليك الاولى بها . على ان قيام تلك الدولة بمصر لا يمكن فهمه على وجه صحيح الا بعد معرفة الاصول التاريخية لاستخدام المماليك

---

(١) الكندي : كتاب الولاة ص ١٢٣
(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ١٠ ص ٥٠ ، عبد العزيز الدورى : العصر العباسي الاول ص ٧٧ ٢
(٣) انظر الباب الثاني من هذا الكتاب

في المجتمع الاسلامى عامة ، ثم استخدامهم في الجيش منذ ايام المعتصم فصاعدا . ولا بد هنا من الرجوع الى الاصول العامة للرق في الـدول القديمة بالشرق والغرب حيث يتضح من تاريخ تلك الدول أن الوثنيين القدماء [١] واليهود والنصارى والمسلمين في تملك الرقيق سواء ، وان الدساتير اليونانية والرومانية القديمة ، والديانات الكتابية لم تحرم وجود الأرقاء . وللرق سببان جوهريان هما الحرب والفقر ، والحرب أقوى السببين [٢] . ولما كانت الحروب والفتوح والانتصارات تمـلأ صدر الاسلام ، فمن الواضح ان اعداد الرقيق من الأسـرى أضحت لا تحصى كثرة ، وان الرقيق صار مختلطا متنوعا تنوع البـلاد التى فتحها المسلمون . واذا كانت تعاليم الاسلام تقضى بأن من استرق في الحرب صار جزءا من الغنيمة شأنه في ذلك شأن الآلات الحربية والخيل والنقود من حيث التملك والبيع والشراء ، فان امتلاك الرقيق لم يقتصر على الخلفاء والولاة والمحاربين ، بل صار في متنـاول أيدى الذيـن يستطيعونه عن طريق الغنى والثروة . ولذا انتشرت تجارة الرق في الدولة الاسلامية ، كما انتشرت في غيرها من الدول . وتنوع الأرقـاء كذلك فمنهم السود ، ومنهم البيض أو المماليك الذيـن سماهم متز أرستقراطية العبيد [٣] ،
في شـرائهم .

والاتراك والصقالبة أشهر الرقيق الابيض في المجتمع الاسلامى ،

---

(١) راجع (Aristotle : Politics, translated by J. E. Weldon , Book I, chaps · III, IV, V, VI, VII, XII)

(٢) شفيق باشا : الرق في الاسلام ، ترجمة أحمد زكى ص ٧ — ٥٧)

(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى — ترجمة ابو ريدة — ص ٢٦٦

غير أنه يبدو أن الصقالبة كانوا موضع التفضيل بدليل قول الخوارزمي (١) في كتاب يتيمة الدهر « ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي » (٢) • على ان الأرقاء من الاتراك اقدم عهداً بالدولة الاسلامية من الصقالبة ، اذ وصل المسلمون بلاد تركستان وما وراء نهرى سيحون وجيحون وفتحوها على يد قتيبة بن مسلم أواخر القرن الهجري الاول أى القرن السابع الميلادى • وعندئذ صار للرقيق التركى مكانة ممتازة في البيوت الاسلامية ، «لوفائهم وشجاعتهم وتمام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم » (٣) • وكثر استخدامهم غلمانا (٤) وخدما قبل ان يعرف المسلمون شيئا عن الصقالبة وبلادهم •

وجاء أغلب أولئك الأرقاء عن طريق الأسر في الحروب أو عن طريق

المسلمون شيئا عن الصقالبة وبلادهم •

---

(١) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ويقال له الطبرخزى لان امه من طبرستان وأباه – وهو ابن اخت أبى جعفر بن جرير الطبرى صاحب التاريخ – من خوارزم . وأبو بكر واحد من الشعراء المجيدين الكبار ، اقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ، وله ديوان شعر ورسائل وقد ذكره الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) في كتابه يتيمة الدهر ، وتوفي ابو بكر الخوارزمى سنة ٣٨٣ هـ في نيسابور وان كان ابن الاثير يحدد وفاته في تاريخه سنة ٣٩٣ هـ . راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٦٦٢ – ٦٦٣)

ص ٢٦٨

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر جـ٤ ص ١٨٤ ، متز : نفس المرجع جـ١

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص ٤٥٨

(٤) الغلام في اللغة هو الصبي الصغير والمملوك ، ثم اطلق بعد ذلك على من يقوم بتربية الخيل واستعماله هنا بالمعنى الاول . (القلقشندى : صبح الاعشى جـ٥ ص ٤٧١)

دأب الحكام والقادة على ارسالهم هدايا الى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامــات الثورة في الأقــاليم التركية . ومن ثم صارت أقاليم ما وراء النهر مصدرا هاما للرقيق الذى أضحت تجارته أعظم مهنة هناك على قول المؤرخــين الأوربيين (١) ، وصارت مدينة وختّان في أعالى نهر جيحون مركزا لقوافل الرقيق مــن الترك الآتية من أواسط آسيا (٢) ، وأثرى أهل خوارزم من متاجرتهم بالاتراك الذين يجلبون أو يسرقون من رعــاة السهب (الاستبس) ، ويربون تربية اسلامية ثم يصدرون بعد ذلك الى جميع أنحاء العــالم الاسلامى (٣) . واشتهرت سمرقند كذلك بأن خير الرقيق من تربيتها ، اذ اتخذ اهلها ذلك صناعة لهم يعيشون منها (٤) . ويقال مثل ذلــك بصدد نيسابور ومرو حيث بلغ ثمن الغلام أو الجارية من الترك ثلاثة الآف دينار (٥). وعلى بحر قزوين غدت ميناء باب الأبواب أو الدربند (٦)، عاصمة أذربيجان مركزا هامــا لتجارة الرقيق الــوارد من الاراضى الشمالية (٧) . وطرق القوافل التى حملت أسراب ذلك الرقيق ســواء

---

(١) انظر (Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate p. 487.

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ٤٧٦ وكذلك (Le Strange : op. cit. P. 437)

(٣) ابن حوقل : المرجع السابق ص ٤٨١ ــ ٤٨٢ وكذلك (Le Strange: op. cit. P. 459)

(٤) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٤٩٤

(٥) ابن حوقل : المرجع ص ٤٥٢ وكذلك (Le Strange : Op. cit. P. 429.)

(٦) الدربند لفظ فارس معناه مضيق في الجبل . راجع (مفضل بن ابى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد جـ١ ص ٤٩٣ حاشية ٣ نشر بلوشية Blochet)

(٧) ابن حوقل : صورة الارض ص ٣٤٠ وكذلك (Le Strange : Op. cit. P. 124)

من آسيا الوسطى أو من تلك الاراضى الشمالية ، هى الطرق التجارية المعروفة في العصور الوسطى [1] •

أما الرقيق من الصقالبة فطريقه الرئيسي الى العالم الاسلامي هو الطريق الذى يبتدىء من شرق المانيا الى ايطاليا وفرنسا ومنها الن اسبانيا الاسلامية [2] • والمقصود بالصقالبة في الكتب العربية ، سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التى امتدت أرضها من بحر قزوين الى البحر الادرياتي [3] •

واشتغل اليهود بتلك التجارة التى يرجع اليها استقرار جاليات يهودية كبيرة في مدينة مجدبورج بسكسونيا الشرقية • ويبدوا أن تلك التجارة عادت على اليهود بأرباح طائلة بدليل الضرائب الكبيرة التى فرضتها كوبلنتز وفالنشتات على كل رأس من الرقيق المار بها • وربما كانت ضخامة تلك الضرائب هى التى أدت بتجارة الرقيق الى طريق آخر يبتدىء من شرق أوربا ويمر بتشكوسلوفاكيا الحالية وبولونيا وروسيا والقسطنطينية • وكانت مدينة براغ في القرن العاشر الميلادى سوقا للرقيق الذاهب للبلاد الاسلامية والبيزنطية عن ذلك الطريق • غير أنه يلاحظ أن الرقيق الأوربى لم يجلب كله للشرق الاوسط فحسب ، بل ذهب التجار اليهود من جنوب فرنسا بجزء منه الى الهند عن طريق مصر والبحر الاحمر ، على حين ذهب آخرون من أولئك التجار من جنوب اسبانيا الى سبتة ومنها الى مصر عبر بلاد المغرب ثم الى الشام والعراق

---

(١) راجع (كرامرز : الجغرافية والتجارة في الجزء الاول من كتاب تراث الاسلام ص ٨٧)

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ص ٢٦٨

(٣) ابن حوقل : المرجع السابق ص ١١٠

والخليج الفارسى الى السند [1] .

وتطلب الرقيق المجلوب للعالم الاسلامى أسواقا وخانات بالمدن الكبرى ، وأشهر هذه دار البركة أو بركة الرقيق بالفسطاط [2] ، ودار الرقيق ببغداد [3] وقد انتهبت في الفتنة بين الأمين والمأمون ، ثم سوق الرقيق بدمشق [4] ، ثم سوق سامرا وهى سوق واسعة مربعة الشكل فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق • ويبدوا أن وظيفة قيّم الرقيق التي ذكرها صاحب الاغانى [5] في معرض كلامه عن الشاعر نصيب

(١) متز : الحضارة الاسلامية ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ وكذلك (Legacy of Islam P. 101)

(٢) هذه السوق كانت في الاصل دارا بناها عمرو بن العاص بجوار المسجد الجامع للخليفة عمر بن الخطاب . فكتب له عمر قائلا : انى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر ! » وامره ان يجعلها سوقا فكان يباع فيها الرقيق . راجع (ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس ص ٩٢)

(٣) كانت تقع في الجانب الغربى لمدينة بغداد وموضعها الحالي في المكان المعروف اليوم بالبحية (البوحية) من شرقى الكاظمية الشمالى • وكان فيها القافلائيون وهم كما في انساب السمعانى الذين يشترون السفن الكبار المنحدرة من الموصل ، والمصعدة من البصرة ويكسرونها ويبيعون خشبها وقيرها وقفلها اي حديدها . فالشط الغربى المنصوب فيه الجسر بين الكاظمية والاعظمية ، كانت أرضه من قطيعة الرقيق . راجع (ميخائيل العواد : المآصر في بلاد الروم والاسلام ص ٦٣ تعليق مصطفى جواد : راجع كذلك (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٥١٩ مادة الرقيق ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص ٤٤٢ حوادث سنة ٦٨٣ هـ) •

(٤) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٢ (نشر عزت العطار الحسينى) •

(٥) أبو الفرج الاصفهاني : كتاب الاغانى جـ ٢٠ ص ٢٧

مولى الخليفة المهدى ، وجدت في تلك المدن الكبرى للاشراف على تجار الرقيق ومعاملاتهم •

على أن بيع الرقيق الجيد في السوق العام كان بمثابة الاهانة للمبيع لهذا جرت العادة بالتجارة في هذا الصنف من الرقيق في منزل خاص على يد النخاس بعيدا عن السوق • ولا حاجة الى القول هنا أن تجارة الرقيق سواء أكانت بالسوق العام أم بعيدا عنه قد أدرت على النخاس أرباحا كثيرة ، غير أن تلك الارباح لم تغير من شأنه في المجتمع الاسلامى ، بل ظل هذا اللفظ يطلق على بائع الدواب ، ويستخدم في موضع التشنيع ، ومثال ذلك محمد بن الاشعث صاحب شرطة مصر في سب أحد القادة الخارجين على الخلافة حين وصفه « بالنخاس الكذاب » [1] • على أن العبارة نفسها تدل ـ ان صحت ـ على انتشار تجارة الرقيق الى درجة شارك فيها القادة وأرباب الدولة ، كما تدل ضمنا على كثرة الأرقاء وكثرة استخدامهم في القصور غلمانا وخدما • غير أن المراجع المعاصرة لا تسعف هنا للتدليل على الظروف التى مكنت للأتراك أن ينتقلوا من الخدمة في القصور الى الخدمة في وظائف الدولة حتى صار منهم الوالى على مصر وطرسوس أوائل الدولة العباسية ، ما عدا أنه جاء في ابن حسول [2] المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أن الأتراك

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ١٠٩ ـ ١١٠

(٢) ابن حسول : كتاب تفضيل الاتراك على سائر الاجناد . وابن حسول هذا من رجال السياسة في دولة آل سبكتكين ، وابان نهضة آل سلجوق في بلاد الرى حيث تولى رئاسة الديوان ، وقدم رسالته المذكورة الى السلطان طغرلبك السلجوقى ، وبين فيها أوصاف الترك وخصائصهم ، وعرف بالبويهيين وأصلهم وكانت وفاته سنة ٤٥٠ هـ . قد نشر الاستاذ عباس العزاوى هذه الرسالة في المجلة التركية :
(Turkiye Bulletin, Ankara1940, Tome IV, No 14 - 15)

الذين جاءوا الى المجتمع الاسلامي الاول عن طريق الحرب او الشراء ، كان الواحد منهم لا يرضى « الا أن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، ولا يسف في خدمة الى ما يسف اليه سواه من الحاصلين في الرق والمجلوبين بالسبى ، ككنس الدار وسياسة الدواب وما اشبه ذلك مما يستخدم فيه سائر الرقيق .» ثم يستطرد ابن حسول في هذه العبارة حتى يصل الى قوله : « وليس يرضى التركى اذا خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو التوسم بحجابة أو الرياسة على فرقة ، والأمر والنهى على عصبة . » ومعنى هذا من باب اطلاق المتأخر على المتقدم أن الأتراك منذ حلولهم بالمجتمع الاسلامى الاول ، لم يرضوا بالعيش الدنىء ولا بالخدمة في الاعمال الدنيئة ، وان ساداتهم اعتقوهم من الرق اذا توسموا فيهم نجابة أو متانة من الخلق أو أية صفة من الصفات الطيبة ، وان كثيرا من أولئك العتقاء دخل خدمة الدولة بدليل استطاعة بعضهم ان يصل الى وظائف الولاة في الولايات الهامة مثل مصر وطرسوس ، كما حدث لاشباههم من الرقيق الابيض في الدولة البيزنطية المعاصرة .

وصفوة القول ان الاتراك صاروا جنسا هاما في المجتمع الاسلامي منذ اوائل العباسيين على الاقل ، وان المعتصم لم يجعل الجيش منهم تخلصا من العرب والفرس فحسب ، بل لانه لمس أهميتهم وأدرك فيهم المقدرة على أن يكونوا جيش الخلافة العباسية .

وكان من الطبيعي ان يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية بعد ان صار منهم الجيش والقادة . فلما ضعف سلطان الخلافة في الاقاليم ، وجنح عمال الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، وصار الجيش وقادته من الاتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة ، ازداد الاتراك

أهمية على أهميتهم ، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة • غير ان الحركات الاستقلالية ما لبثت ان أغرت الاتراك أنفسهم حتى صارت معظم الدويلات الاسلامية التى نهضت في جوف الخلافة العباسية منذ اواسط القرن الثالث الهجرى من الترك ، وهؤلاء جعلوا جيوشهم من جنسهم ، بل ان بعض الدويلات الغير التركية جعلت تكوين جيوشها أو حرس ملوكها على الاقل من المماليك الاتراك المجلوبين عن طريق الشراء •

سيادة المماليك الاتراك في دول المشرق الاسلامي :

لعل أوضح مثال يدل على قوة نفوذ المماليك في دول المشرق الاسلامي ما يرويه المؤرخون من أن عمرو بن الليث الصفار ، ثانى ملوك الدولة الصفارية [1] (٢٥٤ـ٢٩٠هـ=٨٦٧ـ٩٠٣م) دأب على شراء المماليك الصغار من الترك، فجعل منهم فرقة لحرسه، وعكف على اهداء الكثيرين من تلك الفرقة لقادته دون ان يقطع رواتبهم من خزائنه ليطالعوه سرا بالاخبار التى لا يستطيع الوصول اليها علنا [2] • وكذلك كان الحال في

(١) مؤسس الدولة الصفارية هو يعقوب بن الليث الملقب بالصفار ، لانه واخاه عمرو بدءا الخياة في صناعة الصفر أي النحاس بسجستان . واشتملت تلك الدولة على سجستان وفارس وخراسان التي استولت عليها من الطاهريين وطوت بذلك صحيفة آل طاهر من الشرق سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) . وبعد موت يعقوب ، تولى اخوه عمرو بن الليث الصفار الذي قضى عليه السامانيون واستولوا على اراضيه سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) فانقضت بذلك الدولة الصفارية . راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٥٠ ـ ٢٧٥) وكذلك (Ency. of Islam art. Saffarids)

(٢) ابن الاثير : تاريخ الكامل جـ٧ ص ١٩٨ ـ ١٩٩

الدولة السامانية (١) (٢٦١ــ ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ ــ ٩٩٩ م) التى جعلت جيوشها من المماليك الاتراك منذ سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) برغم أصلها الفارسي • ومن مماليـــك السامانيين الاتراك الذين تجلت مواهبهم في الحروب واحتلوا المناصب الهامة في الدولة السامانية ، نذكر الامــير البتكين الذي الذي أسس دولة تركية لنفسه سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤ م) وهي الدولة الغزنوية التي ارتبط قيامها بالصراع القائم بــين العناصر الفارسية والعناصر التركية من أجل السيطرة على الاطراف الاسلاميـــة في القرن الرابع الهجري (٢) •

---

(١) تنسب الدولة السامانية الفارسية الى سامان خدات أحد أشراف بلخ . ومن سلالة سامان هذا نصر بن أحمد مؤسس تلك الدولة السامانية التي جعلت عاصمتها بخارى . وامتدت حدودها من المفازة الكبرى الى الخليج الفارسي ، ومن حدود الهند الى قرب بغداد . وظلت هذه الدولة مائة وسبعين عاما حتى انتهت على ايدى الغزنويين من جهـــة ، والترك الخاقانية أو ايلخانات تركستان من جهة أخرى ، وذلــك في أواخر القرن الرابع الهجرى . وقد عاش في كنف السامانيين عدد من كبار العلماء مثل الوزير محمد بن عبدالله البلعمى الذي ترجم تاريخ الطبرى الى اللغة الفارسية سنة ٣٥٢ هـ بعد أن حذف منه التفاصيل المملة . وقد اشتهرت ترجمته ، وترجمت بدورها الى لغات اخرى عديدة . ومثل ابى القاسم الفردوسي صاحب الملحمة الشعرية الفارسية المشهورة الشاهنامة (كتاب الملوك) التي يعتبرها الايرانيون اليوم من مفاخرهم الادبية لانها تقص أخبار ملوك الفرس القدماء . وقد انتقل الفردوس بعد ذلك الى خدمة الغزنويين واهدى ملحمته للسلطان محمود الغزنوى الذي منحه ٦٠ الف مثقال من الفضة على عدد ابياتها . راجع (ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ٧ ص ١١٠ــ١١١) وكذلك (Ency. Isl. art. Samanids)

(٢) انظر : Ency. Isl. art. Ghaznavids & Hitti : History of the Arabs P. 465)

على أن الامر الذي يدعو الى الالتفات هنا هو أن السامانيين لـم يستخدموا المماليك الاتراك فحسب ، بل انهم اكثروا منهم كثرة يدل عليها قول نصر الثاني بن أحمد مخاطبا أمراء دولته : « اتخذوا المماليـك وأحسنوا تربيتهم ، فهم اولاد يريدون حياة والدهم لان التسلط على المماليك من عجز المقدرة ••• وانما يجب الرفق بهم ، والاحسان اليهم ، والتوسعة في نفقتهم ، واطعامهم مما تأكلون ، والنهى عن ضرب الوجه وعن المثلة في العقوبة [١] » •

واذا قصرت هذه العبارة عن البرهان القاطع باكثار السامانيين من المماليك ، ففى كتاب سياسة نامة الذى الفه الوزير نظام الملك الطوسي سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) [٢] ، ما يدل دلالة واضحة على تلك الظاهرة ، كما يدل على مبلغ عناية الدولة السامانية بمماليكها ، وعلى مدى اعتمادها عليهم في الجيش والادارة وشئون الدولة عامة ، حتى يخيل للقارىء ان الدولة السامانية لم تكن سوى دولة مملوكية • وهذا نص ما جاء في سياسة نامة [٤] : « ان مماليك السامانيين يرقون تدريجيا بنـاء على خدماتهم وشجاعتهم ، وليس اعتمادا على المحسوبية او الجاه • فالمملوك عند شرائه يخدم عاما على قدميه ، فيسير مرتديا قباء من القطن يسمى زنداجى [١] ، بجوار سيده المتطى صهوة جواده • وليس من المسموح

(١) الحسن بن عبدالله : آثار الاول في ترتيب الدول ص ١١٥– ١١٦•

(٢) انظر (Ency. Isl. art· Nizam -al Mulk)

(٣) Siaset Nameh par Nizam - al - Mulk, traduit par Schefer P. 138 - 141 .

(٤) زنداجى نسبة الى مدينة زندنه Zandanah شمـال بخـارى ، واشتهرت في العصور الوسطى بهذه الملابس القطنية التي نسبت اليها . راجع (Le Strange : op. cit. P. 462)

له ان يركب الخيل اطلاقا في عامه الاول من الخدمة والا عوقب أشد العقاب • فاذا أتم المملوك عامه الاول أخبره عريف الدار بذلك حاجب الحجاب ، فيقدم الحاجب للمملوك حصانا تركيا بعنان دون سرج ، ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجا ولجاما مزينا بنجوم من المعدن ، وسروالا من القطن المخلوط بالحرير ، وبعض الاسلحة التي يحلقها في سرج فرسه • وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ذى قبل • وفي العام السابع يمنح خباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا ، كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته • وعندئذ يستحق المملوك لقب عريف الدار ، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الاسود الموشاة بالفضة ، كما يرتدى قباء كنجويا [1] • ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقى ، عاما بعد عام ، وتزداد حاشيته تدريجيا الى ان يصل الى مرتبة صاحب الخيل ، ثم حاجب الحجاب • ولا يأخذ المملوك لقب أمير ، ولا يتولى عملا كبيرا مثل القيام على ولاية من الولايات ، او فرقة من الفرق العسكرية ، الا بعد ان ينضج ، وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين [2] •

ففي هذا السن عهد الى المملوك السامانى البتكين حكم ولاية

---

(١) نسبة الى مدينة كنجه في اقليم شروان ، واشتهرت بصنع الاقمشة الحريرية الجميلة • راجع (Schefer: Op. cit. P, 140, note 2)

(٢) يشرح الحسن بن عبدالله في كتابه آثار الاول في ترتيب الدول ص ١١٦ ، أهمية ذلك الترتيب في تنشئة المماليك في الدولة السامانية في في قوله : « ويجب على على الملك الا يعجل على المماليك الصغار باشراكهم في الملك وندبهم للأمور الجسام بل على التدريج ، فان الغالب على هممهم القصور ، وربما بهرتهم الولايات الجسيمة فدهشوا ، وربما غرتهم فبطروا، فيجب الاحتياط والتأنى في ذلك لصغر سنهم وقلة تجربتهم .

خراسان ، فذهب اليها في نحو الالفين والسبعمائة من مماليكه الاتراك ، وفيهم مملوكه سبكتكين والد السلطان محمود الغزنوى • ويقال ان سبكتكين اشترى من تركستان ، وأنه حضر ذات يوم بين يدى البتكين مع حاجبه في عدد من المماليك بسبب وفاة عريف من عرفاء الدار ، وضرورة تعيين خلف له في تلك الوظيفة وملحقاتها من ميراث وحاشية • فوقع اختيار البتكين على سبكتكين ، وتعجب الحاجب من قرار الامير وأخبره ان المختار غلام حديث الشراء ، ولم يخدم عاما واحدا بعد ، على حين جرت العادة المتبعة ان تكون الخدمة سبع سنوات قبل الولاية على وظيفة من الوظائف • ويقال كذلك ان ألبتكين ندم في قرارة نفسه على التسرع في ذلك الاختيار الخارق للنظام المتبع في تربية المماليك ، وأنه التمس لنفسه العذر على هذا التجاوز بأن الغلام أصيل عريق النسب [١] •

ثم شاءت الاقدار ان تطوح بالبتكين والى خراسان من قبل السامانيين الى غزنة [٢] سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) في قلب جبال سليمان شمالى الهند حيث اقام بفضل مماليكه الاتراك دولة مستقلة لا شأن لها بالسامانيين الا من ناحية التبعية الاسمية • وتوفي البتكين سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، وآلت الامور في تلك الدولة بعد سنوات قليلة الى زوج ابنته ومملوكه

---

(١) يقال ان سبكتكين كان من ولد كسرى يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين ، وان أهله لجأوا بعد موت يزدجرد الى تركستان ثم ستقروا في سجستان واتحدوا هناك مع الترك . راجع (Schefer: Siaset Nameh P. 140 - 141)

(٢) غزنه مدينة وولاية في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند ، ويلفظها الخاصة غزنين وتسمى أيضا غزنية Ghazni .
نظر : (Journal asiatique 1934, Jan Feb. P. 141)

سبكتكين (٣٦٦ ــ ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ ــ ٩٩٧ م) الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية أو السبكتكينية [٢] • وبلغت تلك الدولة أوجها حين ألغى السلطان محمود الغزنوى بن سبكتكين (٣٨٨ ــ ٤٢١ هـ = ٩٩٨ ــ ١٠٣٠ م) اسم السامانيين من الخطبة في مملكته ، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله الذي أنعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة • ثم اضمحلت الدولة الغزنوية بعد وفاة السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ لظهور السلاجقة بزعامة طغرلبك ، واستيلائهم على معظم ممتلكات الغزنويين ، فأقتصرت الدولة الغزنوية على بعض الولايات الهندية الشمالية حول مدينة لاهور • على ان موضع الاهتمام هنا من تاريخ الغزنويين هو أنهم اعتمدوا على المماليك الاتراك في الجيش والادارة وشئون الحكم على غرار ما فعل السامانيون ، وأن ألتنتاش Altuntash مملوك سبكتكين نفسه هــو بدوره مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) [١] • واتبعت الدولة الخوارزمية سنة أسلافها من حيث الاعتماد الكلى على المماليك الاتراك في جميع شئون الدولة •

وفي سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦ م) استولى الغوريون بزعامة شهاب الدين الغورى على لاهور ، فانقضت بذلك الدولة الغزنوية • وتنسب الدولة الغورية (٥٤٣ ــ ٦١٣ هـ = ١١٤٨ ــ ١٢١٥ م) الى مكان نشأتها جبال الغور وهى ولاية بين هراة وغزنة • واستطاع الغوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد الغور وأفغـــان والهند الشمالية • فالدولة الغورية هي ثاني دولة اسلامية هندية بعد

---

(١) راجع (Lane Poole: The Mohammadan Dynasties P. 285

(٢) حمل التنتاش لقب خوارزمشاه ، واستمر حكم هذه الدولة في أسرته بعد مماته سنة ٤٢٣ هـ حتى سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) راجع (Ėncy. Isl. art. Altuntash)

الدولة الغزنوية • غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائما ، وانما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة ملكهم ، وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الاتراك • وقد أكثر السلطان محمد الغورى من شراء المماليك واعتنى بتربيتهم واعدادهم لمهمة الغزو والجهاد• ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة الى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده ، أجابه بأن لديه ألوفا من الابناء ، ألا وهم مماليكه الاتراك (١) •وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك الى مناصب الحكم والقيادة ، نذكر منهم : تاج الدين يلدز Yildiz الذي حكم كرمان ، وناصر الدين كوباشا في السند ، وقطب الدين أيبك في دلهى وهو أقوى الجميع نفوذا (٢) •

واستطاع محمد الغورى بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أيبك ان يملك جميع البلاد التى في شمال جبال فندهياس Vindhyas حتى مصبات نهر الكنج ، فيعمها الاسلام ، وتتحول معابدها الهندوسية الى مساجد ، ويدفع راجاتها الجزية صاغرين •

وكان قطب الدين أيبك رجلا مسلما متمسكا بشروط الاسلام ، ويظهر ذلك بوضوح في عدائه الشديد لنظام الطبقات الذي كان سائدا في الهند ، ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التي ينص عليها الاسلام • وينسب لأيبك في دلهى مسجد عظيم أسماه « قوة اسلام » ، وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدما ، وهى تعد أطول منارة في العالم ، ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف باسم « قطب منار » ، وتمتاز

(١) انظر Wolseley Haig: The Cambridge History of India) Vol. III pp. 1 - 37 & Lane - Poole. Medieval India under Mohammadan Rule p. 65)

(٢) أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٢٧ •

بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربي والهندي (١) •

وفي مارس ١٢٠٦ م (٦٠٣ هـ) اغتيل السلطان محمد الغورى على ضفاف السند بيد أحد غلاة الاسماعيلية ، وبموته اختفت غزنة والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهى (١) كعاصمة اسلامية لدولة سلاطين المماليك في الهند •

ولم يعش أيبك بعد موت سيده سوى بضع سنوات ، اذ انتهى حكمه كسلطان مستقل على هندستان في نوفمبر سنة ١٢١٠ م (٦٠٨ هـ) وذلك على أثر سقوله من ظهر جواده أثناء لعبه الكرة أو البولو ـ جوكان ـ فتوفي على الأثر (٢) • وسادت الفوضى بعد موت أيبك مدة من الزمان تولى فيها الملك ابن غير كفؤ يدعى أرام شاه ، وانتهى الامر بأن خلعه أحد

(١) انظر (Lan - Poole : Op. cit. P 68 - 69) ويقال ان السلطان التتمش مملوك أيبك وزوج ابنته وخليفته على عرش دلهى هو الذي بنى هذه المنارة عام ١٢٣١ ـ ١٢٣٢ م تكريما لولى الله قطب الدين بختيار الكعكى الذي أقام في غزنة والملتان ثم استقر اخيرا في دلهى حتى وفاته سنة ١٢٣٥ م راجع : (رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ١٩) وكذلك (Wolseley Haig: Camb Hist. of India III P. 55)

(٢) تسمى أيضا دهلى ودلى (القلقشندى : صبح الاعشى جـ٥ ص ٦٨ ـ ٦٩) وتقع في قلب سهول نهر الكنج في مكان أهلته الطبيعة ليكون عاصمة للهند الشمالية . ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهى كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لاهمية موقعها الاستراتيجي . وقد زارها الرحالة الطنجى ابن بطوطة في القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ووصفها بقوله : « وهى المدينة العظيمة الشأن ، الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالشرق » . (رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ١٦) وكذلك : (H . Dodwell : India, I , P . 25 & Ency . Britannica, art, India)

(٣) انظر (Ency. Isl. art. Aibeg)

مماليك أبيه البارزين وزوج ابنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الامراء ، واستأثر بعرش دلهى لنفسه عام ١٢١٦ م •

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك التي لم يعش أيبك مدة كافية ليدعم اركانها • فينسب الى هذا السلطان تأسيس مجلس من كبار أمراء المماليك عرف باسم « الاربعين » ، وكان الغرض منه هو تدعيم سلطان المماليك في الهند • ومن حسنات التتمش أنه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين ، فيؤثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض ، فكان اذا قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ ، نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمه (١) •

ويمتاز عصر هذا السلطان أيضا بظهور المغول وزعيمهم جنكيزخان الذى هدد العالم الأسيوى بأجمعه • وأول نذير دل على اقتراب هذا الخطر من الهند ، هو فرار يلدز حاكم غزنه ، بجيوشه الى داخل الهند ، أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية •

أخذت هذه القوى الثلاث تنحدر جنوبا بسرعة عنيفة عابرة سلاسل الجبال الشمالية الى داخل الهند • غير أن هذه العاصفة سرعان ما زالت بنفس السرعة العظيمة التي جاءت بها ، اذ من حسن حظ الهند ان المغول اتجهت ابصارهم نحو الغرب فتراجعوا منسحبين عن الهند • أما الجيوش الخوارزمية وقائدها جلال الدين منكبرتي آخر شاهات حوارزم ، فانهم انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا في تأسيس امارة لهم في البنجاب •

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، اذ أحدقت القوات

(١) رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ٢١

المغولية والخوارزمية بقوات منافسية في الشمال أمثال يلدز وكوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك ان يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيبك في شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه (١) •

وبلغ فوز التتمش أقصى مداه حينما اعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي ، سلطانا على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والالوية والبنود في أوائل سنة ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) ، فأصبح التتمش بذلك اول ملك في الهند تسلم مثل هذا التقليد • ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان التتمش نقودا فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه • ويعتبر هذا العمل شيئا جديدا على نظام العملة الهندية ، اذ كان الحكام المسلمون قبل ذلك يضربون نقودا معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كثورسيفا مثلا ، كما كانت أسماء الفاتحين تكتب بحروف هندية في غالب الاحيان • فالتتمش يعتبر أول من ضرب نقودا فضية عربية خالصة في الهند (٢) •

وتوفي السلطان التتمش سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين • كانت هذه السلطانة على حظ كبير من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم ، وألمت بالكثير من التعاليم الاسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على اخوتها الذكور لانغماسهم في الملذات ونادى بها ولية لعهده • ولما آلت اليها السلطنة ، دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر وسماها مؤرخو الهند باسم

---

(١) قتل يلدز حاكم غزنة سنة ١٢١٦ م وغرق كوباشا حاكم السند اثناء فراره سنة ١٢٢٨ م (ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٢٢ — ١٢٣) وكذلك (F, Pareja: Islamologia' I, P. 254)

(٢) راجع (Lane-Poole : Op. cit. P. 83; Arnold: The caliphate P. 86; Ėncy. Isl. art Iltutmish)

« ملكة دوران بلقيس جهان » ، أي فتنة العالم [1] .

جلست رضية الدين على عرش دلهى أربع سنوات تقريبا (٦٣٤ ــ ٦٣٨ هـ = ١٢٣٦ ــ ١٢٤٠ م) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشهـا على ظهر فيلها . وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في ادارة شئون الدولة ، فقد اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء المماليك أو جماعة الاربعين ، الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصا بعد موت التتمش ، وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الاحرار في مختلف الوظائف .

وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت اليها رجلا فارسيا يدعى جمال الدين ياقوت ويشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطانة رضية الدين قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الامر بقتلها في ١٣ اكتوبر سنة ١٢٤٠ م [2] .

في هذا الوقت ظهر المغول في اقليم السند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور في ديسمبر سنة ١٢٣١ م وذبحوا سكانها ، وفر حاكمهـا

---

(١) انظر (E . Blochet : Histoire des Sultans Malouks par Moufazzal Ibn abil - Fazail, Vol, I P. 375 note)

(٢) راجع (Wolseley Häig : The Câmbridge History of India Vol. III P. 60 & Ency. of Islam art. Ridiyya)

ويلاحظ ان موقف هذه السلطانة يشبه تماما موقف السلطانة شجر الدر التي حكمت مصر سنة ١٢٥٠ م والتي أثار حكمها استياء الرأى العام الاسلامى ، وانتهى امرها بالقتل ايضا ، راجع : (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٦٨)

قراقوش الى دلهى ، فأصبح الموقف يستدعى ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الامير بلبان أو بلبن أحد مماليك التتمش ، فاعتلى عرش السلطنة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغياث الدين .

وتضيف الروايات المعاصرة أن بلبان كان ينحدر من أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل من تركستان منذ حداثته تاركا أهله وأصحابه . ثم حدث ان سرق وبيع في الهند ، فاشتراه السلطان التتمش . وتزيد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بلبان في بادىء لامر لدمامته وقصر قامته ، فصاح به بلبان : « ياخوند عالم » ! (أي يا سيد العالم) « لمن تشترى هؤلاء المماليك الآخرين ؟ » فأجابه السلطان ضاحكا : « اشتريهم لنفسي » فرد عليه بلبان : « اذن فاشترنى لله عز وجل » ، فأجابه السلطان الى طلبه ، ثم سرعان ما ظهرت مواهبه فصار يتدرج في الرقى حتى اندمج في جماعة الاربعين مملوكا [1] .

اشتهر بلبان بشخصية عسكرية صارمة عادلة . وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الاربعين ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم . كذلك ضرب على أيدى المجرمين وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الاخيرة وانبثوا في المسالك والطرقات بين دلهى والبنغال يعيثون فسادا وتخريبا . فأزال بلبان الغابات التي كانت وكرا لتلك العصابات ، وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة ، وبذلك استتب الامن وعاد الاتصال بين دلهي والبنغال لفترة طويلة من الزمان .

---

(١) ابن بطوطة : رحلته المعروفة بتحفة النظار جـ٢ ص ٢٣ . وكذلك
(Lane - Poole : Medieval Indial under Moham. Rule P. 18)

كذلك عنى بلبان باقامة ادارة للمخابرات في جميع المدن المختلفة ، ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الاخبار أو ملوك البريد •

وكان تعيين هؤلاء الاشخاص يتم تحت اشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصي وذلك نظرا لاهمية الاعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة ، اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة، وسياسة أولى الامر فيها • ولهذا السبب حرص بلبان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين ، وخاضعة لسلطانه المباشر • ويروى المؤرخون كيف ان بلبان أمر باعدام احد هؤلاء المخبرين لانه تستر على حادث هام وقع في المدينة المكلف بأخبارها دون أن يخطره بذلك (١) •

وتجلت مواهب بلبان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت اقليم السند عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) فاستحق بذلك لقب « الق خان » أي الامير القوى • وترجع انتصارات بلبان على المغول الى الاستعدادات العظيمة التي قام بها هذا السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم اذا أعد مخازن هائلة للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون ان يفسد ، ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد : « وقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن

---

(١) راجع (Wolseley Halg : Op . cit . III P . 74) راجع كذلك (رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ٢ ــ ٣) حيث يتكلم ابن بطوطة عن مهمة اصحاب الاخبار خصوصا اذا قدم غريب على الهند « واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده ... عرفوه انه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد اصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيئا » . ويضيف ابن بطوطة في نفس المعنى (ص ٩) : « وفي مدينة ملتان قدم علينا ملك البريد واسمه دهنان وهو سمرقندى الاصل وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما يحدث بها ومن يصل اليها » .

ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة » . هذا وقد اهتم بلبان بتحصين الثغور الهندية وتجنيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان سنقر ، كما أعد جيشا قويا سريعا لصد أي هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة ــ وذلك على حد قوله ــ حتى لا تتعرض مدينة دلهى لمصير بغداد التعس [1] .

وفقد بلبان ابنه الاكبر الشهيد محمد خان في واقعة ضد المغول في اقليم الملتان وذلك في ٩ مارس سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) فحزن عليه حزنا شديدا ومات بعده بسنتين [2] .

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الاشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، اذ أن صرامته وقسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده ، فقد قضى على جماعة المماليك الاربعين ونفى كثيرا من ذوى النفوذ والجاه من الحكام او العلماء (نذكر منهم شاعره أمير خسرو) . وكانت كل آماله مركزة في شخص ابنه الاكبر الذي مات في عهده . ولهــذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هي أسرة الخالجية [1] التي استولت علــى عرش دلهى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه، وبذلك تنتهى دولة المماليك الاتراك في الهند .

قوة نفوذ الصقالبة في الغرب الاسلامى :

لم يقتصر التوسع في استخدام المماليك على الدول التي قامت بالجزء

(١) راجع : (Wolseley Haig : Op. cit. P 76 - 82)
(٢) راجع : (Wolseley Haig: Op. cit. P. 76 - 82)
(٣) أسرة افغانية نسبة لبلدة خالج بأفغانستان ، وقيل انها تركية الاصل ثم نزحت الى افغانستان حيث اخذت عن أهلها عاداتهم وطرائقهم . راجع (Wolseley Haig: Op . cit. III P. 76 - 82)

الشرقى من الدولة العباسية ، بل تعداه الى جميع الدول الاسلامية الاخرى بما في ذلك المغرب والاندلس •

واذا كثرت أنواع المماليك الاتراك على عهد الصفاريين والسامانيين والغزنويين بالمشرق ، فقد أضاف الامويون بالاندلس نوعا جديدا من المماليك وهم الصقالبة ، الذين كان طريقهم الرئيسي يبتدىء مـن شرق المانيا الى ايطاليا وفرنسا ومنها الى اسبانيا الاسلامية او الاندلس عن طريق نهر الرون وقطلونية حتى ثغر بجانة Pechina على الساحـل الشرقى الاسباني بجوار ألمرية (١) •

وكلمة صقلب esclave فرنسية قديمة ، ومعناها عبد أو رقيق ، وهى التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة ، لان بعض الجرمان دأبوا على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها الى عرب اسبانيا ، ولذا اطلق العرب عليهم إسم الصقالبة (٢) • ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية ، واستخدموهم في القصر الخليفى • ويذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار اسبانيا في القرن الرابع

---

(١) راجع كتابنا (الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية ص ٨ ، مدريد ١٩٥٣)

(٢) صقالبة جمع صقلبى ويسمون كذلك بالفتيان والخلفاء (Lévi Provençal, L'Éspagne musulmane aux Xème Siécle P. 54)

واطلق عليهم ابن حيـان وابن بسام اسم « المجابيب (ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، ورقة ٣) واطلق عليهم كذلك اسم العلوج (ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص ١٦٢) كما ترد تسميتهم بالخرس لعجمتهم وبالمماليك (المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٣٢٠)

الهجرى (١٠ م). ان الصقالبة ، كانوا يجلبون أيضا من ساحل البحر الاسود ، ومن لمبارديا وكلابريا في ايطاليا ، ومـــن قطلونية وجليقيـــة (غاليسيا) في شمال اسبانيا ، وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغاربة والاندلسيين على الشواطىء الاوروبية للبحر المتوسط [١] .

واستخدم الامويون في اسبانيا كذلك الخصيان من الصقالبة لخدمة الحريم ، واتخذ اليهود في فرنسا من تلك التجارة حرفة يربحون منها ، وصار لهم في مدينة فردان باللورين مصانع مهمة للخصاء Manufactures d'eunuques على حد قول المستشرق الهولندي دوزى [٢] . على أن احتراف تلك الصنعة لم يكن قاصرا على اليهود وحدهم — كما يقول دوزي — بل نرى أن المسلمين أنفسهم قد شاركوا في هذا المضمار ولا سيما في مناطق الثغور المتصلة بفرنسا ، يؤيد ذلك قول المقرى « ... وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة » [٣] . كذلك يشير المقدسي الى أن الصقالبة كانوا يحملون الى مدينة خلف بجانة أهلها يهود فيخصونهم [٤] .

وجاء أغلب الصقالبة أطفالا الى اسبانيا الاسلامية حيث ربوا تربية اسلامية ، ودربوا على أعمال القصر ، والحرس والجيش ، واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبى ، فصار منهم الادباء

---

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص ١١٠

(٢) انظر (R. Dozy : Histoire des musulnans d'Éspagne t. II P. 154)

(٣) المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جـ١ ص ١٤٠

(٤) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٢٤٢ نشر دى خويه (ليدن ١٩٠٦) .

والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة ، كما استطاع بعضهم أن يكون ثروات طائلة ، ويمتلك العبيد والاراضي الشاسعة • ومن بين الصقالبة الذين وصلوا الى مناصب الرئاسة في الدولة : الدرى الرئيس الاعلى للشرطة ، وأفلح صاحب الخيل سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ، وقند الذى حكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) ، وطرفة صاحب المطبخ ، وخلف الفتى الكبير [١] الذي عين مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ (٩٢٥ م) [٢] • ويروى ابن حزم ان المشرف على مكتبة الخليفة الحكم المستنصر الشهيرة ، كان صقلبيا يدعى تليد الخصى [٣] ،وهذا اعتراف واضح على علو شأن هؤلاء الصقالبة وطول باعهم في العلوم والآداب •

وان كانت ثمة حاجة للتدليل على أن الصقالبة من المماليك ، فان أسماءهم التي ذكرناها من قبل تدل على ذلـــك ، اذ المعروف أن العرب يسمون مماليكهم بأمثال تلك الاسماء ، كما أنه عرف عن المماليك بصفة عامة أنهم يتنكبون التسمية بأسماء الرسل والصحابة ويفضلون الاسماء التركية [٤] •

هذا ، ومن المعروف أن الامويين في الاندلس استخدموا مماليكهم

---

(١) من الوظائف الرئيسية في القصور والتي كان يشغلها الصقالبة ، وظيفة الفتيين الكبيرين وهما رئيسا الحرس في القصر والمسئولان أمـــام الخليفة عن النظام العام في القصر ، وكانا يقتسمان رئاسة الحرس الخاص بالامير . راجع (المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٣٦٤) وكذلك (Lévi Provençal : L'Espagne âux Xeme Siècle P. 54)

(٢) انظر (Lévi Provençal : Op. cit. P. 105)

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٣٦٢ ، ٣٧١ •

(٤) راجع (Poliak : Le dialecte des mamelouks, Revue des Etudes Islâmiques, Cahier III, 1935)

من الصقالبة في الادارة والجيش للحد من نفوذ الارستقراطية العربية في الحكم ، واضعاف سيطرة الجند العرب والبربر ، ومثال ذلك تقليد عبد الرحمن الناصر لمملوكه « نجدة » الصقلبي قيادة الحملة الموجهة ضد راميرو الثاني Ramiro II ملك ليون وحلفائه أصحاب مملكة نافارا Navarra ، وهي الحملة التي انتهت بهزيمة المسلمين في وقعة شمنقة Simaneas والخندق Alhandega عام ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) • ويقال ان سبب تلك الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم ، اذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة ، فأدى ذلك الى الهزيمة وقتل القائد « نجدة » ، وفرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارسا بعد أن نجا بأعجوبة • ويقول صاحب كتاب أخبار مجموعة ان عبد الرحمن الثالث « لم تكن له بعدها غزوة بنفسه » (١) وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر قام الصقالبة بدور مشابه لدورهم على عهد والده من حيث النفوذ والعظمة (٢) • وعند وفاته ظن الصقالبة أنهم أصبحوا سادة الموقف ، ويذكر ابن عذارى ان قصر الحكم الثاني اشتمل على ما يزيد عن الالف خصي ، وأن جيش قرطبة تكون معظمه من الصقالبة ، وأن قيادته كانت في يد اثنين من كبار الصقالبة وهما : فائق وجؤذر الحكمى (٣) • ويقول ابن الابار ان جؤذر كان عالما أديبا يتحقق بعلم العربية والتدقيق لمعانيها (٤) •

---

(١) اخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ١٥٥ — ١٥٦ حيث يرد ان الخليفة عبد الرحمن الناصر سماها غزاة القدرة لاحتفاله بها قبل خروجها احتفالا عظيما .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٣٦٣ ، راجع كذلك وصف الهدية التي قدمها الفتى درى الصقلبي للحكم المستنصر في (ابن حيان : المقتبس في أخبار بلد الاندلس ص ١٠٦ نشر عبد الرحمن حجى .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب جـ٢ ص ٢٧٧

(٤) ابن الأبار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ص ١٠ ، ترجمة رقم ١٧ .

وقد حاول فائق وجؤذر اخفاء خبر موت الحكم الثانى ليحولا دون المناداة بوريثه للملك ، هشام ، لانه طفل صغير ، وحاولا ترشيح شاب كامل الرجولة اسمه المغيرة ، من أحفاد عبد الرحمن الثالث ولكنهما وجدا من يقاومهما في أشخاص الوزراء امثـال جعفر بن عثمـان المصحفى ، والمنصور بن أبى عامر • وقد استطاع هذا الاخير ان يدبر اغتيال المغيرة مرشح الحزب الصقلبى ، وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم المستنصر الذي لقب بهشام المؤيد • واستطاع المنصور بعد ذلك أن يشتت شمل هؤلاء الصقالبة من القصر الخلافى [١] ، وأن يولى صقالبة غيرهم من مماليكه عرفوا باسم الفتيـان او المماليك العامرية [٢] • وقـد وصف ابن بسام أحد هؤلاء الفتيان وصفا طريفا بقوله :

« وكان لابن أبى عامر فتى يسمى فاتنا أوحد لا نظير له في علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالادب ، ناظر صاعدا [٣] بين يديه ، فظهر عليه ، وبكته حتى أسكته ، فازداد المنصور به عجبا • وكان فاتن حسن الخط واسع المعرفة ، فصيح اللسان حاضر الجواب الى عفاف طعمة ونزاهـة نفس وجمال صورة • وكان ممن تباهى الملوك بخدمته ، وتستريح الى حلمه • وتوفي هذا الفتى فاتن سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) ، وبيعت في تركته قطعة دفاتر أدبية حسنة الضبط دلت على جودة عنايته ، وكان منقادا لما نزل به من المثلة ، فلم يتخذ النساء ولا كشفن له عورة • وكان في ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المجابيب ممن أخذ مـن الادب بأوفر

---

(١) ابن بسـام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة جـ١ ق٤ ص ٤٤
(٢) ابـن الخطيب : كتـاب أعمال الاعلام (الخـاص بالاندلس) ص ٢٤٢ ، ٢٦٠
(٣) هو الاديب اللغوى أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادى . راجع ترجمته في (ابن بسام : نفس المرجع ص ٢ ــ ٢٢)

نصيب » (١) .

ويضيف ابن الابار ان أحد الصقالبة واسمه حبيب ، ويتصف بالفهم والتيقظ ، ألف زمن هشام الثاني (المؤيد) كتابا تعصب فيه لقومه وعنوانه : « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » (٢) . وقد ذكر ابن بسام في ذخيرته أنه اطلع على هذا الكتاب ، وأنه يحتوى على جملة من أشعار الصقالبة ونوادر أخبارهم ، منهم عمارة الصقلبى الفتى الكبير ، والصقلبى ميسور ، ونجم الوصيف . ويلاحظ أن ابن بسام قد أضرب عن ذكر تلك النوادر والاشعار معتذرا بقوله : « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا » (٣) . وهذا نقص يؤسف له . ومن العجيب ان هذه العبارة تذكرنا بعبارة اخرى مماثلة لابن بسام وفي نفس كتابه ، حينما اشار الى الموشحات بقوله : « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، اذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب » (٤) .

ويدفعنا تجاهل ابن بسام لهذه الاشعار الى التفكير في أحد أمرين :

اما ان اشعار الصقالبة كانت من النوع الشعبى ، على شاكلة الموشحات ، خصوصا وأنه قد عرف عنهم تذوقهم لهذا النوع من أوزان أهل الاندلس ، ولا سيما موشحات الشاعر عبادة بن ماء السماء الذي مدحهم في كثير من شعره (٥) ، ويؤيد هذا أيضا ما قاله المستشرق الاسباني

(١) ابن بسام : الذخيرة جـ١ ق٤ ص ٢٢

(٢) ابن الابار : التكملة جـ١ ص ٣٢ (مادة رقم ٨٩) حيث يصف حبيب الصقلبى بانه كان من أهل الادب والاتصاف بالفهم والتيقظ .

(٣) ابن بسام : كتاب الذخيرة جـ١ ق٤ ص ٢٢

(٤) ابن بسام : نفس المرجع السابق جـ٢ ق١ ص ٢

(٥) ابن بسام : المرجع السابق جـ١ ق٢ ص ١ – ١٧ وكذلك (Juliân Riberâ: Épicà Andâluzâ Romànceàdâ, en Disertaciones, y Opusculos P. 137 notâ 2 tomo I)

خوليان ربيره من أن عددا كبيرا من الصقالبة وهم الواردون من جليقية ، كانوا يجيدون لغة الرومانس Romance وهى اللغــة الاسبانية الشعبية الدارجة التي كانت سائدة بين المسلمين والمسيحيين في الاندلس ، والتي كان من أثر اندماجها باللغة العربية أن ظهر ذلك الفن الشعبى المعروف بالموشحات والازجال (١) .

واما أنها كانت أشعارا كلاسيكية من نوع الفخر على العنصر العربى، بحكم كون مؤلفيها ليسوا بعرب . وهذا مما دعا ابن بسام الى تجاهل شعرهم . وأغلب الظن ان الرأى الثانى هو الارجح ، وذلك لسببين :

السبب الأول : أن ابن بسام كان متعصباً للمدرسة العربيــة الارستقراطية التي ظهرت في أوائل القرن الخامس الهجري (١١ م) والتي كان يمثلها الشاعر ابو عامر بن شهيد ، والمؤرخ أبو مروان بن حيان ، والفقيه أبو محمد بن حزم (٢) . فنجد ابن بسام يفرد لهم التراجم الطوال ويحفظ لنا الشيء الكثير من كتبهم الضائعة مثــل كتــاب المتين لابن حيان (٣) ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد (٤) .

والسبب الثاني : هو عنوان كتاب حبيب الصقلبى نفسه الذي يظهر لنا بوضوح نزعة المؤلف في اظهار فضائل الصقالبة على الادب والشعر

---

(١) J Ribera: Él Càncionero de Abencuzman, en Op. cit. I, P 21

(٢) راجع E. Gàrcià Gomez· El Collar de la Pàloma de Ibn Hazm, (la introduccion) P 6 - 9

(٣) انظر É. Garcià Gomez : A proposito de Ibn Hàyyàn , Al Andàlus 1946 P. 395

(٤) ابن بسام : الذخيرة جـ١ ق١ ص ٢١٠

العربى ، وتفوقهم على العنصر العربى في هذا المضمار ، وهذا مما دفع بالمستشرق الالماني جولدزيهر الى اعتبار هذا الكتاب « البداية الادبية الاولى نحو الشعوبية في اسبانيا » (١) •

والى جانب هذا الامتياز الادبى ، اختص الصقالبة بألوان من الالحان والرقصات التي نسبت اليهم ، فقيل اللحن الصقلبي ورقص الصقالبة • وقد اعطانا المؤرخ المعاصر ابو بكر الطرطوشي وصفا جميلا لهذه الرقصات يذكرنا بالرقص الاسبانى في وقتنا الحاضر ، اذ يقول :

« ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا فقالوا اللحن الصقلبى • فاذا قرؤوا قوله تعالى : « واذا قيل ان وعد الله حق » ، يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على ايقاع الارجل ، ويرخفون الاصوات بما يشبه تصفيق الايدى ورقص الارجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة » (٢) •

على أن هذا الامتياز الادبى والفنى لم يمنع من أن الصقالبة أثناء احتضار الخلافة الاموية بالاندلس ، لعبوا دورا سيئا بوجه عام ، فشاركوا في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد ، فأحيانا نراهم منتصرين ، وأحيانا أخرى منهزمين ، ولكنهم كانوا يظهرون دائما روح الاقدام والطموح والاستبداد • وتزعمهم الخصى خيران العامرى رئيس حزب

---

(١) راجع Goldziher Ignàz: Die Suubijjà unter der Muhammedanern ie Spanien, Z. D. M. G. 1899, P. 604

(٢) راجع (ابو بكر الطرطوشي (ت.٥٢٠ — ٥٢٥ هـ) كتاب الحوادث والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبى (تونس ١٩٥٩)

الصقالبة في العاصمة قرطبة ، ومن هذا الحزب تكونت الدويلات الصقلبية في شرق الاندلس :

في طرطوشة ، والمرية ، ومرسية ، ودانية ، وبلنسية ، في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجرى (١١ م) [١] .

وكانت هذه الدويلات تجمعها رابطة تحالف، وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية ، لان أصحابها من المماليك العامريين . وقد امتد سلطان هؤلاء الصقالبة على الشاطىء الشرقي الممتد من نهر ابرو حتى ثغر المرية والجزائر الشرقية (البليار) [٢] .

ففي مدينة ألمرية Almeria نسمع عن خيران الصقلبي السالف الذكر الذي استقل بها سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وانضم اليه فتيان المنصور بن ابى عامر ، فحولهم وخصيانهم ، وكان خيران يدعى بالخليفة وبالفتى الكبير . وقد ازدهرت في عهده العمارة والصناعة ونظام الرى ، ومدحه الشاعر الاندلسي أبو عمر أحمد بن دراج القسطلى سنة ٤٠٧ هـ بالقصيدة التي مطلعها :

---

(١) تنبغي الاشارة هنا الى أن بعض ملوك الطوائف امثال بنى حمود الادارسة في مالقه ، استخدموا أيضا الصقالبة في قصورهم تشبها بخلفاء قرطبة ، ونذكر على سبيل المثال أبا الحسن على بن حمود الذي انتهت حياته على ايديهم اذ قتله ثلاثة من صقالبته في الحمام سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) . راجع (ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ورقة ٢٩١ ـ ٢٩٢ (نسخة الاسكوريال) .

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين جـ١ ص ٤٦ ترجمة عبدالله عنان .

وكذلك (Lévi Provençal: L'Éspagne musulmane aux Xeme Sièçle, P. 30

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران   وبشراك قد آواك عز وسلطان[1] •

ولما توفي خيران سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) خلفه أخوه زهير العامرى (٤١٩ـ ٤٢٩ هـ = ١٠٢٨ ـ ١٠٣٨ م) وقد وصفه ابن حيان بأنه كان « ••• فاضلا شهما داهية سديد المذهب مؤثرا للاناة عالى الهمة ، وله بالمرية آثار جميلة ، وهو الذى بنى المسجد الجامع بها وزاد فيه الزيادات الثلاث ما سوى القبلة ، وكان يشاور الفقهاء[2] ويعمل بقولهم ، وامتدت أطناب مملكته من المرية الى قرطبة ونواحيها والى شاطبة وما يليها الى بياسة الى الفج من أول طليطلة » [3] •

وتلقب زهير بلقب عميد الدولة [4] ، وكان وزيره ابو جعفر بن عباس من أشهر شخصيات ذلك العصر ، وقد قالوا في هذا الوزير انـه اختص بأربعة أشياء : الاسلوب والثروة والبخل والكبرياء • وقد أفسد كبرياء ابن عباس العلاقات بين زهير وبين باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ، فقامت حروب بينهما انتهت بمصرع زهير ووزيره [5] ، وضمت المرية في النهاية الى عبد العزيز بن ابى عامر صاحب بلنسية •

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص ١٦٦

(٢) انظر دعابته مع قاضي المرية الفقيه ابى الحسن مختار الرعينى ، في (المقرى : نفح الطيب جـ٣ ص ١٦٦ ـ ١٦٧)

(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٤٨ ، الاحاطة في اخبار غرناطة جـ١ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩

(٤) راجع Antonio Prieto Vives : Los Reyes de Taifas P. 34

(٥) Gonzalez Palencia:Historia de la Espàna Musulmana P. 72

وفي مدينة طرطوشة Tortosa تكونت امـارة صقلبية (٤٢٧ — ٤٥٣ هـ = ١٠٣٥ — ١٠٦١ م) حكمها على التوالى ثلاثة من الفتيـان العامرية وهم :

نبيل أو لبيب [١] ، ومقاتل ، ويعلى • واختلفت المصادر في حكم نبيل فبعضها يشير الى أنه حكم قبل مقاتل ، والبعض الآخر يذكره بعد يعلى ، ويرجع الاستاذ Antonio Prieto بناء على دراساته لنقود تلك الفترة ، ان نبيل حكم مرتين وان كلا الرأيين صحيح [٢] • وكيفما كان الامر فقد انتهى امر هذه الامارة الصقلبية بانضمامها الى ملك بنى هود في سرقسطة أيام عماد الدولة احمد بن المستعين سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م)•

أما مدينة بلنسية Valencia ، فقد استقل بها القائدان الصقلبيان مبارك ومظفر العامريان (٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م) • ويروى ابن حيان أنه كان بين هذين الصقلبيين ألفة وأخوة ومحبة صادقة ، نزلا معا بقصر الامارة مختلطين تجمعهما في أكثر أوقاتهما مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر في عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب ••• الخ ، ولا ينفردان الا في الحرم خاصة ، على أن جماعة حرمهما كن مختلطات في منازل القصر ومستويات في سائر الامر [٣] • وكان التقدم لمبـارك في المخاطبات الرسمية لفضل صرامة ونكراء كانتا فيه يقصر فيهما مظفر بدماثة

---

(١) تطلق عليه المصادر العربية اسم لبيب (ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص ٢٦٣) بينما نقش اسمه على النقود على شكل نبيل . راجـع Antonio Pricto Vives: Op· cit· P. 37 nota 2

(٢) ارجع Antonio Prietà y Vives : Op· cit P. 38 -39

(٣) جرت عادة بعض زعماء الصقالبة ان يتخذوا الحريم رغم كونهم خصيان •

خلقه وانحطاطه لصاحبه في سائر أمره على تحليه بكتابة ساذجة وفروسية، فبلغا الغاية من اقتناء فاخر الاسلحة والآلات الملوكية ، والخيل المقربات ونفائس الحلى والحلل ... هذا وقد أشادا البناء والقصور ، وحصنا بلنسية بسور أحاط بمدينتها تحت ابواب حصينة ، فارتفع عنها الطمع ، وأقبل الناس اليها من كل قطر بالاموال ، وطمحت لسكناها الآمال . واستوطنها جملة من أهل قرطبة المضطربة ، فألقوا بها عصى التسيار ، فبنوا المنازل والقصور ، واتخذوا البساتين الزاهرة ، والرياض الناضرة ، وأجروا خلالها المياه المتدفقة (١) .

وقد أحاط بهذين الاميرين طائفة من العلماء والادباء والشعراء أمثال التاكرنى ، وابن المهلب ، وابن طالوت ، ومدحهما الشاعر ابن دراج القسطلى بقصيدة مطلعها : —

أنورك أم أوقدت بالليل نورك لباغ قراك أم لباغ جوارك (٢) .

ويشير ابن حيان الى أن هذا الثراء الفاحش كان يقابله فقر مدقع من جانب أكثر الرعية وذلك من كثرة الضرائب ، حتى غدا كثيرا منهم يلبسون الجلود والحصر ، ويأكلون البقل والحشيش ، وفر أكثرهم من قراهم (٣) .

(١) ابن بسام : كتاب الذخيرة ، القسم الثالث ، ورقة ٣ (مخطوط الاكاديمية التاريخية الملكية بمدريد رقم ١٢) ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٦ — ٢٥٨

(٣) ابن بسام : المرجع السابق ورقة ٤٣ ، ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٦٢

ويقال ان الاهالى اعترضوا مباركا يوما وهو خارج من قصر بلنسية، يشتكون من الضرائب التي فرضها عليهم ، فقال « اللهم ان كنت لا أريد انفاقه فيما يعم المسلمين نفعه ، فلا تؤخر عقوبتي يومى هذا ، وركب اثر ذلك ، فلما اتى القنطرة ، تعثر فرسه فسقط مبارك وسقط الفرس فوقه ففاضت روحه • وقد ثارت العامة بعد ذلك ، وقتلوا زميله مظفرا واتبهوا قصرهما [١] • واستطاع نبيل الصقلبى صاحب طرطوشة أن يضم بلنسية الى ملكه ، ولكن اهلاالي ثاروا عليه وقتلوه لميله الى صاحب برشلونة Conde de Bàrcelonä • وانتهز عبد العزيز بن ابى عامر هذه الفرصة واحتل بلنسية سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) [٢] •

اما مدينة دانية Denia فقد استقل بها سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) قائد صقلبى مشهور هو أبو الجيش مجاهد العامرى • ومجاهد هذا من أولئك الافراد القلائل الذين يمتازون بارادة قوية ، وذهن متقد حاضر ، وأفق علمى واسع ، وتطلع شديد الى المجد والسلطان • وقد أعطانا ابن حيان صورة واضحة لحياة هذا الرجل العلمية فقال : « كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل ، من أشفها العلم والمعرفة ، اللذان لم يكن في الاحرار ولا في الموالى أثبت قدما منه فيهما ••• ولا سيما علم العربية ، فانه تحقق به الى ما يتصرف من علم القرآن : قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره ، وقد عنى بطلب ذلك من صباه وابتداء حاله الى اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مرسه في الحروب برا وبحرا حتى صار في المعرفة نسيج وحده • وجمع من دفاتر العلوم خزاين

---

(١) ابن بسام : نفس المرجع ورقة ٤ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٩

(٢) ابن بسام : نفس المرجع ورقة ٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٣ ص ١٦٣ ، وكذلك Antonio Prieto, Vives Op· cit. P. 37, 164

جمة ، وأتت اليه العلماء من كل صقع ، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم كأبى عمرو المقرىء ، وابن عبد البر ، وابن سيده ، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه [1] وغلمانه ، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن ويشاركون في فنون من العلم ، يجملونه بها ويشرفون دولته • ومنها التقدم في الفروسية والحذق بمعانيها، فلم يك في ملوك الزمان فارس يعادله شكلا ولباقة ورواء وهيبة وحسن عمل في السلاح وتقليبا له ، الى حذق بأبواب الثقافة والرماية وتدقيق لمعانيها ، فلايضم من الفرسان الا الابطال الشجعان • ثم أكثر من التخليط في ذات أمره ، فطورا ناسك متبرىء من الباطل كله ، منقطع الى الجد وأهله ، لا يستريح الا الى جزء يقرؤه ودفتر يطالعه او علـم يذاكره ، وتارة لا يأنس بشيء من الجد ولا يعرف غير البطالـة واللهو • وكان مذهبه فيالجود قصدا ، لم ينهمك فيه فيعزى اليه ، ولا كر عنه فيوصف بضده ، فأعطى وحرم ، وجاد وبخل ، ووضع الاشياء مواضعها فكأنه نجا من عهدة الذم • وكان مع أدبه وعلمه أزهد الامراء في الشعر ، وأنكرهم على منشده ، لا يزال يتعقبه بنقده ، كاشفا له عن لفظة أو شبهة أو سرقة أو احالة ، فأقصر الشعراء عن مدحه [2] •

ويروى الشقندى في رسالته أن أبا غالب اللغوى ألف كتابا ، فبذل له مجاهد العامرى ألف دينار ومركوبا وكسى ، وطلب منه ان يزيد أنه

---

(١) نذكر منهن العبادية جارية المعتضد بن عباد باشبيلية التي اهداها اليه مجاهد من دانية والتي كانت اديبة كاتبة شاعرة ذاكرة لكثير من اللغة . راجع (المقري : نفح الطيب جـ ٦ ص ١٩ ، ٢٠)

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، ورقة ٥ ، ابن عذارى : البيـان المغرب جـ٣ ص ١٥٥ ــ ١٥٦ ، ابن الخطيـب : اعمال الاعـلام ص ٢٠٥ ــ ٢٠٣

ألفه لابى الجيش مجاهد ، فلم يقبل ذلك ابو غالب قائلا : « كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى ، أجعل في صدره اسم غيرى وأصرف الفخر له !؟ ، لا أفعل ذلك » . فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أنفته وهمته وضاعف له العطاء ، وقال : هو في حل من أن يذكرني فيه ، لا نصده عن غرضه (١) . ويضيف الضبى أن مجاهدا ألف كتابا في العروض يدل على قوته فيه ، ويذكر أيضا أن أبا العلاء صاعدا اللغوى زاره في بلاطه ومدحه بالقصيدة التى آخرها :

مجاهد رضت اباء الشمّوس فأصحب ما لم يكن يصحب(٢) .

ولقد اجتمعت في مجاهد أيضا صفات سياسية وحربية لا تقل عن صفاته العلمية ، ويظهر ذلك في محاولته احياء الخلافة الاموية بمقر ملكه بدانية ، ليقيلها من عثرتها التي لحقتها بقرطبة ، وليجعل لنفسه شيئا من الزعامة والنفوذ الادبى كما يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها ، فنراه يبايع بالخلافة شريفا قرشيا قرطبيا يمت بصلة قرابة للأمويين ، وهو الفقيه ابو عبدالله بن الوليد المعيطي (٣) ، وسماه المنتصر

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ٤ ص ١٨٠ ، الحميري : الروض المعطار ص ١٨٢ .

(٢) الضبى : كتاب بغية الملتمس في تاريخ اهل الاندلس ص ٤٥٩ رقم ١٣٧٩ .

(٣) يروى الكندى (كتاب الولاة ص ١٠٠) انه بعد سقوط الدولة الاموية في المشرق سنة ١٣٢ هـ فر من مصر بعض الامويين على ارجلهم الى الاندلس منهم عمرو بن محمد بن عمارة المعيطى . كذلك أورد الحميدى ترجمة لابى مروان القرشي المعيطى في كتابه جذوة المقتبس ص ٤٠٢ رقم ٩٥٤ . راجع كذلك (Roque Chapas : Mochahid hijo de Yusuf y Ali hijo de Mochahid , en Homenaje a F. Codera P. 416)

بالله ، وأثبت اسمه في سكته وأعلامه وذلك في جمادى الثاني سنة ٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٠١٤ م) [١] •

كذلك اهتم هذا الامير بتقوية اسطوله وتشييد حصونه وقلاعه التى ما زالت اطلالها باقية الى اليوم • ولا شك ان الموقع الجغرافي الممتاز لمدينة دانيه على ساحل البحر المتوسط جنوبى بلنسية ، كان له اثر كبير في هذا الاهتمام • كذلك يلاحظ ان مدينة دانية كانت محاطة بغابات كثيفة من شجر الصنوبر الذى تصنع منه السفن فكان هذا الخشب يقطع ويلقى في مياه الأنهار المجاورة مثل نهر شقر Jucar ويحمل الى دانية التي كانت تضم دار صناعة ضخمة (ترسانة) لصناعة السفن الكبيرة [٢] • ولهذا كانت دانية مثل المرية قاعدة هامة للاسطول الاندلسي منذ أيام الامويين • ولقد استغل الامير مجاهد هذا الموقع الاستراتيجي الهام في أعماله التوسعية وغزواته البحرية على سواحل فرنسا وايطاليا وقطلونية [٣] • وبدأ مجاهد هذه الاعمال بضم الجزر الشرقية (البليار) الى أملاكه في رمضان سنة ٤٠٥ هـ (مارس سنة ١٠١٥ م) • ومن قواعد هذه الجزر اطلق أسطوله للغزو في غرب البحر المتوسط •

ففى ربيع لاول سنة ٤٠٦ هـ (سبتمبر ١٠١٥ م) أي بعد خمسة

---

(١) نقش على السكة العبارة الآتية : « الامير عبدالله امير المؤمنين — مجاهد » . ودار السكة التي ضربت فيها تلك العملة كتبت باسم (الوطه) ويرجح انها والوطه التي ذكرها الجغرافي القزوينى على انها مدينة هامة في جزيرة ميورقة . راجع (Codera : Mochehid conquistador de Cerdana-Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II P. 123, Palermo 1910)

(٢) الحميري : الروض المعطار ص ١٠٢ والترجمة ص ٩٥

(٣) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣١٣ — ٣١٤

أشهر من احتلاله لجزر البليار ، أبحر مجاهد في أسطول كبير مكون من مائة وعشرين مركبا عليها ألف فارس ، متجها نحو جزيرة سردانية مصطحبا معه زوجته المسيحية جود ، وابنه الاكبر عليا وبعض بناته . واستطاع مجاهد أن يحتل جزءا كبيرا من هذه الجزيرة ، وأن يهزم ويقتل قائدا من قوادها يدعى مالوتو ، وأن يفرض الجزية على بعض حكامها ، ويأسر عددا كبيرا من أهلها . وفي ذلك يقول ابن حيان : « وكسد في زمانه السبى وبخست فيه الاثمان . وقد ساعدته الاموال التي غنمها في اختطاط مدينة واسعة شرع في بنائها هناك ، وانتقل اليها بأهله وولده » [1] .

وواضح أن مجاهدا أراد ان يجعل من سردانية رأس جسر يهاجم منه الاماكن التي تليها وهى السواحل الايطالية الغربية . اذ انه قام بعد ذلك بغزو مدينة لونى Luni الايطالية ، واتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ما حولها من المناطق الساحلية . وتقع هذه المدينة على ساحل البحر التيرانى بين بيزا وجنوة على خليج سبيزيا Spezia في اقليم اترووريا Étruria . وقد امتازت بمركزها التجارى الهام في هذه المنطقة .

ويروى المؤرخ الفرنسي لويس ماس لاترى ان احتلال مجاهد لمدينة لونى ، كان يفرض عليه المرور في مضيق بونيفاتشو Bonifacio الذي يفصل بين سردانية وكورسيكا ، ولهذا رجح ان يكون مجاهد قد احتل ايضا الساحل الجنوبي لجزيرة كورسيكا كى يضمن سيطرته على هـذا

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ١٩ ، ٢ وكذلك (Codera : Mochehid conquistador de Cerdana , Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II P. 115 - 133 (Palermo 1910)

الممر البحرى الذي يفصل بينه وبين الشواطىء الايطالية [١] .

كذلك يشير المؤرخون الى ا نغزوات مجاهد لم تقتصر على ساحل ايطاليا الشمالى الغربى ، بل شملت ايضا ساحل اربونة Narbonne الفرنسي ، وساحل برشلونة الاسباني . وكل هذا يدل على أن مجاهدا أراد أن يستعيد نفوذ الاندلسيين في هذه المناطق الساحلية الايطالية والفرنسية بعد أن انسحبوا منها منذ عهد قريب ، وفقدوا أهم معقل لهم هناك وهو حصن فراكسنيتم Fraxinetum [٢] . غير أنه يؤخذ على مجاهد في هذا الصدد ، أنه لم يقدر ظروف الزمان والمكان عندما قام بهذه المغامرة الغير مأمونة العواقب . ذلك لان الاوضاع الحربية في غربى حوض البحر المتوسط كانت قد تغيرت عما كانت عليه في القرن الرابع الهجرى (١٠م) أيام الامويين ، اذ طرأ عليها عامل جديد وهو ظهور بيزا وجنوة وساحل ايطاليا الشمالي الغربى كقوى بحرية ضاربة في البحر منذ بداية القرن الخامس الهجرى (١١م) . هذا الى جانب ان أهالى وحكام

---

(١) انظر (Mas Latrie: Traités de paix et de commerc eet documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentriönale au môyen age p. 8 (Paris 1866)

وكذلك (كليكيا سارنلى : مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى في غربى البحر المتوسط ص ١٩٨ — ١٩٩)

(٢) هذا الاسم فراكسنيتم اطلقه الكتاب الاوربيون القدماء على معقل اسلامى اسسه المجاهدون الاندلسيون على قمة جبل في خليج سانترويز Saint Tropez سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) . وقد اندرس هذا الاسم الآن ، واغلب الظن انه كان في نفس المكان الذي عليه الان قرية جارد فرينه Garde Freine t . ويمتازهذا الموقع المرتفع بانه كان يتحكم في ممرات جبال الالب الموصلة بين ايطاليا وفرنسا ، ويهدد المدن الساحلية الفرنسية والايطالية في هذه المنطقة . راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٦٩ وما بعدها) .

تلك المنطقة لم ينسوا ما فعله قراصنة الاندلسيين في بلادهم خلال السنوات الطويلة الماضية ، فأقبلوا على الملاحة اقبالا جديا . ويذهب بعض المؤرخين الى أن تخليص حصن فراكسنيتم من قبضة الاندلسيين سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) على يد وليام حاكم بروفانس ، ربما كان العامل الحاسم في اقبال اهالى تلك المناطق على ركوب البحر (١) .

وكيفما كان الامر ، فان الحملات البحرية التي قام بها مجاهد الصقلبى في البحر المتوسط ، قد أفزعت حكام غرب أوربا ، ودفعتهم الى التكتل ضده بزعامة البابا بندتو الثامن BenedettöVIII ولم تلبث أساطيل بيزا وجنوة وبرشلونة وفرنسا ، ان اتحدت لمحاربته ، وفي ذلك يقول المؤرخ القرطبى المعاصر ابن حيان :

« وتداعى عليه ملوك الارض الكبيرة واستجاشوا ، وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه ، فعزم على التحول الى محله ، والقفول الى دار ملكه بدانية وميورقة ، فأعجله العدو عن ذلك ، وقطع به فكانت عليه وقيعة شنيعة وظهور ما سمع بمثله ، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله واستنقذوه واستولوا على حريمه وفيهن نساؤه وبناته ، وعلى ولده ، وجود أمه النصرانية ، ولم يخلص من اسطوله أجمعه الا خمسة مراكب وأربعة قوارب ، وكانت شحنة الاسطول المفلول من سبى سردانية يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس (٢) . ويضيف الضبى أن خلافا شديدا وقع بين مجاهد وجنوده أدى الى هذه الكارثة ، كما يشير الى عاصفة شديدة جعلت تقذف بمراكب المسلمين الى الساحل ، والروم

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣١٤

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١٩ ٢ـ ٢٢٠

وقوف لا شغل لهم الا الاسر والقتل للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم ، جعل مجاهد يبكى بأعلا صوته عاجزا عن انقاذه • ثم نجا مجاهد بأعجوبة عائدا الى الجزائر الاندلسية التي كانت في طاعته [١] •

واستطاع مجاهد بعد ذلك أن يفتدى بناته سريعا ، أما زوجته المسيحية فيقال انها ماتت ، ويذهب البعض الى انها رفضت ترك الاراضي المسيحية كى تموت على دين آبائها • أما ابنه علي ، فقد وقع في سهم أحد الامراء الالمان الذي رفض ان يطلق سراحه على سبيل المباهاة والفخر ، ولكن مجاهد بذل في هذا السبيل أموالا طائلة الى أن تمكن من فك أسره بعد ثمانية عشر عاما سنة ٤٣٣ هـ (١٠٢٢ م) فجاء الى بلاده مسيحيا يتكلم بلسانهم (الالمانية) ويتزيا بزيهم ، فاعتنق الاسلام ، واختتن ، وأصابه من ذلك مرض شديد ، ثم شفى منه ، وأقامه والده وليا لعهده وقائدا لجيوشه [٢] • أما الخليفة المعيطى ، فيبدو أنه انتهز فرصة غياب مجاهد في سردانية وحاول الاستئثار بملكه ، ولكن شعب ميورقة لم يؤيده، وعلم مجاهد بهذا كله فأمر حين عودته بعزله وارساله الى بجاية [٣] حيث استقر بها معلمها لصبيان البربر [٤] •

وتوفي مجاهد بمدينة دانية سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م) وخلفه ابنه على الملقب باقبال الدولة • ويروى المؤرخون أن هذا الامير الجديد أخذ

---

(١) الضبى : بغية الملتمس ص ٤٥٨ ترجمة رقم ١٣٧٩

(٢) احمد مختار العبادى : الصقالبة في اسبانيا ص ٢٦ وكذلك (Chabas : Op. cit. p. 421)

(٣) بجاية Bougie مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة على ساحل البحر المتوسط .

(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٥٣

يتقرب من دولة الفواطم بمصر وابدى استعدادا للاعتراف بخلافتها في مراسلاته ، كما وجه الى مصر مركبا مملوءا بالغلال والاطعمة عام المجاعة المشهورة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى [1].

وبعد وفاة على بن مجاهد سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ضمت مدينة دانية الى بنى هود في سرقسطة ، أما جزر البليار ، فانه نظرا لموقعها الجغرافي المنعزل في البحر ، فقد ظل ملكها في أسرة مجاهد الى ان احتلها المرابطون سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) .

من كل ما تقوم نرى ان الولايات الصقلبية التي قامت في شرق اسبانيا في اوائل القرن الحادى عشر الميلادي (الخامس الهجرى) ، لعبت دورا سياسيا وثقافيا هاما في تاريخ اسبانيا الاسلامية .

على أن موضع الاهمية هنا هو أن قيام تلك الدويلات الصقلبية ، كان له فضل كبير في قيام حركة الشعوبية في اسبانيا : فالى ولايات هؤلاء الصقالبة — كما يقول ابن حيان — « لجأ كثير من موالى المسلمين من أجناس الصقلب والافرنجة والبشكنس عشيرتهم ... وزهدوا (أي الصقالبة) في الاحرار وأبنائهم ممن طرأ منهم عليهم فلم يواسوهم » [2]. ومن هذه الولايات الصقلبية ايضا انبعثت تصريحات شعوبية قوية كان لها أثر ملموس في الادب الاندلسي حتى القرن السابع الهجرى (١٣م) .

---

(١) ابن الخطيب : المرجع السابق ص ٥٤ ، ٢ عادت هذه السفينة من مصر محملة بالذخائر والاموال ، وقد استولى عليها المقتدر بن هود عند احتلاله مدينة دانية (الحلل الموشية ص ٧٢)

(٢) ابن بسام : كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة — القسم الثالث — ورقة ٣ أ

ونعنى بذلك الرسائل العديدة التي تناولت الرد عليها خلال تلك الفترة . وتمثل حركة الشعوبية في اسبانيا رسالة ابى عامر بن غرسية [1] الى الشاعر أبى عبدالله بن الحداد [2] ، يفضل فيها العجم على العرب ، وهي الوثيقة الوحيدة المحفوظة حتى اليوم لحركة الشعوبية في اسبانيا .

ومؤلف تلك الرسالة اسبانى مولد ، من أصل مسيحى ، وقد اعترف هو نفسه بذلك في رسالته كما أشارت بذلك أيضا كتابات من رد عليه وهجاه من الكتاب العرب [3] . ويخبرنا البلوى أنه كان بشكنسى الاصل Vasco (من أقصى شمال اسبانيا) وأنه كان يسمى بالشاعر والكاتب،

---

(١) نشر المستشرق الالماني جولازيهر فقرات من هذه الرسالة في مقاله السالف الذكر عن الشعوبية في اسبانيا ، معتمدا في ذلك على نسخة الاسكوريال رقم ٥٦٨ لوحات ٢٦ ـ ٢٩ ذاكرا انها النسخة الوحيدة المحفوظة لهذه الرسالة . والواقع ان هناك نسخة اخرى اوردها ابن بسام في القسم الثالث من ذخيرته لوحات ١٢٠ ـ ١٢١ . وقد استعنت بهاتين النسختين عندما نشرت نص هذه الرسالة كاملا في كتابى (الصقالبة في اسبانيا) ، ونظرا لنفاذ طبعة هذا الكتاب ، رايت أن اعيد طبع هذه الرسالة كضميمة في آخر هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

(٢) ابو عبدالله محمد بن احمد بن الحداد ، كان شاعرا في بلاط المعتصم بن صمادح أمير المرية . راجع ترجمته في (ابن بسام : الذخيرة جـ٢ ق١ ص ٢٠١)

(٣) تصدى للرد على ابن غرسية وهجائه عدد غير قليل من الكتاب العرب. نذكر منهم البلوى في كتابه الف باء جـ١ ص ٣٥٠ ، والشريف المالقى الغرناطى ابا عمرو محمد بن على بن عبد ربه التجيبى الذي قال عنه ابن الخطيب بأنه رحل الى المشرق وسمع بالاسكندرية وله اختصار في اغانى الاصبهاني ورد جيد على ابن غرسية في رسالة الشعوبية (الاحاطة ورقة ١٦٤ نسخة الاسكوريال) .

وهذا معناه أنه كان موظفا بالدولة ، وأن له قلما وأسلوبا عربيا ممتازا • وعلى الرغم من قلة النصوص التي لدينا حول المكان الذي عاش فيه ابن غرسية ، الا أنه يفهم من كلام ابن الابار [١] وابن بسام [٢] وابن سعيد المغربى [٣] ، أنه عاش في مدينة دانية في عصر ملوك الطوائف ، وخدم في بلاط مجاهد الصقلبى وابنه علي من بعده ، أي أنه عاش في المنطقة التي كان فيها نفوذ الصقالبة سائدا قويا في الساحل الجنوبي الشرقي الاسباني • وهذا يفسر لنا صراحة العبارة التي هاجم بها ابن غرسية مبدأ السيادة العقلية والسياسية للجنس العربي • كما يفسر أيضا تلك الجرأة المتناهية التي استعملها ضد العنصر العربي والسيادة العربية ، فلو أن ابن غرسية خدم في مكان يسيطر عليه العنصر العربى ، لما استطاع أن يكتب بمثل هذا الاسلوب دون ان يتعرض لعقابهم ونقمتهم ، ويؤيد ذلك أيضا دهشة البلوى — الذي عاش بعد ذلك بقرنين — من سكوت رجال ذلك العصر عن اساءات ابن غرسية فيقول : « والعجب من أهل ذلك الزمن ، كيف استقروا على هذه الفتن ، وأقروا هذا المجترى على هذا الاجترا ، وما جاء به من الافترا ، أم كيف أبلعوه ريقه ، وأوسعوا له طريقه ، ولم يهلكوا فريقه !؟ » [٤] • غير أن دهشة البلوى هنا قد تكون في غير موضعها طالما كان ابن غرسية يجد حماية وتأييدا من الحكام الصقالبة الذين عاش في كنفهم • ويعضد ذلك ما رواه العذرى من أن مولى صقلبيا يدعى عبدالله بن غالب الاخرس ، لم يجرؤ على سكنى اشبيلية لوجود العرب فيها ،

---

(١) ابن الابار : المعجم ص ٢٩٩ ترجمة رقم ٢٨٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة — القسم الثالث — ورقة ١٢٠ أ

(٣) (Ribera : Épica Andaluza Romanceada, en Disertaciones y Opusculos tomo I P. 137 nota 2)

(٤) البلوى : الف باء جـ١ ص ١٠٣ . وكذلك (Goldziher : Op. cit. P. 607 - 608)

فسكن على مقربة منها في شنت طرمينSiete Torres وتعاون مع المولدين فيها ، فتربص له العرب وقتلوه [١]

كل هذه النصوص وأمثالها تدل على أن الصقالبة ناصروا حركـة الشعوبية في البلاد الخاضعة لهم [٢] ، وقد رأينا من قبل كيف أنهم بذروا لها البذرة الاولى بكتاب حبيب الصقلبى ، وباحتضانهم لكثير من العناصر غير العربية من صقالبة وموال وافرنجة وبشكنس ، ومن ذلك الجنس الاخير قام ابن غرسية مؤيدا ومحتميا بالصقالبة ، فكتب رسالته الجريئة التي نسوقها في آخر هذا الكتاب •

اذا انتقلنا الى المغرب العربى ، نجد أن استخدام المماليـك من الصقالبة قد شاع أيضا بين ملوكه وحكامه منذ القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجرى • وكانت الاندلس بحكم الجوار مركزا لانتقال هذا الرقيق الى دول المغرب الاقصى بصفة خاصة ، بينما كانت جزيرة صقلية الاسلامية مركزا لانتشاره في دول المغرب الادنى •

وحينما يحدثنا البكرى [٣] عن مملكة نكور او دولة بنى صالح التى

---

(١) العذرى : ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى الممالك ، نشر عبد العزيز الاهوانى ، ص ١٠٤

(٢) راجع (J. Ribera: Op. cit. I p. 137)

(٣) البكرى : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر دى سلان ، ص ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٩)

قامت بمنطقة الريف في شمال المغرب الاقصى[1]، يشير الى اعتماد هذه الدولة علي المماليك الصقالبة ، وانه قد بلغ من كثرتهم أن صارت لهم قلعة خاصة بجوار العاصمة نكور تعرف بقلعة الصقالبة أو قرية الصقالبة . وقد اشتد نفوذ هؤلاء الصقالبة في عهد الملك صالح بن سعيد لدرجة أنهم بعد وفاته (٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) حاولوا فرض مطالبهم على ولده سعيد بن صالح ، فدخلوا عليه يوما وسألوه العتق ، فقال لهم : « انتم جندنا وعبيدنا ، وانتم كالاحرار ، لا تدخلون في المواريث ، ولا تجرى عليكم المقاسم ، فما طلبكم للعتق ؟ » فألحوا عليه في ذلك ، فأبى ، فناله منهم جفاء وغلظة ، وقدموا أخاه عبيد الله ، وعمه الرضا المكنى بأبي على ، وزحفوا بهما الى القصر ، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا ، وقامت عليهم العامة فأخرجوهم الى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة ، فتحصنوا بها سبعة أيام ، ثم ظفر بهم سعيد بعد حرب شديدة [2] . وفي المغرب الادنى اعتمد الاغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م) على الصقالبة كذلك ، خصوصا بعد أن غزوا جزيرة صقلية سنة ٢١٣ هـ (٨٢٧ م) بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات ، وامتدت غارات أساطيلهم الى سواحل دالماسيا ، والى كلابريا ولمبارديا في جنوب ايطاليا .

---

(١) نكور مدينة مندرسة في شمال شرق المملكة المغربية وكان من أعمالها ثغر المزمة الذي حرفه الاسبان الى الوثيماس Alhucemas ثم عربه المسلمون الى الحسيمة الحالية التى تسمى ايضا سان خورخو Villa San jurjo وهي خاضعة للنفوذ الاسباني . وكانت مملكة نكور دولة عربية سنية مالكية لعبت دورا كبيرا في نشر الاسلام واللغة العربية بين بربر الريف من غمارة وصنهاجة ، كما أنها قاومت تيار الخوارج والشيعة ولقيت من وراء ذلك عناء كبيرا خفف من حدته تأييد الامويين في الاندلس لها . وعاشت هذه الدولة عصورا طويلة الى ان افتتحها المرابطون وخربوها سنة ٤٧٣ هـ فلم تعمر بعد .

(٢) البكرى : المرجع السابق ص ٩٣ - ٩٤ .

ويبدو أن جزيرة صقلية قد صارت بعد ذلك محطة للسبى القادم من تلك البلاد ، اذ يشير ابن حوقل الى حارة للصقالبة هناك ، ويصفها كمدينة عامرة بنواحى مدينة بلرم palermo على الساحل الشمالى لجزيرة صقلية [١] .

ولعل أبلغ دليل على كثرة استخدام الصقالبة في الدولة الاغلبية ، ما رواه ابن الخطيب في وصف رحيل آخر ملوك الاغالبة زيادة الله الثالث الى مصر عند سقوط دولته على يد الفاطميين ، يقول : « وأخذ في رفع الاموال ونفيس الخلع ، واصطفاء الجوهر واختيار السلاح ... ثم انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم ، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار » [٢] .

ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الاغالبة في المغرب ، وورثت عنها اساطيلها وقواعدها البحرية سواء في المغرب او في جزيرة صقلية ، كما سارت على نفس سياستها في اتخاذ المماليك من الصقالبة وغيرهم الى جانب اعتمادها على قوة اهل البلاد من المغاربة . وعلى هذا الاساس افترض المستشرق التشيكوسلوفاكي هربرك Herberk ان القائد الفاطمى المشهور جوهر الصقلى كان صقلبيا من سبايا سواحل دالماسيا وليس صقليا ، واستند في ذلك الى رواية ليون الافريقى (الحسن الوزان)

---

(١) راجع (Michele Amari : Bibliotheca arabo - Sicula, tome I P. 120, Lipsia 1856)

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ــ القسم الثالث الخاص بالمغرب ــ ص ٤٣ نشر احمد مختار العبادى وابراهيم الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤).

وبعض الوثائق اللاتينية [1] . هذا الى جانب أن صقلية كانت في ذلك الوقت جزيرة اسلامية ، وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق ، وان كان من المرجح ـ ان صح قول هربوك ـ ان يكون جوهر قد استقر في صقلية ـ بعد أسره ـ فترة من الوقت قبل ذهابه الى المغرب ، ولهذا نسب الى صقلية رغم كونه صقلبيا .

ومهما يكن من شيء ، فالامر الذي لا شك فيه هـو أن العنصر الصقلبي كان في عداد العناصر المملوكية البارزة التي اعتمدت عليها الدولة الفاطمية [2] سواء خلال قيامها في المغرب كما ذكرنا آنفا ، أو بعد انتقالها الى مصر والشام ، كما هو مبين في الباب التالى الخاص بمماليك مصر .

---

(١) من محاضرة القاها عن « صقالبة الفاطميين » في سنة ١٩٦١ بكلية الآداب بجامعة الرباط حيث كنت اعمل وقتئذ استاذا بها .

(٢) من امثلة اهتمام الفاطميين بالصقالبة انه يؤثر عن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله انه كان يجيد لغتهم الى جانب لغات أخرى .



الباب الثاني

المماليك في مصر

منذ الدولة الطولونية حتى نهاية الدولة الأيوبية
(٢٥٤ ــ ٦٤٨ هـ = ٨٦٨ ــ ١٢٥٠ م)

مماليك الطولونيين والاخشيديين ــ استخدام المماليك الاتراك والصقالبة في الدولة الفاطمية بمصر ــ الصبيــان الحجريــة والترابى في القاهرة ــ الدولة الايوبية فرع من فروع السلاجقة ــ التوســع في استخدام المماليك زمن السلاجقة والايوبيين ــ مشاركة المماليك الاسدية في فتح مصر ــ وفاة أسد الدين شيركوه ــ معاونة الأسدية في تقليد صلاح الدين وزارة الفاطميين ــ صلاح الدين والخلافــة الفاطمية ــ اتخاذه المماليك الصلاحية أو الناصرية لنفسه ــ تكوين أخيه العادل فرقة المماليك العادلية ــ اشتراك الأسدية والصلاحيــة والعادلية في حروب صلاح الدين ــ دورها في منازعــات البيت الأيوبى بعد وفــاة صلاح الدين ــ انتصار الاسدية واندحار الصلاحية ــ آثار المماليك الأسدية والصلاحية بالقاهرة ــ استمرار ســلاطين الايوبيين في تكوين الفرق

المملوكية ــ العزيزية ــ الأشرفية ــ الكاملية ــ تدخل هذه الفرق في اقامة السلاطين وعزلهم أواخر العهــد الأيوبى ــ الملك الصالح ايوب ومماليكه البحرية ــ بناء قلعة الروضة واتخاذها مقرا لمماليكه ــ آثار المماليك البحرية الصالحية في القاهرة ــ أصل لفظ البحرية ــ اطلاقــه على فرقة من المماليك في اليمن ــ تعريف جوانفيل للفظ « بحرية » ــ الحملة الصليبية السابعة ــ دور المماليك البحرية في الدفاع عن مصر ــ النزاع بين توران شاه والمماليك البحرية ــ مقتل تورانشــاه وانتهــاء الدولة الأيوبية .



الاخرى وولاتها ، ومن أولئك أحمد بن طولون .

وكان طولون مملوكا تركيا ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد السامانى في جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهوبمرو سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) . وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيس الحرس الخليفى ، وتمكن من تربية ابنه ــ أو متبناه (١) ــ أحمد تربية عسكرية اسلامية أهلته لان يصبح حاكما على مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) (٢) . وطبيعى أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركى في ولايته ، غير أنه طمع الى شيء من الاستقلال بمصر ، ولذا اهتم فيما اهتم بالجيش على وجه خاص (٣) ، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الاتراك فحسب ، بل جعل بجيشه فرقا من العرب الاحرار ، فضلا عن فرق من الرقيق الاسود والديلم والروم . ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش الى درجة اضطرت أحمد بن طولون الى بناء ثكنات لهم وهى القطائع . والروايات العربية تقدر ذلك الجيش تقديرات لا تبدو بعيدة عن الحقيقة ، فالمقريزى يروى في خططه أن ابن طولون استكثر من مشترى المماليك الاتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشترى العبيد الزنج

---

(١) انظر (Lane-Poole:Hist. of Égypt in the middle ages. p. 60)

(٢) الواقع ان بعض الولاة في مصر وفي غيرها كانوا من العرب في تلك المرحلة التركية من التاريخ الاسلامى مثل عنبسة بن اسحاق وهو آخر من ولى مصر من العرب سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م في عهد الخليفة المتوكل . ومن بعده صارت مصر اقطاعا لطائفة من الولاة الاتراك تعاقبوا عليها دون أن يذهبوا اليها في كثير من الاحيان ، ومن هذه الاحيان كان مجىء احمد بن طولون ليتولى مصر بالنيابة عن بايكباك . راجع (الكندى : الولاة ص ٢٠٢ ، البلدى : سيرة احمد بن طولون ص ٣٣ ــ ٤٣) .

(٣) انظر (Zaki Hassan : Les Tulunides P. 165)

أربعين ألفا ، كما انه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف حر مرتزق [١] . أما ابن اياس فانه يقتبس من ابن واصف شاه ويقول بأن مماليك ابن طولون مـن الديالمة فقط بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك [٢] .

غـير أنه يجب أن يكون واضحا أن كثيرا ممن دخـل الجيوش الطولونية رقيقا ، قد تحرر فيما بعد ، وذلك ينطبق على الجند والقـادة سواء ، اذ المعروف ان ابن طولون اعتق أعدادا كبيرة من جنده لينشىء منهم جيشـا ممتازا . ولذا يرجح أنه لم يوجـد في الجيش الطولونى مماليك كثيرون في أواخر أيام ابن طولون ، وأن عمليـة التحرر ظلت القاعدة في أيام أسرته [٣] .

وسارت الدولة الاخشيدية على سنة أسلافها الطولونيين في أتخاذ المماليك الاتراك حتى انه يقال ان مماليك محمد الاخشيد بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك ، وأنهم كانوا يحرسونه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك [٤] . ويبدو أن الجيش الاخشيدى اشتمل أيضا على عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الاخشيد في حكم مصر .

---

(١) المقريزي : الخطط جـ١ ص ١٥٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٣٧

(٣) راجع (Zaki Hassan : Les Tulunides P. 168)

(٤) ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة جـ٣ ص ٢٥٦

ثم انتهت الدولة الاخشيدية بقيام الدولة الفاطمية في مصر (٣٥٨ ــ ٥٦٧ هـ = ٩٦٨ ــ ١١٧١ م) •

واذا كثرت أنواع المماليك على عهد الطولونيين والاخشيديين ، فقد أضاف الفاطميون بمصر نوعا جديدا جاءوا به من المغرب وهو الصقالبة • ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثرت من المماليك الاتراك والصقالبة منذ قيام المعز أول الخلفاء في مصر بدليل اختيار العزيز وهو الخليفة الثانى لكثير من هؤلاء وأولئك لمناصب الثقة والقيادة والولاية[١] لان وصولهم الى تلك المناصب معناه أن العزيز ألفاهم قوة في الدولة بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافا مشروعة • فولى مملوكه بنجوتكين التركى قيادة الجيش كما ولاه الشام ، وولى دنيا الصقلبى عكا ، وبشارة الاخشيدى طبرية ، ورباحا السيفى غزة ، وبرجوان الصقلبي امارة القصر [٢] • وليس أدل على اكثار الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم ، وهو الشارع الذي امتد بين حارة زويلة وخان أبو طاقية [٣] • ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقالبة عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المغاربة ، ويظهر ذلك جليا أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ــ ٤١١ هـ = ٩٩٦ ــ ١٠٣٠ م) الذي استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين [٤] • ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى في عهد الخليفة

---

(١) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٢٨٤ ــ ٨٥ ٢

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١١٧

(٣) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٤١ ــ ٤٢ ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ٣ ص ٢٨

(٤) المقريزي : الخطط جـ٣ ص ١٧ ــ ١٨ ، جـ٤ ص ٦٨

الظاهر بن الحاكم لميله الى الاتراك والمشارقة (١) ، فصارت قيادة الجيوش في يد أبى منصور أنوشتكين ، وهو مملوك تركى الاصل يعرف بالدزبرى(٢)، وقد ولاه الظاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨م)(٣) ثم جاء الخليفة المستنصر الفاطمى فمال الى عنصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لان أمه كان أمة سوداء (٤) ، وظل هذا العنصر منبع القوة في الدولة الى آخر عهد الدولة الفاطمية .

ومن الأدلة التى تبرهن استنتاجا على كثرة المماليك من الاتراك والصقالبة والسود في الدولة الفاطمية اهتمام الداعى « ثقة الامام علم الاسلام » بشأنهم في احدى محاضراته التى ألقاها في مجالس الحكمة ، وأفراده للكلام عنهم عبارة طويلة في سياق محاضراته ، ونص هذه العبارة : « انتهينا فيما شرطنا ذكره من سنن الدين الى ذكر ما أمر به من الرفق بالمماليك الذين كلفهم الله خدمتكم ووقاكم بكفايتهم ، لانهم بشر لم ينحتوا من الحجر ، ولم يخلقوا من الشجر . فللمملوك على مالكه سبع خصال وهى أن يقوم بكفايته من المطعم والمشرب وستر جيده من الملبس ، وأن لا يحمله فوق طاقته ، ولا يكلفه من العمل أكثر من استطاعته ، ولا يضربه الا تأديبا ولا تعديا ، ولا يلزمه ما لا يحل ، ولا يمنعه من الصلاة في أوقاتها . ويجب على المملوك لمالكه اثنتى عشرة خصلة وهى : أن يعتقد نصيحته ، ويظهر له شفقته ، ويحفظ ماله ، ويصون حريمه ، ويؤدى له الأمانة ولا يغشه ، ولا يخونه ، ولا يدخر

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ٢ ص ٩

(٢) نسبة الى قائد ديلمى يدعى تزبر بن أرنيم الذي اشتراه بدمشق سنة ٤٠٠ هـ راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢٥٢)

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢٦٨

(٤) ابو المحاسن : المرجع السابق جـ٥ ص ١٧ — ١٩ .

عنه نفسه ، ولا يكتمه صنعة يحسنها ، ويطيعه ولا يخالفه ، ولا يتصرف في شيء من أمواله الا بأمره • قال الله تعالى « وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو يشفق منه سرا وجهرا هل يستوون » (١) •

واهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم ، وهم في الواقع أول من وضع نظاما تربويا للماليك في مصر • فيروى المقريزى أن الاساطيل الفاطمية حملت الى مصر كثيرا من أسرى الحروب ، وجرت العادة أن يحضر أولئك الاسرى الى مكان يسمى المناخ (٢) (جهة الاسماعيلية بالقاهرة اليوم) ، فتضاف الرجال الى من فيه من الاسرى السابقين ، ويمضي بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة بعدما يعطى الوزير منهم طائفة ، ويفرق الباقى لخدمة المنازل • ثم يدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين ، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم «الترابى» • وقد يرتقى أولئك الصبيان الى رتب الامراء (٣) •

وظلت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الايوبية والمملوكية ،

---

(١) المجالس المستنصرية، المجلس الثانى والعشرون ص ١٠١ ـ ١٠٢، نشر وتحقيق الدكتور كامل حسين ـ سلسلة المخطوطات الفاطمية .

(٢) المناخ المكا نالذي تناخ به الجمال ، واطلق الفاطميون هذا الاسم على عدة من المخابز والمطاحن والمخازن المدنية والعسكرية التابعة للدولة . واغلب الصناع في هذه الامكنة من أسرى الحرب من الفرنج وكانوا يقطنون بها . راجع (المقريزي : الخطط جـ١ ص ٤٤٤)

(٣) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ١٩٤ .

ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض الانكشارية [١] في الدولة العثمانية • غير أن الترابى لم تلعب في حوادث دول الفاطميين والايوبيين والمماليك بمصر دورا ظاهرا مثل الذى قامت به الانكشارية في الدولة العثمانية ، لانها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال ، بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم الغلمان وخدام القصر [٢] •

وهناك نظام تربوى آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحجرية ، وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الاسم لانهم عاشوا في ثكنات تعرف بالحجر وموقعها بجوار القصر الخليفى بالقاهرة [٣] • وجاء ذكر تلك الطائفة في دائرة المعارف الاسلامية على

---

(١) الانكشارية Janissaries لفظ حوره الاوربيون من ينى تشرى Yeni - ceri اي الفرقة الجديدة في اللغة التركية . وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون أطفالا من العناصر المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (ضريبة الدم) ثم يربون تربية عسكرية اسلامية في مدارس خاصة فيتحولون الى الرعية العمثانية المسلمة مع بقائهم رقيقا للسلطان . وتعتبر هذه الفرقة من المشاة ، من مستحدثا تالحرب في ذلك العصر في اشرق والغرب ، ويرجع الفضل في انشائها الى السلطان العثمانى أورخان الاول سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) راجع (Lybyer : The Government of the Ottoman Émpire in the time of Suleiman P. 91 - 98 & Éncy. Isl. art. Janissaries)

(٢) راجع (محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك مجلة كلية لاداب بالقاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الاول . مايو سنة ١٩٣٦) .

(٣) انظر (Kay : Yaman, its early medieval history by Qmara P. 264 note 50)

أنها طائفة من « المماليك » كونها الافضل شاهنشاه [1] وزير الخليفة المستعلى سنة ٤٨٧ هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحمل لقب « الموفق » لتكون حرسا له ، وبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك [2] • غير أن المرجع الذى استمدت منه دائرة المعارف الاسلامية هذا الوصف ، يقول ان الحجرية كانوا « يختارون من أولاد الاجناد [3] »، واذا سلمنا جدلا أن أولئك الأجناد من المماليك الاتراك والصقالبة أو غيرهم مما امتلأت به جيوش الدولة الفاطمية ، فانه لا يمكن تطبيق تلك التسمية على أبنائهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك في يوم من الايام ، اذ أن المملوك في المصطلح الرسمى المملوكى لا بد وأن يكون قد مسّه الرق أي مسّته يد النخاس • ولعل دائرة المعارف الاسلامية تأثرت في وصفها للحجرية الفاطميين بتكوين طائفة الغلمان الحجرية الذين استخدمهم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠١ م) ، فهؤلاء كانوا فعلا من المماليك الذين اختارهم الخليفة من بين غيرهم من المماليك الذين يحسنون الركوب والرمى ، ويقيمون أيضا في الحجر تحت مراعاة الخدم والاستاذين [4] •

---

(١) هو الوزير الافضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهو من أصل ارمني ، اذ كان والده مملوكا ارمينيا لجمال الدولة بن عمار فعرف بالجمالى ثم ظل يترقى الى ان صار حاكما على الشام . وقد استنجد به الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند بمصر ، فأضاف بذلك عنصرا جديدا في الجيش والدولة وهو العنصر الارمينى . وقد خلف الافضل اباه بدر الجمالى في منصب الوزارة (المقريزي : الخطط جـ١ ص ٣٨١)

(٢) راجع (Ėncy . Isl. art, Huggrah)

(٣) المقريزي : الخطط جـ١ ص ٤٤٣

(٤) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة ابو ريدة ، ص ٢٤٢

وكيفما كـان الامر فانه يتضح مما تقدم ان الدولـة الفاطميـة استخدمت المماليك من مختلف الاصناف والالوان ، واستطاع عـدد كبير منهم أن يصل الى مناصب الولاية والقيادة بغض النظر عن أصلهم أو جنسيتهم •

ثم انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الايوبية على يد النـاصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) • والدولة الايوبية كما هو معروف كردية الاصل ، ولكنها جاءت عن طريق الدولـة السلجوقية التركيـة ومماليكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقيـة ، وطبقتها في مصر والشام لاول مرة • ولهذا فانه لا يمكن فهم تاريـخ الدولة الايوبية فهما جيدا الا على ضوء دراسة تاريخ السلاجقة وانظمتهم العسـكرية •

ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية منذ نشأتها الاولى على المماليك من الترك ، وورث هؤلاء سياستها ومراميها • والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة فيضوء تاريخهم ، هى أنهم اعتقدوا انه لا يمكن للفرس والعرب ان يخلصوا في خدمة ساداتهم الاتراك ، وانه مـن الافضـل الاعتماد على وفاء المماليك الاتراك الذين ربوا ونشأوا في البلاط عـلى مقربة من سلاطين السـلاجقة وأمرائهم (١) • وصار هـؤلاء المماليك يجلبون وهم صغار السن من بلاد القفجاق (٢) ، ثم يربون تربية خاصة

(١) انظر (Lane Poole : Saladin; P. 9 - 15)

(٢) بلاد القفجاق او القبجاق او القبشاق اقليم بحوض نهر الفولجا بالجنوب الشرقى من الروسيا الحالية وشمال البحر الاسود والقوقاز ، وأهلها من الترك . وكانوا أهل حل وترحال على عادة أهل البدو وفي ضيق من العيش، وبلادهم فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك. راجع (القلقشندى: صبح الاعشى جـ٤ ص ٤٥٨) وكذلك (Heyd: Histiore du Commerce du Levant au moyen age' tome.2, P. 559)

على أساس النظام التربوى المملوكى السامانى الذى وصفه الوزير نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق في كتابه سياسة نامه ارشادا للحكام السلجوقيين (١) • ويضيف نظام الملك في ذلك الصدد انه « يجب ألا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة الا اذا دعت الحاجة ، ولا ينبغى أن يكونوا عرضة للسهام في كل حين ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور اذا صدر بأحدهما الأمر • وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف ينبغى للشيء أن يكون حتى ينتهجوا اليه سبيله • ولا حاجة الى التكلف كل يوم باصدار الامر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان : صاحب الماء ، وصاحب السلاح ، والساقى وأشباه ذلك ، ولمن يكون من الغلمان في خدمة كبير الحجاب وكبير الامراء ، بل يجب أن يؤمروا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد معين ، ومن الخواص عدد معين كذلك ، حتى لا يكون في ذلك مشقة » (٢) • ويكمل عماد الدين الاصفهانى (٣) الذي عاش بدمشق زمن الملك العادل نور الدين زنكى ، تصوير مماليك السلاجقة في عبارة موجزة حيث يقول : « وكان للسلطان مماليك صغار كأنهم أقمار ، وكان عليهم من الخصيان الخواص رقباء ، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء » (٤) •

---

(١) انظر ما سبق أن قلناه في هذا الصدد بالباب الاول •

(٢) راجع (Schefer : Siaset Nameh par Nizam - oul - Mulk P. 138 - 141)

(٣) ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ وقدم بغداد وولى واسط والبصرة ثم انتقل الى دمشق ايام سلطانها الملك نور الدين زنكى ، وعرفه الامير نجم الدين ايوب والوصلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ •

(٤) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ١١٣

وكان نظام الملك أشد الناس تمسكا بما جاء في كتابه ، اذ حاطه جيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه ، فقوى بهم نفوذه الى حد كبير(١) ، حتى ان السلطان ملكشاه السلجوقى كتب اليه ذات مرة كتابا يقول فيه : « انك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك ومماليكك ، كأنك شريك في الملك ، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك ؟ » . فرد عليه الوزير نظام الملك : « كأنك عرفت اليوم انى مساهمك وفي الدولة مقاسمك ، فاعلم أن دواتى مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب» . فكأنما نطق بما به القدر سبق ، فلم يكن بين مقتل الوزير (٤٨٥ هـ) ووفاة السلطان غير شهر واحد(٢) . وزاد نفوذ المماليك النظامية بعد موت السلطان ملكشاه الى درجة مكنت لهم من عزل ابنه محمود وتولية ابنه الآخر بركياروق (٣) .

ويقال ان نظام الملك أول من أقطع الاقطاعات للمماليك الاتراك ، فبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقدا ، صار يعطى اقطاعا (٤) ، لان تسليم الارض الى المقطعين يضمن عمارتها ، وعناية مقطعيها بأمرها ، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلجوقية قوتها وثروتها . ولذا سار سلاطين السلاجقة على ذلك النظام ، فمنحوا القلاع والمدن والولايات اقطاعا

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين جـ١ ص ٢٦

(٢) صدر الدين ابو الحسن : اخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال بجامعة البنجاب ص ٦٩

(٣) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٧٦

(٤) صدر الدين ابو الحسن : اخبار الدولة السلجوقية ص ٦٨ ، الاصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٥٥

للقادة من مماليكهم الذين سموا الأتابكة ، وذلـك مقابل الخدمـات العسكرية التى يؤدونها لهم وقت الحرب • والأتابك لفظ تركى معناه « الاب الامير » (١) ومعناه المربى لابن السلطان ، ثم أصبح لقبا تشريفيا يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة (٢) • والوزير نظام الملك أول من تلقب بلقب أتابك ، وقد منحه اياه السلطان ملكشاه حينما فوض اليه تدبير أمور المملكة سنة ٤٦٥ هـ (٣) •

وعلى هذا الاساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام ، مقسما الى اقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلاجقة بتفويض مـن السلطان • وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشا مـن المماليك في مختلف الولايات ، حتى اذا دعت الحاجة الى حضورهم للخدمة في الحروب ، جاء الوالى السلجوقى بمماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة في القتال • وكانت الطريقة المتبعة في استدعاء تلك الفرق العسكرية هى اطـلاق أسهم من معسكر الى معسكر ، أو من قرية ألى قرية ، اشارة الى التجمع والاستعداد للحرب ، حتى اذا انتهت الحرب عاد الولاة ومماليكهم الى اقطاعاتهم ، وصار ذلك عادة في فصل الشتاء على ان يعودوا في الربيع اذا تطلب الأمر (٤) •

وعلى الرغم مـن غلبة الطابع العسكرى على الدولـة السلجوقية وولاتها مـن المماليك ، فان ذلك لم يمنعهم مـن تذوق الفن والادب

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٨ ، كرد علـى : خطط الشام جـ١ ص ٢٧١

(٢) انظر (Ency· of Islam, art Atabeg)

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٨ •

(٤) راجع (Lane - poole : Saladin, p. 15 - 21)

وتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس ، وسادت تلك الروح الأدبية بين الولاة السلاجقة حتى بعد اضمحلال الدولة السلجوقية •

وهكذا نرى مما تقدم أن السلاجقة في أيام قوتهم اتخذوا اشخاصا من كبار مماليكهم اطلق عليهم الأتابكة ليكونوا مربين لأولادهم القصّر ، ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الابناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب • ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة اصحاب النفوذ الفعلى في تلك الاقطاعات ، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومى في آسيا الصغرى فانه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون الى تلك البلاد أواخر القرن السابع الهجرى (١٣ م) [١] •

والدول الاتابكية كثيرة العدد ، وبيوتها شتى لا تنتهى الى نسب واحد ، الا انها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقى والنظام الاقطاعى الاسلامى • ومن المماليك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكا ، بنو أرتق نسبة لجدهم أرتق التركمانى أحد مماليك ملكشاه وهم الذين حكموا حصن كيفا (٤٩٥ ــ ٦٢٩ هـ = ١١٠١ ــ ١٢٣١ م) ، وماردين (٥٠٢ ــ ٨١١ هـ = ١١٠٨ ــ ١٤٠٨ م) [٢] • ثم هناك اتابكة دمشق (٤٩٧ ــ ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ ــ ١١٥٤ م) وأول ملوكها طغتكين وأصله مملوك للملك تتش ابن ألب أرسلان أول سلاجقة الشام ، ثم صار لولده دقاق ، وبعد موت دقاق صار ملك دمشق لطغتكين

---

(١) راجع (Lane - poole:TheMuhammedan Dinasties p. 159 - 160)

(٢) انظر (Lane - poole : Muham. Dynas. p. 168)

واستمر في عقبه ٥٢ سنة [١] . ثم هناك شاهات خوارزم (٤٧٠ ــ ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ ــ ١٢٣١ م) وينسبون الى انوشتكين وهو مملوك تركى لأحد أمراء السلاجقة ، عينه السلطان ملكشاه حاكما على خوارزم (خيوة) ، ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت املاكه ، وعلى أيدى ملوكه اتسز ، وتكش ، وعلاء الدين ، انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر [٢] . ويروى ابو شامة أن علاء الدين كان يمتلك «عشرة آلاف مملوك مثل الملوك» [٣] ، وقد انتهت هذه الامبراطورية الخوارزمية في عهد جلال الدين خوارزمشاه على أيدى المغول سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ومن فلولها كانت بعض البذور التى نبتت منها الدولة المماليكية الاولى في مصر [٤] .

ومن مشاهير الاتابكة في أوائل القرن الثانى عشر الميلادي، الامير عماد الدين زنكى مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومضر ، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذى بدأ حياته مملوكا للسلطان ملكشاه [٥] . وعن طريق زنكى وابنه نور الدين كان ظهور صلاح الدين الايوبى الذى تأثر بالنظم السلجوقية ، واليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم الى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الايوبيين والمماليك .

ومن أمثلة هذه المؤثرات نذكر استخدام الجاليش في مقدمة

---

(١) صدر الدين ابو الحسن: أخبار الدولة السلجوقية ص ١٩٦ ــ ١٩٧

(٢) ابن الاثير : تاريخ الكامل جـ١٢ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٧ .

(٣) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٢٢

(٤) انظر (poliak : Lc dialecte des Mamelouks, R. É. I. 1935, Cahier III)

(٥) ابو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ١ ص ٢٤ ــ ٢٧

الجيش . والجاليش عبارة عن خصلة من الشعر كانت ترفع في أعلى الراية أمام الجيش ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعه[1] . فهذه العادة جاء بها السلاجقة من المشرق ، ثم انتقلت الى مصر على يد الايوبيين . ومن الطريف أنها انتقلت كذلك الى بلاد المغرب والاندلس مع فرقة الغز التى قادها المملوك قراقوش التقوى [2] أيام صلاح الدين . فابن الخطيب حينما يصف هجوما قام به الجيش المغربى في عهد الدولة المرينية يقول : « فزحفت راياتهم على شأن غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمّة الشعر في أعلان سنان الراية » [3] .

كذلك جلب السلاجقة مع العادات الفارسية والتركية الأخرى نظما جديدة في البلاط والمواكب الرسمية لم تستعمل من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين . مثال ذلك حمل الغاشية بين يدى السلطان في الاماكن والمناسبات الحافلة كالميادين والاعياد ونحوها كشعار للسلطنة . والغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، يحملها ركاب الدار بين يدى السلطان ويلفتها يمينا وشمالا . وقد انتقلت هذه العادة الى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائه ، واستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك . ويروى أبو عمرو النابلسي

---

(١) يقول ابو شامة في هذا المعنى (الروضتين جـ٢ ص ٧٧) وفي موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ تقدمت الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار .

(٢) نسبة الى الامير الايوبى تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين .

(٣) راجع (ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٣٣٩، نشر مختار العبادى) .

في « كتابه تاريخ الفيوم » (١) ، نادرة تدل على قيمة الغاشية كرمز ملكي، فيقول ان شيخا مصريا اسمه شهاب الدين الطوسى أمر ركاب داره بأن يرفع الغاشية على اطراف أصابعه كما يصنع بين يدى الملوك . فلما تحدث اليه البعض في ذلك قال : « أنا ملك العلماء كما أن الملوك ملوك الرعايا ! » (٢) .

كذلك استحدث السلاجقة نظام المدارس ، وهى منشآت علمية سنية لمحاربة المذهب الاسماعيلي الشيعي . وسار على هذه السياسة نور الدين محمود زنكى في الشام ثم صلاح الدين الايوبي في مصر للقضاء على الدعوة الفاطمية . على انه يلاحظ في هذا الصدد ان مدينة الاسكندرية عرفت نظام المدارس السنية في اواخر أيام الفاطميين وقبل مجيء صلاح الدين . فأول مدرسة انشئت فيها هى المدرسة الحافظية التي أسسها رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٣ هـ وأسند التدريس فيها الى الفقيه المالكي ابى الطاهر بن عوف الذي سبق ان قرأ المذهب المالكي على زوج خالته ابى بكر الطرطوشي (٣) .

---

(١) عثمان ابراهيم النابلسي (ت ٦٥٦ هـ) : كتاب لمع القوانين المعنية في دواوين الديار المصرية . نشر في مجلة (Bulletin D'Études Orientales, XVI , 1958 - 1960 Damas 1861) وقد الف هذاالكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين أيوب .

(٢) عثمان النابلسي : المرجع السابق ، وكذلك (C.H. Becker : Le Ghaṣhiya comme embleme de la Royauté en Centenario della nascita di Michele Amari volume II p. 148 (palermo 1910)

(٣) راجع (السبكى : طبقات الشافعية جـ٤ ص ٤٢ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٨٧ (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ، جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية ص ١٢٩) .

وبعد عشر سنوات اي في سنة ٥٤٤ هـ بنى العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمى مدرسة سنية أخرى بالاسكندرية وأسند التدريس بها الى الفقيه الشافعى ابى الطاهر احمد السلفى (١) • غير أن انتشار المذهب السنى في ذلك الوقت كان في حدود ضيقة ، وقاصرا على مدينة الاسكندرية دونا عن بقية المدن المصرية ، وذلك بحكم وضعها الجغرافى واتصالها الشديد بالمغرب السنى • ولهذا فانه يمكن القول بأن الايوبيين هم الذين اهتموا في الواقع ببناء المدارس في انحاء مصر والشام •

كذلك سار الايوبيون على سنة السلاجقة وأتابكتهم بالاكثار من المماليك الاتراك واستخدامهم في الجيش ، غير انه يلاحظ ان الايوبيين كانوا أكرادا أحرارا لم يمسسهم رق • وقد نفى صاحب مرآة الزمان القول بأن شادى جد صلاح الدين بدأ حياته مملوكا لبهروز الخادم الذي ولاه السلطان مسعود غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي شحنة العراق ، اذ قال : « ما كان شادى مملوكا قط ، ولا جرى على أحد من بنى أيوب رق ، وانما شادى خدم بهروز الخادم فاستنابه بقلعة تكريت » (٢) •

وخلف شادى في حكم قلعة تكريت ابنه نجم الدين أيوب الذي أتاحت له الظروف أن يؤدي خدمة للامير عماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب ، فعينه هذا الامير حاكما من قبله على بعلبك بعد الاستيلاء عليها • ويقال انه في نفس الليلة التي غادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين الايوبي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) • ومنذ ذلك

---

(١) ابن خلكان : نفس المرجع جـ١ ص ٨٧ ، السبكى : المرجع السابق جـ٤ ص ٤٢

(٢) راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣ ـ ٤) حيث ترد هذه العبارة نقلا عن مرآة الزمان لسبط بن الجوزى •

الوقت ارتبط الايوبيون بأسرة عماد الدين زنكى ارتباطا وثيقا لدرجة انه بعد وفاته (١١٤٦ م) كان نجم الدين ايوب وأخوه اسد الدين شيركوه (١) من أكبر أمراء ولده الملك العادل نور الدين محمود زنكى صاحب حلب ودمشق .

وحينما عزم نور الدين على ارسال حملة الى مصر لتطويق مملكة بيت المقدس الصليبية من الجنوب ــ بعد فشل الفاطميين في مقاومتها ــ اختار لقيادة هذه الحملة القائد الايوبي اسد الدين شيركوه الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين .

وشعر الصليبيون بخطورة هذه الحركة ، فبادروا بالتدخل في شئون مصر واحباط هذه الخطة . وهنا حدث تسابق نحو الديار المصرية بين الصليبيين بقيادة عمورى Amalric ملك بيت المقدس ، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه . ثم حدثت معارك بين الفريقين انتهت باتفاقهما على الانسحاب سويا من مصر . غير ان هذه الحملات لم تلبث ان عادت وتكررت من الجانبين ثلاث مرات ، وانتهى السباق بانتصار شيركوه وبقائه في مصر كوزير للخليفة العاضد الفاطمي ، بينما انسحب عموري منهزما الى بيت المقدس .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ذلك الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه الى مصر كان يتكون في معظمه من المماليك والامراء النورية (٢) مضافا اليهم فئة من المماليك الاسدية بلغت عدتهم عند وفاته نحو الخمسمائة

---

(١) كلمة شيركوه معناها أسد الغابة (المقريزي : السلوك جـ١ ق١ ص ٤١ لحاشية)

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ١ ص ١٥٥

مملوك [1] • ولا حاجة هنا الى تكرار قصة تولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية بعد عمه شيركوه ، وما كان للمماليك الاسدية من فضل في ذلك سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) •

ثم توفي الخليفة العاضد في ١٠ المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) اي في يوم عاشوراء ، وبموته زالت الدولة الفاطمية الشيعية ، فكأنها انقضت في اليوم الذي استشهد فيه الحسين •

وأخذ صلاح الدين يعمل بعد ذلك على محو أثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية ، فأزال مثلا جنود الفاطميين من العبيد السود والارمن وغيرهم [2] ، وأخذ في تكوين جيش قوامه المماليك الاسدية القدماء ، وسائره من الاحرار الاكراد الذين اجتذبتهم نعمته الى الدخول في خدمته ، فضلا عن المماليك الاتراك الذين اشتراهم لنفسه ، وسماهم الصلاحية نسبة الى اسمه ، او الناصرية [3] نسبة الى اللقب الذي أضفاه عليه الخليفة العاضد حين ولاه الوزارة • ومن الواضح والمعقول ان أولئك الصلاحية صاروا الحرس الخاص صلاح الدين [4] ، كما صار العادلية الذين كونهم أخوه العادل فيما بعد بطانة خاصة لهذا الامير الكبير •

ويبدو ان المنافسة بين الاسدية القدماء ، والصلاحية المحدثين لم تلبث

---

(١) ابو شامة : نفس المرجع جـ١ ص ١٧٣

(٢) المقريزي : الخطط جـ١ ص ٩٤

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ٢ ص ٢٩ ٢

(٤) راجع (Lane Poole : A .History of Egypt in the middle agesp. 242).

ان وضحت أيام صلاح الدين نفسه ، ففى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) خرجت طائفة من المماليك الاسدية بقيادة قراقوش [١] مملوك تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الى المغرب لعلها تجد منتجعا خارج مصر ، فاستولت على طرابلس ، وأنشأت جالية مملوكية تركية يبدو انها أصل العلاقات المضطربة بين مصر والمغرب أيام الايوبيين والمماليك [٢] ٠

وكان من حسن طالع صلاح الدين أن سيـــده الاعلى نور الدين محمود مات بعد ذلك بقليل (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) تاركا وراءه في الحكم طفلا في الحادية عشرة من عمره وهو الملك الصالح اسماعيل ٠ كذلك مات في نفس السنه عمورى ملك بيت المقدس تاركا وراءه ابنا عاجزا في الحكم وهو بولدوين الابرص (الرابع) ٠ وقـــد ترتب على ذلـــك ان دبت الانقسامات الداخلية في كل من مملكتى نور الدين والصليبيين ٠

ولقد كان في مقدور صلاح الدين بفضل امكانياته الكثيرة في مصر ان ينازل الصليبيين مباشرة في فلسطين ، ولكنه فضل ان يبدأ بجمع كلمة المسلمين وتوحيد مملكة سيده نور الدين التي تفككت بـــين الامراء الطامعين ٠

وقضى صلاح الدين خمسة عشر عاما يعمل على جمع الشمل وتوحيد

---

(١) مملوك آخر غير بهاء الدين قراقوش الاسدى ، وانما هو مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن اخى صلاح الدين ، وصاحب حماة (٥٧٤ ـ ٥٨٧ هـ) وجد المؤرخ ابى الفداء اسماعيل صاحب كتـاب المختصر في اخبار البشر .

راجع (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣١٨)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ٤٢ ، دائـــرة المعارف الاسلامية مادة « الترك » ٠

الاجزاء المتفرقة ، واستطاع أخيرا ان يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقة غربا الى الفرات شرقا ، ومن الموصل وحلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا • وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه في خطاب أرسله الى الخليفة العباس المستضيء يقول فيه : « ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا ان يكون هناك كثير من المشاركين ، ولا أساءنا ان تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وانما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء الا العدة [1] •

وكانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم اسلامى عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس • فاتجه بجيوشه الى قلعة طبرية جنوبي القدس [2] ، فحاصرها وسيطر على آبار المياه المجاورة ، وجعل نهر الاردن وراءه ، وكان هدفه من ذلك هو استدراج الجيوش الصليبية من ساحل الشام الى المكان الذي حدده هو للمعركة ، وهو تل صخري مجاور لا مياه فيه وهو تل حطين • ففي هذا المكان انزل صلاح الدين بالصليبيين هزيمة فادحة في يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وقتل وأسر منهم عددا كبيرا حتى قال المؤرخ المعاصر ابن الاثير : « وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ، ومن كان يرى الاسرى يحسب ان ليس هناك قتلى [3] !! » •

وقد فتح هذا النصر الطريق الى بقية الممتلكات الصليبية ، فاستولى

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ٢ ص ٤٨ ، عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الايوبى ص ٩٦ •
(٢) القريزي : السلوك جـ١ ق١ ص ٩٥ ، أبو شامة : المرجع السابق جـ٢ ص ٧٦
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص ٢٢٤

على عكا ــ الميناء الرئيسي لبيت المقدس ــ والجبيل Biblos ، وبيروت ، واستعصت عليه صور لانها محاطة بالبحر من معظم نواحيها (١) ، ثم احتل بيت المقدس في اكتوبر من نفس العام ١١٨٧ م (رجب ٥٨٣ هـ) .

وكان لسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين ، وضيـاع معظم الممتلكات الصليبية ،رد فعل عظيم في غرب أوربا ، فأخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة استجاب لها كل من فردريك بربدوسا امبراطور المانيا ، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ، وفيليب الثاني ملك فرنسا ، وهم أعظم حكام غرب أوربا في هذه الفترة (٢) .

ونجح الصليبيون بفضل قوتهم البحرية احتلال عكا سنة ١١٩١ م ومعظم المدن الساحلية ، وحاول ريتشارد قلب الاسد ان يسترجع بيت المقدس ولكنه فشل تماما ، واضطر ان يعقد صلحا مع صلاح الدين في ٢ نوفمبر سنة ١١٩٢ م ، وأهم شروطه ان يحتفظ الصليبيون بالمـدن الساحلية التي تمتد من عكا الى يافا ، وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الاسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج اليها (٣) .

ولقد اشتركت طوائف المماليك الاسدية والصلاحية والعادلية مع الاكراد والعرب في كل هذه العمليات الحربية التي خاضها صلاح الدين ضد ملوك الشام (٤) وضد الصليبيين ، فيصف ابن واصل بلاء هؤلاء المماليك أثناء حصار الموصل (٥) سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) وفي محاربـة

---

(١) يصفها ابو شامة بقوله وصور مدينة حصينة معظمها في البحر كانها سفينة (جـ٢ ص ١١٩ الروضتين) .

(٢)،(٣) عمر كمال توفيق : مملكة بيتالمقدس الصليبية ص ٢٠١-٢٠٤

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ٧٠

(٥) ابن واصل : نفس المرجع ص ٧٨

الصليبيين عند مدينة صور (١) سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، وفي الوقائع المتعددة التي حاول فيها صلاح الدين فك الحصار الصليبي عن عكا سنة ٥٨٥ هـ ــ ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) (٢) . ثم في المناوشات التي حدثت مع الصليبيين بالقرب من القدس (٣) سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) كما يذكر ابن واصل أسماء من استشهد من المماليك في تلك الوقائع . ولم تمنع قوة صلاح الدين وشدة هيبته من معارضة مماليكه ومخالفته في الرأي في بعض الاحيان . ومثال ذلك انكارهم عزمه على التحصن ببيت المقدس انتظارا لمجيء ريتشارد قلب الاسد لحصارها سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ، اذ بعث المماليك الاتراك رسالة الى صلاح الدين يقولون فيها : « لا مصلحة في ذلك ، فانا نحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع . والرأي أننا نضرب مع العدو مصافا ، فان قدر الله تعالى لنا ان نهزمهم ، ملكنا بلادهم ، وان تكن الاخرى ، سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام وعساكرها بمضي القدس ... انك ان أردتنا نقيم في القدس ، فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده ، والا فالاكراد لا يدينون الاتراك ، والاتراك لا يدينون الاكراد » (٤) . ونزل صلاح الدين على ارادة المماليك لاهمية القدس عنده ، واضطر ان يقيم من أهله معهم الامير الامجد صاحب بعلبك ، فتمكن بذلك من الاحتفاظ بالقدس في يد المسلمين (٥) .

على أن موضع الاهمية في هذا الاقتباس السالف الذكر ، هو أن

---

(١) ابن واصل : نفس المرجع ص ٨٩
(٢) ابن واصل : نفس المرجع ص ٩٠-٩١ ، ٩٦ ، ١٠١-١٠٢
(٣) ابن واصل : المرجع السابق ص ١٢٦
(٤) ابن واصل : المرجع السابق ص ١٣٠ ــ ١٣١
(٥) ابن واصل : نفس المرجع ص ١٣١

المماليك بلغوا من القوة والكثرة فيما يبدو مما جعل صلاح الدين يستنيم لشورتهم فضلا عن نزوله على ارادتهم وفي ذلك بلاغ لبيان مدى اعتماد الدولة الايوبية منذ أيامها الاولى على فئات المماليك من الاتراك ٠

وتملأ حوادث الخلف والمنازعات الداخلية بين ابناء البيت الايوبي معظم تاريخ الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م)٠ ويرجع ذلك الى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة ارثا خاصا يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك ، وهو ما جرى عليه العرف في دول الشرق والغرب اوائل العصور الوسطى ٠ كما يرجع الى حرص صلاح الدين ان تكون أهم اقاليم المملكة لابنائه دون غيرهم مثل أخيه ، وأقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده ، وهو العادل الذي عينه صلاح الدين على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك ، ومثل أبناء العادل كذلك ٠ على أن عوامل الانقسام ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم مما جعل للعادل بينهم مدخلا سهلا ٠ ولم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى طوى العادل معظم أولئك الابناء ، فحل محلهم على رأس دولة موحدة ٠ وتظهر لنا سياسته الميكيافيلية بوضوح في تصريحه الخطير الذي القاه على من حوله من أمراء الدولة الايوبية بمصر مبررا خلعه الملك المنصور بن العزيز بن صلاح الدين : « انه قبيح بى أن اكون أتابك صبى مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب » (١)

وقامت طوائف المماليك الصلاحية والاسدية بدور كبير في تلك

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ١٥٥

الحوادث [١] ، اذ ناصرت الصلاحية العزيز بن صلاح الدين ، وابنه الملك المنصور ، وحاربت العادل وأطماعه . وكان مقدم الصلاحية الامير فخر الدين جهاركس [٢] مملوك صلاح الدين . اما الاسدية وكبيرهم سيف الدين يازكوج [٣] مملوك شيركوه أصلا ، فان العادل استغل ما بينهم وبين الصلاحية من تحاسد وتنافس ، واستطاع في مكر ودهاء ووعود خلابة ان يستميلهم اليه ما عدا الامير بهاء الدين قراقوش [٤] الاسدى الذي بقى نائبا مخلصا للملك العزيز في القاهرة [٥] .وظل النزاع بين هاتين الطائفتين

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢١٤ ـ ١٢٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٢٣

(٢) يروى المقريزي (الخطط جـ٢ ص ٨٧ ـ ٨٩) وابن خلكـــان (وفيات الاعيان جـ١ ص ٢١٣) ان جهاركس كلمة فارسية معناها اربعة انفس ، على حين يروى ابو شامة (الذيل على الروضتين ص ٧٩) ان لفظ جهاركس معناه ان اشترى بأربعمائة دينار ، غير ان العمرى (التعريف بالمصطلح الشريف ص ٤٣) يقول ان جهاركس وجركس وشركس طائفة من طوائف الشمال كالروس من مملكة توران . راجع كذلك :
(E. Herzefeld : Damascus, Studies in Architecture III, ars Islamica, Vols XI — XII p. 50).

(٣) كان على راس المماليك الاسدية بمصر ايام صلاح الدين وابنـه العزيز . ومات سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) ودفن بالمعظم . (المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٣٦٨)

(٤) قراقوش اسم تركى معناه العقاب الطائر . كان مملوكا لاسد الدين شيركوه ثم انتقل الى خدمة صلاح الدين وصار نائبا عنه في القاهرة اثناء غيابه . وتنسب اليه احكام عجيبة اثناء ولايته والظاهر انها موضوعة اذ تثبت النصوص عدله وكفايته . وهو الذي بنى السور الذي احاط بالقاهرة ومصر وما بينهما كما بنى قلعة الجبل (اي جبل المقطم) وتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) انظر (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ١٨٣ ، المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٩٣) .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ٢ ص ٢٢٩

قائما ما ظل الخلاف بين الملوك الايوبيين ، حتى تغلب العادل ووحد كلمة بني أيوب ، فكان ذلك نصرا للاسدية . وقد خلع عليهم الملك العادل ورد اليهم اقطاعاتهم بمصر [1] . أما طائفة المماليك الصلاحية ، فانها آلت الى ما آل اليه أبناء صلاح الدين وأحفاده من الضعف . وزادها ضعفا وفاة بعض زعمائها أمثال جهاركس في ٢٠ رجب سنة ٦٠٨هـ (ديسمبر ١٢١١م)[2]، وعزالدين أسامة ، فضلا عن اضطهاد العادل لمن بقى من أولئك الزعماء باستيلائه على حصونهم واقطاعاتهم [3] .

وللمماليك الاسدية والصلاحية خانات ودروب وحمامات وأسواق ومدارس ظل بعضها يحمل أسماءهم مدة من الزمان ، مثل درب الجاولى الكبير بجوار الجامع الازهر نسبة الى الامير عزالدين الجاولى الاسدى[4]، ودرب الوشاقى بحارة زويلة نسبة الى حسام الديـن سنقر الوشاقى الصلاحى [5] ، وحمام كتبغا الاسدي بخط ما بين القصرين [6] ، وحمام

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ١٢٨

(٢) دفن جهاركس بجبل الصالحية عند جبل قاسيون في شمال غرب دمشق ، ونقش على تربته المعروفة بقباب شركس العبارة التالية : هذه التربة المباركة للامير الكبير الغازى المجاهد فخر الدين ، حافظ ثغور المسلمين ، قاتل الكفرة المشركين ، اياز جهاركس الناصري . توفي عقب عودة الغزاة في العشرين من رجب سنة ثمان وستمائة ، رحمة الله عليه وعلى جميع الاموات المسلمين ، آمين . راجع
(H. Sauvaire : Description de Damas, Journal asiatique, tomė IV, 1894, p. 249 — 251, hote 32).

(٣) كانت بانياس وشقيف أرنون للامير جهاركس بينما كانت قلاع كوكب وعجلون ملكا للامير عزالدين أسامة . (ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ١٢٠ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ١٧٥) .

(٤) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٣٨

(٥) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٤١

(٦) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٨٣ والمقصود بالقصرين : القصر

تتر بناحية دار الوزارة الكبرى ، وكان تتر هذا أحد مماليك أسد الدين شيركوه ، وظل اسمه يطلق على تلك الجهة حتى خربت وسميت خرائب تتر وان كانت العامة حرفت اللفظ فقالوا خرائب التتر (١) . ثم حمام كرجى نسبة الى علم الدين كرجى الاسدى وهي بنواحى خرائب تتر (٢) ، وهناك قيسارية جهاركس (عمارة كبيرة بها حوانيت) التي بناها الامير فخر الدين جهاركس بالقاهرة سنة ٥١٢ هـ (١١٩٦ م) وبنى في أعلاها مسجدا كبيرا . وقد بلغت من العظمة مبلغا جعل جماعة من التجار الذين شهدوها يقولون بأنهم لم يروا في البلاد مثلها في حسنها وعظمتها واحكام بنائهـا (٣) . ولجهاركس أيضـا مدرسته المعروفة باسم « المدرسـة الجهاركسية » (٤) ، وكانت ملاصقة لتربته بدمشق ، ودرس بها عدد من كبار العلماء نذكر منهم القاضي تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكى الشافعي المتوفي (٦) سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٤ م) . وهناك المدرسة الازكشية التي بناها بالقاهرة الامير أيازكوج الاسدي (٦) ، والمدرسة المسرورية التي بناها الخواص مسرور مقدم حلقة صلاح الدين (٧) . وهناك خان

الشرقى الكبير والقصر الغربي على عهد خلفاء الفاطميين ويقابلهما الان خان الخليلي وسجد الحسين وسوق النحاسين بالقاهرة .

(٢) ، (٣) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٨٠.

(٤) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٨٧ ــ ٨٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ١٢ ٢.

(٥) (Herzefeld : Madrasa al Charkasiya, ars Islamica vols. XI — XII p. II).

(٦) هو والد تاج الدين عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى (ت سنة ٧٧١ هـ) .

(٧) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٣٦٧

(٨) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٣٧٨

السبيل الذي بناه بهاء الدين قراقوش الاسدي للمسافرين خارج باب الفتوح بالقاهرة (١) ، وسويقة البلشون نسبة الى الامير سنقر البلشون الصلاحي (٢) ، الى غير ذلك من المنشآت المختلفة التي ان دلت على شيء فانما تدل على مقدار ما بلغه مماليك الايوبيين الاوائل من نفوذ وكثرة .

وكان طبيعي ان تزداد اعداد المماليك الاتراك مدة النزاع بين أبناء صلاح الدين وعمهم العادل ، وان يستمر سلاطين الايوبيين وملوكهم على استجلاب المماليك لتغذية جيوشهم ، ولذا يطفح تاريخ الايوبيين بأسماء المماليك العزيزية نسبة الى العزيز بن صلاح الدين ، والعادلية نسبة الى العادل ، والاشرفية نسبة الى الاشرف موسى بن العادل (٣) ، والكاملية نسبة الى الكامل بن العادل ، والصالحية نسبة الى الصالح أيوب بن الكامل ، وهكذا . وقد تدخلت هذه الفئات المملوكية في اقامة السلاطين الايوبيين وعزلهم ، فلما توفي العادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) كرهت العادلية تولية ابنه الكامل ، وأرادت أخاه المعظم ، فقبض الكامل بعد سلطنته على كثير من أمرائهم وصادر أموالهم (٤) . ثم توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) وخلفه على عرش مصر ابنه الاصغر ، وهو العادل الثانى ، وبقى ابنه الاكبر وهو الصالح أيوب على ولايته بالبلاد الفراتية لان أم العادل ارادت ان يكون ابنها سلطانا ، فكان لها ما أرادت (٥) . غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا عما تم ، فحالفوا الاشرفية

---

(١) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٩٣

(٢) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ١٠٣

(٣) ولى الجزيرة سنة ٦٠٧ هـ ثم حمص سنة ٦١٧ هـ ثم دمشق سنة ٦٢٦ هـ وتوفي سنة ٦٣٥ هـ .

(٤) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٢٣

(٥) ذكر المقريزي (السلوك جـ١ ص ٢٣٨) أن ام العادل أرسلت الى

ومقدمهم عزالدين أيبك الاسمر ، وما زالوا حتى انتهزوا فرصة خروج العادل الصغير لمحاربة قريبه صاحب الكرك ، فقبضوا عليه في بلبيس ، وخلعوه سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) • ولم يتحرك لنصرة العادل الصغير الا الاكراد الذين سرعان ما انهزموا على يد المماليك الكاملية والاشرفية من الاتراك (١) •

ومن هذه الحادثة يتبين مدى تفوق القوة المملوكية التركية على القوة الكردية في دولة بنى أيوب •

ولم تكن اصبع الصالح أيوب صاحب الحق في العرش ، بعيدة عن تلك الحوادث ، غير ان الكاملية والاشرفية الذين اتفقوا على خلع العادل الصغير اختلفوا فيما بينهم حول خلفه ، ومال الاشرفية الى سلطنة اسماعيل ابن العادل الاول صاحب دمشق وعم الصالح أيوب ، على حين مال الكاملية ، وهم أقوى شوكة ، الى الصالح أيوب ، فلم يسع الاشرفية الا موافقتهم ، واستدعى الصالح أيوب أخيرا لتولى السلطنة في مصر ، فدخلها سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) (٢) •

وكيفما كان الامر ، فالمهم هنا هو ان المماليك بلغوا من القوة في الدولة الايوبية ما جعلهم يخلعون سلطانا ويقيمون آخر •

الملك الكامل حينما كان بالرقة سنة ٦٢٧ هـ تخبره بأن ابنه الصالح أيوب عزم على الاستيلاء على الملك وطردها هي وابنها العادل منها فتغير الكامل على ابنه الصالح ايوب وخلعه من ولاية العهد وعهد الى ابنه العادل .

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٣٧ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٩٦

وعنى الصالح أيوب منذ تبوئه عرش مصر بالاكثار من شراء المماليك الاتراك الى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم [1] ، بعد ان ظل عنصر الاكراد الاحرار عدة الدولة الايوبية منذ نشأتها • والسبب في ذلك يرجع الى خوف الصالح أيوب من اجتماع الملوك الايوبيين ضده بزعامة عمه اسماعيل ، وخشية من انقلاب الكاملية والاشرفية عليه اذا رجحت لديهم كفة اعدائه [2] • هذا ، ويبدو ان الصالح أيوب لم يستكثر من المماليك فحسب ، بل انه أباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الاخرى حتى ضج الاهلون من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال [3] • عندئذ رأى الصالح أيوب ان يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤١ م) قلعة خاصة بجزيرة الروضة قرب المقياس ، وأسكنهم بها ، كما اتخذها مقرا لملكه ، وزودها بكثير من الاسلحة والا ت الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والمؤن • وعرف هؤلاء المماليك الجدد باسم المماليك البحرية الصالحية [4] • والمماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين ابعد ما يكونون من الخجل من أصلهم او فصلهم او نشأتهم ، بل طالما افتخروا بأنهم مماليك ، لان علاقة

(١) ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ١٨٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٧٠ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ •
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ •
(٣) قال في ذلك احد الشعراء المعاصرين (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣١٩) :

الصالح ايوب اكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد اخذ الله ايوبا بفعلته فالناس قداصبحوافي ضر أيوب

والضر هنا اشارة الى قوله تعالى : وايوب اذ نادى ربه انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين • (سورة الانبياء)
(٤) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ١١٦ ، ٢١٧ •

المملوك بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية اكثر منها علاقة عبودية ، ولم يحل ذلك الاصل دون تربيتهم تربية طيبة ، واعدادهم أحسن اعداد لوظائف الحكومة والادارة والجيش • غير ان المراجع المعاصرة لا تشرح طرق التربية التي سار عليها الايوبيون في تنشئة المماليك ، بل ليس لدينا في ذلك الصدد سوى ما كتبه المقريزي في وصف ما جرت عليه الدولة المملوكية نفسها في تربية مماليكها بعد ذلك • على أن الاعتماد هنا على مبدأ تطبيق المتأخر على المتقدم يدعو الى الاطمئنان ، اذ المعروف ان الدولة المملوكية وليـدة الايوبيين ، ونظمها من نظمهم ، ولا محل للتردد في القول بان الصورة التي اوردها المقريزي في شرح تربية المماليك على عهد الدولة المملوكية لا يمكن ان تخرج عن الصورة التي درج عليها الايوبيون في تربية مماليكهم ، ما عدا ما يكون هناك من التعديلات التفصيلية التي أدخلها سلاطين المماليك أنفسهم ، « فاذا قدم بالمملوك تاجره ، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه ، ويسلمه الى المختص برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم • ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن ، ومعرفة الخـط والتمرين بآداب الشريعـة الاسلامية ، وملازمة الصلوات والاذكار • وصار الرسم اذ ذاك الا تجلب التجار الا المماليك الصغار ، فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئا من الفقه ، وأقرأه فيه مقدمة ، فاذا صار الى سن البلوغ ، أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه • واذا ركبوا الى لعب الرمح او رمى النشاب ، لا يجسر جندي ولا أمير ان يحدثهم او يدنو منهم ، عند ذلك ينقل الى الخدمة ، ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الامراء ، فلا يبلغ هذه الا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب ،

وحسن لعبه بالرمح ، ومرن على ركوب الخيل . وقد كان لهم خداما وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصا شافيا ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فان عثر أحد مؤدبية الـذي يعلمه القرآن ، او رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبا ، أو أخل برسم ، او ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه . فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في اظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى [١] » .

وللمماليك الصالحية النجمية بالقاهرة خانات ودروب وحمامـات ومدارس على غرار منشآت المماليك الاسدية والصلاحية ، نذكر منهـا المدرسة الغزنوية التي بناها حسام الدين قايماز الصالحي النجمى [٢] ، والخانقاه البندقدارية التي بناها الامير علاء الدين البندقدارى الصالحي النجمي [٣] ، ومطبخ سكر الامير فارس الدين أقطاى الصالحى النجمي[٤]، وحمام الرومى بجوار حارة برجوان نسبة الى الامير سنقر الرومى الصالحي النجمى [٥] ... الخ . وكل هذا يدل على ان الدولة الايوبية استخدمت المماليك الاتراك استخداما واسعا بدليل كثرة المباني والعمائر التي شيدها هؤلاء المماليك .

بقيت مسألة تستحق التصحيح في موضوع المماليك البحرية وهي

---

(١) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٢١٣ ــ ٢١٤
(٢) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٣٩٠
(٣) المقريزي : نفس المرجع جـ٢ ص ٤٢٠
(٤) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار جـ٤ ص ٤٤
(٥) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٨٣

أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المماليك البحرية ، وأول من سماهم بذلك الاسم نسبة الى بحر النيل الذي احاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غير ان هذا الرأي لا يستند الى أساس علمي صحيح (١) للاسباب الآتية :ـ

أولا : المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب امثال ابن واصل وابى شامة لم يشيروا الى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية . هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقريزي وابى المحاسن .

ثانيا : من المعروف ان الفاطميين من قبل ، كانت لهم طائفة من الجند تعرف « بالغز البحرية » (٢) ، كذلك كان للسلطان العادل الاول ، جد الصالح أيوب ، فرقة من المماليك أسماها « البحرية العادلية » (٣) ، وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ .

ثالثا : يروى الخزرجى ان سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت ٦٤٧ هـ) الذي كان معاصرا للصالح أيوب في مصر ، « استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس ، وكانوا يحسنون من الفروسية والرمى ما لا يحسنه مماليك مصر ، وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم في العدد خارجا عن حلقته وعساكر أمرائه » (٤) .

---

(١) أول من شك في هذه النسبة هو استاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة في بحثه القيم (بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية آداب القاهرة ، المجلد الرابع ١٩٣٦) وقد اتاحت لى قراءاتي أن أضيف بعض النصوص التي تؤيد رأيه رحمه الله .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٩٠

(٣) زيادة : المرجع السابق

(٤) راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية جـ١ ص ٨٢)

هذا النص يدل على أن لفظ بحرية استخدم في بلاد اسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل •

رابعا : أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوربا الى الشام أثناء الحروب الصليبية ، اسم « الفرنج الغرب البحرية » ، فيروى أبو شامة « انه في سنة ٥٩٣ هـ فتح الملك العادل يافا ••• ومن عجيب ما بلغنى أنه كان في قلعتها أربعون فارسا من « الفرنج الغرب البحرية » ، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها ، دخلوا كنيستها ، وأغلقوا عليهم بابها ، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض الى أن هلكوا جميعا • وكسر المسلمون الباب وهم يرون ان الفرنج ممتنعون ، فالفوهم قتلى عن آخرهم ، فتعجبوا عن حالهم » (١) •

فلفظ بحرية اذن لم يكن جديدا على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية ، بل كان لفظا عاما اطلق على المسلمين والمسيحيين سواء ، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح ايوب ، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ الى بحر النيل أمر مشكوك في صحته • على أن المشكلة الاخيرة في هذا الصدد هي لماذا سميت هذه الفرق بالبحرية ؟ للاجابة على هذا السؤال يجب اولا ان نشير الى ما قلناه آنفا عن خطأ الفكرة الشائعة بأن لفظ بحرية يرجع الى بحر النيل الذي احاط بثكنات فرقة البحرية الصالحية بجزيرة الروضة ، فهذه النسبة لم يذكرها

(١) ابو شامة : الذيل على الروضتين ، نشره عزت العطار الحسينى تحت عنوان : (تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجرى) ص ١٠ — ١١ ، ٥٢ ، ١٥١ — هذا ويلاحظ ان كلمة « الغرب البحرية » قد تقرأ ايضا « العزب البحرية » اي أنهم كانوا غير متزوجين .

المؤرخون المعاصرون بتاتا ، فضلا عن أن وجود هذا الاسم منذ العهد الفاطمي في مصر ينفى هذا الزعم أيضا •

وأغلب الظن انهم سموا بحرية لانهم جاءوا من وراء البحار ، اذ جاء في جوانفيل أنهم « يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحر [١] » • وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع، وأسر عندهم وتحدث اليهم ، روايته لها قيمتها بصفته رجل معاصر وشاهد عيان • واذا علمنا ان المماليك البحرية زمن الايوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الاسود ، وأن الطريق العادى الذي سلكوه من بلادهم الى مصر هو عبر البحر الاسود ثم بحر القرم الى خليج القسطنطينية ومنه الى البحر الابيض المتوسط حيث يسيرون فيه الى ميناء الاسكندرية أو دمياط [٢] ، تأيدت لدينا عبارة جوانفيل •

غير ان فضل جوانفيل لا يقتصر على تفسيره لفظ بحرية التى لصقت بدولة المماليك الاولى ، بل يتعداه الى تسجيله حوادث الحملة الصليبية التي جاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا للاستيلاء على مصر • ففى تلك الحملة وضحت قيمة المماليك البحرية ، وحوادثها هي التي مهدت لهم ولدولتهم في مصر والشام • ذلك أنه بينما تستقر الامور للصالح ايوب في مصر والشام ، اذا بالانباء تصله بأن حملة صليبية في طريقها الى مصر ،

---

(١) انظر (Joinville : History of St. Louis, tr. Joan Evans p. 84).

وكذلك (Joinville : Saint Louis King of France tr. James Hutton, p. 74).

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٦٩

وأن قائدها الفرنسيس نفسه (أي ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس) ، ويقول ابن واصل والمقريزي ان أخبار تلك الحملة بلغت السلطان الصالح أيوب عن طريق الامبراطور فردريك الثانى هو هنشتاوفن امبراطور المانيا وصقلية ، وان رسوله تنكر في زي تاجر قصد الى حضرة السلطان الصالح أيوب فوجده مريضا بدمشق [١] .

واذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الـدين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) هو الذي بعث على قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، فان سقوطها للمرة الثانية سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) في يد الملك الصالح أيوب وحلفائه الخوارزمية [٢] كان السبب الذي ادى الى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر [٣] . اذ ان أنباء الهزائم التي منى بها الصليبيون عند غزة ، وتسليمهم بيت المقدس ، والفظائع التي ارتكبها الخوارزميون ، وصلت أوربا في كثير من المبالغة المعهودة ، فكان لا بد لتلك الانباء ان تثير الروح الصليبية في قلب لويس التاسع .

غير ان تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عموما في أنها لم تكن شاملة لمختلف الاوربيين ، بل فرنسية اغلبها

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٢١ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٣١ حاشية ٢ . وكذلك :
(King : The knights Hospital'ers in the Holy Land p. 240).

(٢)،(٣) راجع (King : Op. cit. p. 24) ويلاحظ ان الجنود الخوارزمية هنا هم في الاصل جنود جلال الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية التي قضي عليها جنكيزخان المغولى وشرد جنودها فصاروا مناسر حربية تحاول الدخول في طاعة من يريد استخدامها . وقد صاهر الصالح ايوب زعيما من زعماء تلك المناسر واسمه بركة خان اذ زوجه اخته مـن امه واستعان به ضد الصليبيين واسترداد القدس .

من الفرنسيين ، لانصراف المانيا وايطاليا وقتذاك الى النزاع الامبراطوري البابوى ، وفشل لويس التاسع في ازالة الخلف بين البابا انوسنت الرابع والامبراطور فردريك الثاني • ففي مجمع ليون الدينى وهو المجمع الذي عقد سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) للنظر فيما وصل الى البابوية من آخبـار الشرق ، واعلنت فيه الحملة بقيادة لويس التاسع ، دعا البابا الى حملة سماها صليبية ضد فردريك الثاني باعتباره خارجا على الكنيسة مقطوعا من رحمتها [١] •

وكانت الفكرة السائدة في أوربا المسيحية منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي أنه ما دامت مصر باقية على ما هى عليه من القوة والبأس ، فان مشاريع الصليبيين في الشام فاشلة لا محالة ، ولا بد من حرمان الجبهة الاسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة [٢] • وأصل تلك الفكرة عموري الاول صاحب الحملات المشهورة التي مهدت للدولة الايوبية في مصر ، واتخذها حنا برين Jean de Brienne ملك بيت المقدس محورا لسياسته وحملته الفاشلة التي دهمت الشواطىء المصرية سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) زمن السلطان الكامل ، كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياتـه واحلامه الصليبية • ولم تخف تلك الحقيقة على المؤرخ ابن واصل حينما قال « ••• ان ملك فرنسا ريدافرانس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس الى الفرنج ••• وعلم ان ذلك لا يتم الا بملك الديار المصرية[٣] » •

ثم أبحر الاسطول الفرنسي من ميناء مرسيليا في خريف سنة ١٢٤٨ م

---

(١) انظر «King : Op. cit. p. 242»

(٢) راجع «Lane Poole: A History Egypt in the middle ages p. 218»

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٥١ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٣٤ حاشية ٢

الى جزيرة قبرص التي كانت تحت حكم آل لوزجنان Lusignan وهـم مسيحيون لاتينيون • وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء ، أجرى خلالها بضعة اتصالات مع المغول بغية تحويلهم الى المسيحية والاستفادة من جهودهم في تطويق العالم الاسلامي في الشرق الادنى (١) • وأخيرا ابحرت الحملة من قبرص في مايو سنة ١٢٤٩ م متجهة الى مصر بعد أن بلغ عدد رجالها حوالي الخمسين ألف محارب (٢) ، وصحب الملك أخوه شارل دى أنجو «Anjou» وروبرت دى أرتوا «Artois» •

وعلم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل لغزو مصر ، فعسكر بجيوشه جنوبها في بلدة اشموم طناح وهي اشمون الرمان بمركز دكرنس في العصر الحاضر ، وأمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والاسلحة ، ووضع فيها حامية من عرب بنى كنانة ، كما أرسل جيشا اليها بقيادة الامير فخر الدين يوسف ، وأمره ان ينزل بساحلها الغربي ليحول دون نزول العدو الى الشاطىء ، فنزل هناك تجاه المدينة وأصبح النيل بينه وبينها (٣) •

ثم وصل الاسطول الصليبي الى المياه المصرية قبالة دمياط بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٢٤٩ م • وفي اليوم التالي نزل الصليبيون الى البر الغربى للنيل حيـ ثـوقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات ، انسحب بعدها الامير

---

(١) لم ينفذ الخان المغولى هذه الخطة حتى ان الملك لويس التاسع ندم فيما بعد على حسن معاملته لرسله . انظر :
«Wedgewood : Memoirs of Jounville p. 64 mote to chaps. V»
(٢) King : Op. Cit. p. 242
(٣)ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة الى المعسكر السلطانى باشموم طناح • وجفل أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين ، وتركوا جسر السفن الذي يصل بين البر الغربى ودمياط قائما ، فعبر عليه الصليبيون واحتلوا المدينة بسهولة • واستشاط السلطان الصالح ايوب غضبا لما وقع ، فأمر بشنق الكنانيين الذين ارتدوا عن دمياط دون قتال ، كما تغير على الامير فخر الدين واشتد في تأنيبه لدرجة ان بعض الامراء هموا بقتل السلطان لولا نصيحة فخر الدين لهم بالتريث لان السلطان مريض بمرض خطير وصائر لاجله عن قريب (١) •

ويعلل المؤرخ الفرنسي المعاصر جوانفيل ، ذلك الانسحاب بأن الامير فخر الدين راسل السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول الفرنج الى الساحل ولكنه لم يتلق ردا فظن أنه مات وآثر الرحيل بسرعة (٢) • ويفهم من كلام ابن واصل والمقريزي ان الامير فخر الدين كان يطمع في سلطنة مصر لنفسه « وأن همته كانت تترقى الى الملك » (٣)، فلعل انسحابه كان سبيلا لتحقيق أمانيه اعتقادا منه بأن السلطان قد مات •

وكيفما كان الامر ، فان السلطان اضطر أمام هذه الاحداث الى الارتداد بمعسكره الى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطانى على ساحل النيل ، ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة ، كما اخذت جموع العربان والجنود المطوعة تفد الى تلك القاعدة الجديدة لمواجهة الخطر الداهم •

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٣٦

(٢) راجع «Joinville: History of Saint Louis, tr. by Evans p. 52»

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٦ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٤٥

وصارت العمليات الحربية في تلك الاثنـاء مجرد غارات يشنهـا الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبيين واختطاف كل من تصل أيديهم اليه ، فاذا شعر بهم الفرنج ، ألقوا بأنفسهم في الماء وسبحوا الى ان يصيروا في بر المسلمين . وكانوا يتحيلون في اختطاف الفرنج بكافة الطرق التي تثير الدهشة والاعجاب مثال ذلك ان مجاهدا من المسلمين قور بطيخة خضراء وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء الى أن قرب من الفرنج . فظنه بعضهم بطيخة سائبة في الماء ، ولما نزل لاخذها خطفه ذلك الفدائي وأتى به أسيرا الى معسكر المسلمين [1] .

واستمر الحال على ذلك المنوال ستة اشهر من يونيو الى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ، ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث كونت دي بواتييه «Poitiers» فلما وصل هذا الاخ ، عقد الملك مجلسا للتشاور في أحسن طريق تسلكه الحملة. فأشار البعض بالذهاب الى الاسكندرية[2] لانها مرفأ طيب يمكن ان تأوى اليه السفن ، ويكون التموين فيه سهلا ، ولكن الكونت دى أرتوا عارض ذلك الرأى قائلا بضرورة الذهاب الى أهم مدينة بالقطر المصري وهي القاهرة : « فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه اولا » ، ووافق لويس التاسع على رأي أخيه [3] .

وبينما يستقر الرأي على الزحف صوب القاهرة ، توفي الملـك

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٤٨ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ١٥٣

(٢) انظر
«Oman: Histsory of art of war in the middle ages, vol. 1. p. 54»

(٣) انظر «Joinville : History of St. Lous tr. by Évans p. 54»

الصالح أيوب ، فقامت زوجته شجر الدر [1] بتدبير شئون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفا من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين • وفي الوقت نفسه أرسلت الى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه تحثه على الرحيل من ولايته في حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم الى مصر ليعتلى السلطنة بعد أبيه •

ثم علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب ، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط زاحفين جنوبا على شاطىء النيل الشرقي لفرع دمياط ، وسفنهم تسير حذاءهم في النيل • وبعد عدة وقفات في فارسكور ، وشارمساح ، وفارامون ، وصلوا الى بحر أو قناة اشموم [2] طناح في ١٩ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، فصار على يمينهم فرع النيل ، وأمامهم قناة اشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة عند مدينة المنصورة [3] • ولمواصلة التقدم جنوبا ، تعين على الفرنسيين ان يعبروا اما فرع دمياط او قناة اشموم ، فاختار لويس التاسع القناة • وما زال حتى دله بعض الخونة على مخائضها مقابل مبلغ من المال • فعبرت الخيالة الصليبية دون ان تلقى

---

(١) المصادر المعاصرة وشبه المعاصرة تذكر الاسم كما ورد هنا في المتن: شجر الدر ، اما المراجع المتأخرة فتذكره بصيغة شجرة الدر ، ومن الواضح ان تسمية المعاصرين واشباههم هي الاصح ، وقد أيد المؤرخون الاوربيون صحة تسميتها بشجر الدر أمثال دائرة المعارف الاسلامية ، ولين بول ، وجاستون فييت ، وكنج ، وغيرهم .

(٢) هو المعروف اليوم باسم البحر الصغير أحد فروع الرى الشهيرة بمديرية الدقهلية وكان يسمى بحر اشموم نسبة الى مدينة اشموم طناح الواقعة عليه . راجع : (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ حاشية رقم ٥)

(٣) حول تعيين من دل الفرنج على هذه المخائض واختلاف الاقوال فيه ، راجع (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٤٩ حاشية رقم ١) .

مقاومة أثناء عبورها [١] ، ولم يشعر المسلمون الا والفرنــج معهم في المعسكر ، فانتشر الذعر بين الجند ، وخرج الامير فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية من الحمام ، وامتطى صهوة جواده دون ان يلبس درعه، وحاول ان يلم شمل الجنود الفارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ، ولكن السيوف اعتورته من كل جانب ، فسقط قتيلا بعد أن تفرق عنه فرسانه [٣] • واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت أرتوا ، أحد أبواب المنصورة ، وواصلوا هجومهم في فصائل صغيرة مبعثرة الى داخل المدينة يقتلون المصريين يمينا وشمالا حتى وصلت طلائعهم الى أبواب قصر السلطان نفسه ، وانتشرت جنودهم في أزقة المنصورة حيث أخــذ السكان يرمونهم بالاحجار والطوب والسهام • وبينما الكل على ذلك ، جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية قواها خارج المدينة ، ثم اطبقت على الفرنج بقيادة الامير بيبرس البندقداری ، فانقلب نصر الصليبيين الــى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلا حتى اهلكوهم عن آخرهم تقريبا بما في ذلك الكونت أرتوا نفسه الذي لقى بذلك جزاء تهوره واندفاعه [٢] •

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا الى ميدان القتال ، ونجح فــي اقامة جسر على بحر اشموم لتعبر عليه الرجالة ، غير ان الروح المعنوية الجديدة التي أثارتها موقعة المنصورة (٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م) في صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذي أحرزه الفرنسيون •

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الامير فارس الــدين اقطاى

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٤٩ •

(٢) بلغ عدد قتلى الفرنسيين في تلك الموقعة حوالى ١٥٠٠ فارس
«Oman : Op. cit. 1, p. 350 - 352»

الصالحي مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند [(١)] الكونت أرتوا قائلا بأنها سترة الملك نفسه ، وأن شعبا بدون ملك ، جسم بلا رأس ، لا يخشى منه خطر ، وعلى ذلك سوف نهاجم الفرنسيين في يوم الجمعة اذا طا بلكم ذلك . وفي فجر يوم الجمعة ، وهو الموافق ١١ فبراير ١٢٥٠ م ، أمر أقطاى أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى حاطوا معسكر الفرنج، وهذا خلاف فرق الاحتياطي الرابضة عن كثب مستعدة للطوارىء. وبعد ان انتهى اقطاي من ترتيب جيوشه ، تقدم بمفرده راكبا فرسا ليشهد صفوف الصليبيين ، ومراكز القوة والضعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها . وشغلت هذه العمليات وقت أقطاى حتى منتصف النهار ، ثم أمر بقرع النقارات [(٢)] ، ومن ثم بدأ الخيالة والمشاة في الهجوم من جميع النواحي كما لو كانوا يلعبون الشطرنج على حد قول جوانفيل [(٣)] . واستخدم المماليك النار الاغريقية في هجومهم ، ولكن الملك لويس تمكن من الثبات واعادة خط القتال الى ما كان عليه بعد أن تكبد خسائر فادحة. وبذلك تنتهى موقعة المنصورة الثانية ، التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم

---

(١) الكزاغند ، المعطف القصير ، يلبس فو ق الزردية ، ويلاحظ هنا ان المسلمين اختلط عليهم الامر حينما وجدوا على المعطف الشعار الملكى الفرنسي وهو زهرة الزنبق Fleur de Lis فظنوه معطف الملك نفسه وان الذي قتل هو لويس التاسع .

(٢) النقارات هي من الآلات الخاصة بمواكب السلطنة منذ عهد الفاطميين ، تحمل في ركاب السلاطين الى ساحة الحرب ، فتستخدم في اصدار الاوامر وفي الايذان ببدء القتال وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث منها مثنى. راجع (القلقشندى : صبح الاعشى جـ٣ ص ٤٧٥)

(٣) لعل جوانفيل يقصد بلعبة الشطرنج ان فرسان المسلمين كانوا على شكل درج «en échelon»

لا يستطيعون البقاء في مراكزهم ، وان عليهم الانسحاب الى دمياط قبل فوات الفرصة (١) •

ثم لم تمض أيام على هذه الوقعة حتى قدم تورانشاه الـى مصر (٢٧ فبراير سنة ١٢٥٠ م) فأعلنت وفاة الصالح أيوب ، وسلمته شجر الدر مقاليد الامور ، وما لبث السلطان الجديد حتى تولى قيادة الجيوش بنفسه ، وأخذ في تدبير خطة لاجبار الملك لويس التاسع على التسليم ، وخلاصتها ان يقطع خط الرجعة على الفرنسيين • لذا أمر تورانشاه بنقل عدة سفن مفصلة أجزاء على ظهور الجمال ، وانزالها في النيل وراء الخطوط الفرنسية (٢) • وبهذه الوسيلة تمكنت أساطيل المصريين من مهاجمة كثير من السفن الفرنسية المحملة بالمؤن والاقوات ، والاستيلاء عليها وأسر من فيها • وتنج عن ذلك حلول المجاعة بالمعسكر الفرنسي وتفشى الامراض والاوبئة بين الجنود ، فساء حالهم ، واضطر الملك الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل ، لكن المصريين رفضوا هذه الشروط علما منهم بسوء حالة الفرنج • فعول الملك على الانسحاب تحت جنح الظلام ، وأمر بازالة الجسر الذي على قناة اشموم ، غير أن الصليبيين تعجلوا أمرهم ، فسهوا عن قطع الجسر ، فعبره المصريون في الحال ، وركبوا أعناق الصليبيين ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أحدقوا بالصليبيين من كل جانب ،

---

(١) انظر «Joinvill : Op. cit. P. 79-80; King : Op. cit. p. 247»

(٢) هذه الخطة اتبعها من قبل جده السلطان الكامل ضد حمله جان دي بريين على مصر سنة ١٢١٨ م ، وكذلك أوصاه بها أبوه الصالح أيوب في وصيته التى تركها له قبيل وفاته ، والتي اوردها النويرى في كتابه نهاية الارب في فنون الادب (جـ٢٧ لوحة ٨٩ ــ ٩٣) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامة .

فقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا (١) ، وغنموا معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم • وأبلى المماليك البحرية الصالحية ، ولا سيما أقطاى وبيبرس البندقدارى ، في فارسكور بلاء حسنا ، حتى أطلق ابن واصل عليهم اسم « داوية الاسلام (٢) » ، اشارة الى ما صار لهم من قوة تشبه فرسان الداوية (٣) عند الصليبيين •

ولم يشأ لويس التاسع ان ينجو بنفسه رغم الحاح الدوسنطاريا عليه، بل قرر الاقامة مع المؤخرة كى « يحمى أصحابه » على قول ابى المحاسن (٤) • وبذلك تمكن المسلمون من أسره وأسر من معه من الاشراف والفرسان في قرية منية ابى عبدالله (٥) ، شمالى المنصورة ببضعة

---

(١) يقال ان عدد القتلى في موقعة فارسكور بلغ ثلاثين الفا . وقد كتب تورانشاه نفسه هذا العدد في خطابه الى جمال الدين يغمور نائبه في دمشق . وان كان يبدو أن هذا التقدير مبالغ فيه . ولو افترضنا ان عدد القتلى بلغ نصف هذا العدد ، فانه يبدو كبيرا حقا . راجع (المقريزي : السلوك جـ١ ق٢ ص ٣٥٧)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧٠

(٣) فرسان الداوية او المعبد The Templers من أشهر جماعات الفرسان الدينية ابان الحروب الصليبية التي جمعت بين مبادىء الرهبنة ومبادىء الفروسية . وهذه الطائفة مشهورة ببسالتها وشدة بلائها في الحروب فلا غرو ان شبه بها ابن واصل فرقة المماليك البحرية الصالحية .
راجع (فيليب حتى : تاريخ العرب جـ٣ ص ١٩٤ حاشية ٢ ترجمة مبروك نافع)

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٥

(٥) منية ابى عبدالله قرية لا تزال موجودة الى اليوم على الشاطىء الشرقي لفرع دمياط ، وهي التي تعرف باسم ميت الخولى عبدالله ، احدى قرى مركز فارسكور بمديرية الدقهلية . راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٠)

أميال • ثم سيق لويس التاسع الى مدينة المنصورة حيث سجن بـدار القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان [١] •

وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة الى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية ، ولم يبق الا المفاوضات من أجل الصلح •

ولا شك أن فشل هذه الحملة الصليبية يدل دلالة واضحة على جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية ، فقد كان الاجدر بهم اتباع طريـق الصالحية ــ بلبيس الذي سار فيه اكثر غزاة مصر مثل قمبيز ، والاسكندر، وعمرو بن العاص ، وسليم الاول ، بدلا من هذا الطريق المعقد الذي قادهم الى وسط الدلتا حيث كان عليهم عبور النيل بفروعه وقنواته المتعددة •

على أن الشيء الذي يؤسف له حقا هو أن شعور المسلمين بزوال خطر الفرنج ، قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان علـى عدوهم ، فاضطرمت المنازعات الداخلية ، وحيكت المؤامرات السياسية التي أدت الى زوال دولة وقيام أخرى • ذلك ان تورنشاه كره المماليك البحرية لامر لم تشرحه المراجع شرحا وافيا ما عدا ان تورانشاه كان فتى عنيف الاهواء، ورث عن أبيه الكآبة والكبرياء مما نفر منه أمراء المماليك ، وأنه ارتاب في المماليك البحرية الصالحية ، وتوجس خيفة من نفوذهم ، فأعرض عنهم ،

---

(١) قال الشاعر المعاصر جمال الدين يحيى بن مطروح محـذرا الفرنسيين بعد هذا الفشل :

وقل لهم ان أضمروا عـودة — لاخذ ثأر أو لقصـد صحيح
دار بن لقمـان على حالهـا — والقيد باق والطواشي صبيح

انظر (ديوان ابن مطروح ص ١٨١ ــ ١٨٢ هذا ولا تزال دار ابن لقمان معروفة بالمنصورة بجوار جامع الشيخ الموافى •

وقرب اليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق ، وأحلهم محل البحرية الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده • فكان اذا سكر بالليل : جمع أمامه الشموع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع ويقول : « هكذا أفعل بالبحرية » ويسمى كل واحد منهم باسمه • ولذا نقموا عليه وأضمروا له السوء [1] •

ثم وعد تورانشاه الاتابك أقطاى بولاية الاسكندرية [2] ، ولكنه لم يف بالوعد ، بل قيل انه عزم على ارساله بشيرا بالنصر الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأنه أراد بذلك ان يقبض عليه بدر الدين ويعتقله في بعض القلاع [3] ، فتنكر أقطاى لتورانشاه، وصار يتربص به الدوائر، وقيل كذلك ان السلطان أراد ان يرسل جماعة من المماليك بأخبار النصر الى ملوك البلاد المجاورة ليبعدهم عن القاهرة ، ففطنت المماليك إلى حيلته، وعلموا انه يريد التخلص منهم [4] •

ولم يقتصر تورانشاه على مناوأة أمراء جيشه وكبار رجال دولته ، بل تنكر لشجر الدر التي يدين لها بعرشه ، فبعث اليها يتهددها ويطالبها بمال أبيه ، فكانت تجيبه بأن الاموال صرفت كلها في شئون الحرب وشئون البلاد العامة • ويقال انها داخلها منه خوف شديد فمضت الى القدس [5] حينا من الزمن مخافة غدره ، كما كتبت الى البحرية تشكو لهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التى أدتها له وقت غيابه عن مصر •

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٧٠

(٢) انظر «Davis : Invasion of Egypt by Louis IX, p. 60»

(٣)،(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧٠ ــ ٣٧١

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٧١

وكان المماليك البحرية الصالحية يخلصون لشجر الدر لانها من حريم استاذهم الذي اشتراهم ، وبحكم الزمالة التي تربطها واياهم وهي المعبر عنها في المراجع المعاصرة بلفظ الخشداشية ، وهى من أقوى الروابط التى كان لها أثر في تطورات التاريخ المملوكي [1] .

كل هذه الامور جعلت المماليك يحنقون على السلطان تورانشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه قبل ان يبطش بهم . وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من الامراء ، منهم فارس الدين اقطاى وبيبرس البندقدارى . وفيصباح يوم الاثنين الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠ م (٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ)، بعد فراغ تورانشاه من طعام افطاره في خيمته بفارسكور ، تقدم اليه بيبرس البندقدارى وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه . والتجأ تورانشاه الى البرج الخشبى الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته اثناء اقامته بفارسكور ، واحتمى بأعلاه ، وأغلق على نفسه الباب ، فتبعه بيبرس وأقطاى وغيرهما من زعماء البحرية ، وقالوا : « بعد جرح الحية لا ينبغى الا قتلها [2] » ، وأحاطوا بالبرج ، وأضرموا النار فيه ، فنزل منه تورانشاه وهو يصيح مستنجدا : « خذوا ملككم ودعونى أعود الى حصن كيفا » ، فلم يغثه أحد ، فأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح الى احدى سفنه الراسية ليعتصم بها ، ولكن سرعان ما لحق به أقطاى فقتله [3] .

---

(١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٠

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧١ ، عبدالله ايبك : كنز الدر جـ٨ قسم ١ ورقة ٢٢ ، ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ١٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٨٨ .

ومما يدعو الى الالتفات هنا أن مقتل تورانشاه وقع أمام رجال الجيش دون أن يحرك منهم أحد ساكنا لانقاذه ، مما يدل على امتلاك المماليك زمام الموقف • وكان ابو عز الدين رسول الخليفة العباس موجودا في المعسكر فعارض في مقتل السلطان ، ويقال ان تورانشاه أخذ يستغيث به من أعلا البرج ويقول : « يا أبا عزالدين ادركنى ! » وتكرر ذلك ، فركب أبو عزالدين في أمره وكلمهم فيه ، فقبض عليه المماليك البحرية وهددوه بالقتل اذا تدخل في الامر • ويروى أبو شامة أن المماليك هددوه باخراق حرمة الخلافة (١) ، ولا ندرى ماذا يعنى أبو شامة من وراء هذه العبارة ، ولعله يعنى اخراج مصر عن دائرة النفوذ الدينى لخليفة بغداد ، والدعاء لخلافة اخرى غير الخلافة العباسية كخلافة الموحدين مثلا في المغرب •

ثم انتشلت جثة السلطان من النيل ، وتركت على شاطئه ثلاثة أيام حتى تقرر دفنها في مكانها (٢) • وبموت تورانشاه ينتهى عصر دولة الايوبيين في مصر •

---

(١) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٨٥

(٢) يروى ابو شامة نقلا عن كلام والى القاهرة ، انه بعد مقتل السلطان تورانشاه رمى في جرف على حافة البحر (النيل) . وردم عليه التراب ، فبقى هناك ثلاثة أيام ، ثم كشفه الماء فنقل من ثم الى الجانب الآخر من النيل ، وكانت طريقة نقله عجيبة حقا اذ انه جر في الماء بصنارة ، وكان الجار له راكبا في مركب والصنارة بيده كأنه حوت الى أن وصل الى الشاطىء الآخر فدفنه هناك .

(الذيل على الروضتين ص ١٨٥)



الباب الثالث

انتقال السلطنة الى المماليك البحرية الصالحية

الوضع السياسي في مصر بعد مقتل تورانشاه ـ اقامة شجر الدر في السلطنة ـ تعيين أيبك في منصب الاتابكية ـ مفاوضات شجر الدر ولويس التاسع ـ جلاء الملك لويس التاسع عن دمياط الى ـ عدم الرضاء على السلطانة الجديدة ـ تزويجها من الاتابك أيبك وتنازلها عن السلطنة لزوجها ـ عدم اعتراف الايوبيين بالموقف الجديد ـ الناصر يوسف الايوبى ملك حلب يستولى على دمشق ويزحف نحو مصر ـ جهود أيبك في هدم المقاومة الايوبية ـ واقعه الصالحية وانتصار المماليك ـ تحالف أيبك مع لويس التاسع ـ ظهور الخطر المغولى في الشرق وسفارة البادرانى الى أيبك والناصر ـ ثورة العرب بقيادة حصن الدين بن ثعلب على السلطنة الجديدة ـ تغلب أيبك على الثورة بفضل أقطاى ـ ازدياد نفوذ اقطاى وتطلعه الى السلطنة ـ تأسيس المماليك المعزية وظهور قطز ـ اخراج البحرية من قلعة الروضة ـ عزل السلطان الايوبى الطفل وانفراد أيبك بالسلطنة ـ تخلص أيبك من أقطاى بقتله ـ هرب البحرية الى الشام ـ مفاوضات أيبك مع بدر الدين لؤلؤ وتقريره الزواج من ابنته ـ غيرة شجر الدر ـ اغتيال أيبك ـ ثور المماليك المعزية على شجر الدر ـ مقتل شجر الدر ـ اقامة على بن أيبك في السلطنة ـ اقتراب الخطر المغولي .

الباب الثالث

انتقال السلطنة الى المماليك البحرية الصالحية

يروى جوانفيل قصة غريبة خلاصتها ان أمراء المماليك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه ، اقترحوا في مجلس المشورة ان يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر ، وأنه لولا علمهم بتعصبه للديانة المسيحية وخوفهم من اجباره لهم على اعتناقها ، لنفذوا هذا الاقتراح ولوجدوا قبولا من الملك نفسه [١] . ومن الواضح ان هذه القصة مختلقة من أساسها ، ولعلها مستوحاة من الاضطراب الذي حل بالمعسكر الاسلامى ، وحيرة أمراء المماليك فيمن عساه يكون سلطانا بعد أن قتل تورانشاه في سرعة مفاجئة. وكان من الطبيعي ان يطمع كل أمير منهم في سلطنة مصر . ثم هناك أيضا ملوك الايوبيين بالشام وعلى رأسهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين الايوبى ، وقد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٧ م (٦٣٤ هـ) . اذ أضحى من الصعب على أولئك الملوك الايوبيين ان يقبلوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد قتلهم سلطانها الشرعى ، ومن الطبيعي ان يرى كل منهم في نفسه الشرعية الكافية لان يلى السلطنة فيها بعد تورانشاه .

وكيفما كان الامر فيبدوا ان المماليك قرروا حل العقدة التي نجمت

(١) انظر (Joinville : History of St. Louis, tr. by Evans, p. 109)

عن شغور العرش المصري في فجأة باقامة شجر الدر أم خليل بن الصالح أيوب في السلطنة ، مبالغة منهم في احترام الاسرة المالكة الذاهبة ، وحرصا على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها • ثم عرضوا الاتابكية او نيابة السلطنة على عدد من الامراء (١) ، ولم يرد اسم الاتابك السابق فارس الدين أقطاى من بين أسماء المرشحين ، ولعل مرجع ذلك انه اصبح من المغضوب عليهم ، او أن المماليك خشوا قوته وشوكته واستئثاره بأمور السلطنة اذا قام في الاتابكية الى جانب شجر الدر • وانجلى الموقف بتعيين أيبك التركمانى (٢) أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الاتابكية ، وادى ذلك بطبيعة الحال الى عداء بين أقطاي وأيبك سوف تظهر نتيجته فيما بعد•

وأخذت البيعة للسلطانة الجديدة في مايو سنة ١٢٥٠ م (١٠ صفر سنة ٦٤٨ هـ) باعتبارها أم ولد هو خليل شجرشاه (٣) الذي توفي في حياة أبيه • وحرصت شجر الدر على اظهار ذلك في علامتها على الامور والمراسيم ، فكتبت « والدة خليل » ، وجعلت صيغة الدعاء على المنابر : « احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل ، المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » • كذلك نقش اسمها على

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧٣

(٢) لفظ أيبك يتركب من كلمتين تركيتين هما آي ومعناها القمر ، وبك ومعناها الامير . فمعنى الاسم « الامير القمر » (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٩) وايبك كان في الاصل مملوكا لاولاد التركمانى وهم بنو رسول الذين استقلوا باليمن ، ولهذا عرف بأيبك التركماني ثم انتقل الى خدمة الملك الصالح أيوب . وبنو رسول غسانية اتوا من بلاد التركمان الى بغداد في خلافة المستنجد (ت ٥٦٦ هـ) فنسبهم من يعرفهم الى غسان، ونسبهم من لا يعرفهم الى التركمان . راجع (الخزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية جـ١ ص ٢٧ ــ ٢٨)

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٩٦

السكة بالعبارة الآتية : « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والـدة خليل أمير المؤمنين » [1] •

ويروى المؤرخ الانجليزي لين بول في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى أن كلمة المستعصمية السالفة الذكر ، تدل على أن شجر الدر بدأت جارية للخليفة العباسي المستعصم (١٢٤٢ ــ ١٢٥٨ م) قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب [2] • غير أن صمت المراجع العربية من هذه المسألـة يحمل على الاعتقاد ان شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة في سكتها وخطبتها ترضية للخليفة العباسي كي يعترف بشرعية حكمها • وثمة مسألة أخرى تدعو الى الانتباه في هذا الصدد ، وهي أنه كانت توجد بالعراق جارية تركية أخرى تسمى شجرة الدر ، كانت جارية للخليفة العباسي الناصر لدين الله (١١٨٠ ــ ١٢٢٥ م) ، مقربة اليه ، وكانت تكتب خطا جيدا وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تغير نظره ، ويملى عليها الاجوبة ، وتوفيت سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ، ودفنت في تربة الخلاطية [3] ببغداد • فلعل المؤرخ لين بول قد التبس عليه الامر بين شجر الدر المصرية وشجرة الدر العراقية•

ومهما يكن من شيء فقد قبضت شجر الدر على زمام الامور في مصر بيد من حديد ، ولم يكن ابن اياس مغاليا حين وصفها بأنها امرأة صعبة

---

(١) توجد بالمتحف البريطاني عملة ذهبية ضربت في القاهرة على عهد شجر الدر بتاريخ ٦٤٨ هـ ، وهذه القطعة تحمل القاب الملكة التي ذكرناها. انظر (Lame poole : Op. cit. p 225) راجع كذلك (المقريزي: السلوك جـ١ ص٣٦٢ ،ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٧٤)

(٢) انظر
(Lanc poole : History of Egypt in the middle ages p. 255)

(٣) راجع (ابن الفوطى : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص ٩٧)

الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة ، سكرانة من خمرة التية والعجب » [١] . وحق لها أن تكون ذلـك كله فهى صاحبة الفضل في اخفاق حملة صليبية كبيرة على مصر ، وهى قد أتت الى العرش اعترافا من المعاصرين بذلك الفضل . واذا استثنينا رضيـة الدين سلطانة دلهى (١٢٣٦ — ١٢٤٠ م) [٢] ، تعتبر شجر الدر اول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة اسلامية . والواقع ان ابن اياس اعتبرها جزءا من الدولة الايوبية [٣] ، ولكن مما لا شك فيه ان الدولة الايوبية انتهت بمقتل تورانشاه ولو كان هناك أي رغبة في الابقاء على الايوبيين ، لما تعسر على المماليك أن يجدوا من رجال البيت الايوبى بالشام من يصلح للقيام بالسلطنة في القاهرة .

وأول عمل اهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج ، وانهاء المفاوضات التي بدأت معهم على عهد تورانشاه لترحيلهم عن البـلاد المصرية . فلم يلبث المفاوض المصري وهو الامير حسام الدين ابو على الهذباني [٤] ، ان اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط ، واخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الاسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة الف دينار يدفع نصفها قبل رحيله ، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا . وقامت ملكة فرنسا مرجريت دي بروفانس Margret de Provence التي رافقت زوجها في تلك الحملة ، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديـار

(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٨٩
(٢) راجع ما قلناه عن هذه السلطانة في الباب الاول .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٨٩
(٤) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٦٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٧٤

المصرية ، بجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية • ثم أبحرت الى عكا ومعها ابنها الذي ولدته في دمياط وأسمته جان تريستان اي وليد الاحزان [1] • ويروى جوانفيل ان مدينة دمياط سلمت للمصريين في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ وان بعض المماليك قاموا بأعمال السلب والنهب في معسكر الفرنج مما حمل لويس التاسع على أن يرسل راهبا اسمه راؤول الى الامير أقطاى يحتج لديه عما ارتكبه المماليك من فظائع ، وان أقطاى أجابه قائلا « أيها الاخ راؤول ، قل للملك انني لا يمكنني اصلاح ما فسد ، وان قلبى لمفعم بالأسى ، وحذره بالنيابة عن نفس بألا يبدى أي تذمر عما يجيش في نفسه ما دام في أيدينا والا كان مصيره الموت »[2]• وهذه العبارة تدل على أن أقطاى لم يكن راضيا عما تطور اليه الموقف من سلطنة شجر الدر وأتابكية أيبك ، ثم انه لم يكن مبالغا فيما قال ، لان حزبا من الامراء وعلى رأسه الامير حسام الدين ابو على الهذبانى ، رأي منذ البداية ان من المصلحة للمسلمين أن تحتفظ مصر بالملك لويس وألا تطلق سراحه نظرا لاطلاعه على عورات المسلمين ، ولمركزه الديني العظيم في النصرانية ، ولان دمياط قد صارت فعلا في ايدى المسلمين • ولكن شجر الدر وبعض قادة الجيش اقنعوا ذلك الحزب المعارض بضرورة احترام العهد الذي أخذوه على انفسهم [3] •

ثم ابحر لويس التاسع وأتباعه الى عكا في ٧ مايو سنة ١٢٥٠ م (صفر سنة ٦٤٨ هـ) ، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التي اقترنت حوادثها بنهاية الدولة الايوبية وقيام دولة المماليك الاولى في مصر •

---

(١) انظر (King : The knights Hospitallers P. 284 .)

(٢) راجع (Joinville : Op. cit. P. 110 - 120 .)

(٣) ابو المحاسن : نفس المرجع جـ٦ ص ٣٦٨

أخذت شجر الدر تتقرب الى الخاصة والعامة ، وتعمل على ارضائهم بشتى الوسائل ، ولا سيما المماليك البحرية الذين أغدقت عليهم الاموال الطائلة والاقطاعات الواسعة والرتب العالية (١) . ولكن على الرغم من ذلك ، فان المصريين عموما انفوا من قيام امرأة في السلطنة ، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة في القاهرة حتى اضطرت الحكومة الى غلق ابواب المدينة منعا لتسرب أنباء الاضطرابات الى بقية البلاد (٢) . ويبدو أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة بدليل ما رواه السيوطى من أن الشيخ عزالدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم دينى في ذلك الوقت كتب كتابا حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة (٣) .

واتنهز الملك الناصر يوسف صاحب حلب وحفيد صلاح الدين ،

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٨٩

(٢) عبدالله بن أيبك : كنز الدرر ، القسم الاول من الجزء الثامن لوحة ١٢

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ص ٣٤ . والشيخ عزالدين بن عبد السلام الشافعي ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق على ائمة عصره مثل ابن عساكر ، وولى الخطابة والامامة بالجامع الاموي بدمشق ، وتتلمذ له أبو شامة وظل بدمشق الى أن استعان صاحبها الملك الصالح اسماعيل بالفرنج فأنكر عليه الشيخ عزالدين هذا الفعل وتوجه الى مصر سنة ٦٣٩ هـ فتلقاه سلطانها الملك الصالح ايوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص . ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين القصرين بالقاهرة ، فوض اليه تدريس المذهب الشافعي بها ، وظل متمتعا بالمنزلة الرفيعة حتى وفاته بمصر سنة ٦٦٠ هـ وقيل انه لما مرت جنازته تحت القلعة وشاهد السلطان الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : « اليوم استقر أمرى في الملك لان هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك منى . راجع (تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ٥ ص ٨٠ – ١٠٧ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٢٢٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ص ٣٤)

هذه الفرصة السانحة وزحف بجيوشه نحو دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها من المدن الشامية بدون حرب ثم واصل زحفه جنوبا نحو مصر •

وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من منافسة الايوبيين فكتبوا الى الخليفة العباسى المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجر الدر ، وكان غرضهم من وراء ذلك تدعيم سلطانهم بسياج من التأييد الشرعى • غير ان الخليفة عاب عليهم اقامة امرأة في السلطنة ، وكتب اليهم قائلا : « ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » (١) • ولما وصل خطاب المستعصم الى القاهرة ، اقتنع امراء المماليك بخطأ تصرفهم وقالوا « لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة ، ولا بد من اقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه » (٢) • فأشاروا على شجر الدر بان تتزوج الاتابك أيبك التركمانى ، وتتنازل له عن العرش ، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة في يوليو سنة ١٢٥٠ م بعد أن حكمت ثمانين يوما •

والواقع ان سلطنة شجر الدر على مصر كان وليدة للظروف التي احاطت بمصر في ذلك الوقت ، وتنيجة لموافقة جماعة من زملائها أو خشداشيتها المماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب او رجال الدين او الخلافة العباسية ، هذا فضلا عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا تستسيغها التقاليد الاسلامية •

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني « الملك المعز » • ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سنا ، أو أقدمهم خدمة ، أو أقواهم مكانة ونفوذا ، اذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاى والظاهر بيبرس • وهذه الحالة

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٧٦ •

الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثـل أبي المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة ، وأن الامراء لم ينتخبوه الا لكي يتمكنوا من عزلـه متى شاءوا [1] . كذلك يذهب المستشرق بلوشيه Blochet الى ان أيبك ظل يحكم رغم اعتزال شجر الدر ، بصفة زوج الملكة مع أنه صار سلطانا يحكم عـن نفسه [2] . غير ان الحوادث دلت على أن أيبك رجل ممتاز بصفـات السياسة والحزم والشجاعة ، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين . ويبدو ان أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة ، اذ أنـه عـاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر : « المنهل الصافي » ، فمدح أيبك فيه ، ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة ، وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق [3] .

واذا تناولنا المشاكل والصعاب التي واجهت السلطان أيبك ، نجد أنها تتمثل في تهديدات الايوبيين والصليبيين في الخارج ، وفي ثورات الاعراب في الداخل ، ثم في خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها .

١ ـ الخطر الايوبي والصليبي :

كان الخطر الايوبي ممثلا في الشام وفي الامراء الايوبيين هنـاك وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق . وحاول أيبك

---

(١) ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٤

(٢) (Blochet : Moufazzal Ibn abil Fazail : Histoire des Sultans Mamelauks, vol. I P. 374) .

(٣) ابو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافى جـ١ لوحة ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية)

هدم هذه المعارضة الايوبية باقامة أمير من ذرية بنى أيوب الى جانبه ، واستقر الرأي على تولية المدعو الاشرف موسى [١] ، وهو طفل في نحو السادسة ، ليكون شريكا لايبك في السلطنة ، فصار يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها ، وضربت لهما السكة على الدنانير والدراهم [٢] . غير أن هذه الحيلة لم تدخل على الايوبيين لانهم يعلمون تماما ان الاشرف موسى لم يكن له غير الاسم ، على حين كانت الامور جميعها بيد أيبك[٣]. عندئذ أعلن أيبك ان البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها ، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها [٤] . وبهذه الحيلة الثانية حاول أيبك هدم المقاومة الايوبية ، غير أنه لم يكتف بذلك علما منه أن الناصر يوسف لن يرجع عن عزمه في سهولة ، فأخذ يستعد لمحاربته .

أما الملك الناصر يوسف ، فانه رأى لكى يضمن النجاح لحملته على مصر ، ان يضم الى جانبه الملك لويس التاسع المقيم في عكا ، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذي كان تحت امرة الايوبيين في ذلك الوقت .

---

(١) هو الاشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل ، وكان جده المسعود صاحب اليمن المعروف بأقسيس المتوفي سنة ١٢٢٨ م ، وعاش ابوه في كنف الصالح ايوب حتى توفي عن هذا الطفل الصغير موسى. (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٦٩)

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٩٠ ، المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٢٣٧

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٦٩

(٤) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ١٩٢ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٧٠

وعلم أيبك بأنباء هذه المفاوضات ، فأرسل الى الملك لويس تهديدا بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر ان قام بأي عمل عدائي ضده • وفي الوقت نفسه أبدى له استعداده لتعديل معاهدة دمياط ، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة ، ان تحالف معه ضد الناصر يوسف • غير ان الملك لويس التاسع فضل ان يقف بين الفريقين موقف الحياد ، وان يستغل نزاعهما لصالحه •

ولما يئس الناصر يوسف من مساعدة لويس التاسع ، زحف بجيوشه نحو مصر ، وسارع أيبك للقائه ، ولكنه خشي في الوقت نفسه انيقوم الصليبيون بهجوم مفاجىء على مصر ، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم المفضل ، فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ (اواخر سنة ١٢٥٠ م) حتى خربت كلها ولم يبق منها سوى الجامع وأخصاص من القش على شاطىء النيل يسكنها جماعة من الصيادين وضعفاء الناس وسموها المنشية (١) •

ثم التقى المماليك بالايوبيين في معركة عامة عند بلدة العباسة بين مدينتى بلبيس والصالحية ، في ٣ فبراير سنة ١٢٥١ م ، انتصر فيها الملك الناصر اول الامر ، ولكن فرقة من مماليكه ، وهم العزيزية (٢) ، خذلوه وانضموا الى المماليك البحرية لعلة الجنسية على قول المراجع المعاصرة (٣)،

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٧٢ • واستمرت دمياط على هذا الحال حتى عمرها السلطان بيبرس البندقدارى من جديد سنة ١٢٧١ م (٦٦٩ هـ) راجع (ابن اياس : المرجع جـ١ ص ٨٧، ١١١)

(٢) العزيزية نسبة الى العزيز محمد والد الناصر يوسف، وقد انتقلوا الى خدمته بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦ م •

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٨٢ – ٣٨٣ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٧٣ – ٣٧٥ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٨

ففر الناصر ومن معه من أبناء البيت الايوبى الى الشام منهزمين ، بعد ان فقدوا عددا كبيرا من القتلى والاسرى • وقرر أيبك ان يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومـة الايوبية • ولكى يضمن النجـاح لمشروعه ، حاول أن يضم لويس التاسع الى جانبه ، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف • وفضل لويس التاسع ، بعد ان رأى انتصار الجانب المصري ان يستجيب لعروض أيبك ويترك سياسة الحياد •

وفي اوائل مايو سنة ١٢٥٢ م اتفق أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من الشام • وكانت الخطة المتفق عليها هى أن يستولى لويس التاسع على يافا ، بينما يحتل أيبك غزة ، ومـن هناك يتم الاتصال بين الجيشين في منتصف مايو سنة ١٢٥٢ م للقيـام بهجوم عام مشترك على ولايات الايوبيين [١]• وتنفيذا لهذه الخطة، احتل الملك لويس مدينة يافا دون مقاومة ، بينما تقدم المماليك بقيادة أقطاى نحو غزة ، غير أن الملك الناصر يوسف ، الذي علم بأخبار هـذا التحالف ، سبقهم الى احتلالها بقوة حربية كبيرة ، فاستطاع بهذا العمل الجريء ان يحول دون اتصال المماليك بحلفائهم الصليبيين ، ويفسد عليهم خطتهم المشتركة •

واستمرت جيوش المماليك في الصالحية ، وجيوش الايوبيين في غزة، كل منهما تتحفز بالاخرى ، الى أن أنقذ الموقف أخيرا الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط لـدى الفريقين ، وتمكن رسوله نجـم الدين البادرانى [١] من عقد صلح بينهما في ابريل سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) على

---

(١) راجع (King : The knights Hospitallers P. 250-251)

(١) البادراني نسبة الى قرية بادران بأصبهان .

ان يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت القدس ، بينما تظل البلاد الشامية في يد أصحابها من أبناء البيت الايوبي [1] • وهكذا فشل لويس التاسع في تحقيق آماله بامتلاك بيت المقدس ، ولم يستطع بعد ذلك البقاء في الشام خصوصا بعد وفاة والدته الملكة بلانش Blanche (القشتالية) التي كانت تحكم فرنسا في غيابه كوصية على العرش ، فاضطر لويس التاسع الى الرجوع الى بلاده سنة ١٢٥٤ م •

على أنه ينبغى أن نلاحظ هنا أن تدخل الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، لم يكن هدفه ايقاف التغلغل الصليبي في شئون الشرق العربى فحسب ، بل كان غرضه أيضا توحيد الجهود لتكوين جبهة اسلامية أمام خطر جديد أشد من الخطر الصليبي ، وهو الخطر المغولى الذي كانت جحافله قد اجتاحت الحدود الاسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقضت على الدولة الخوارزمية التي كانت بمثابة الترس المانع الحامى لجميع الدول الاسلامية في غرب آسيا والشرق الادنى من هجمات المغول وغيرهم من الاسيويين • وهكذا انتهت العقبة الاولى في تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهي النزاع بين المماليك وملوك البيت الايوبي •

٢ ـ ثورة الاعراب ضد حكم المماليك :

العقبة الثانية التي اعترضت السلطان أيبك ، هى الثورة الشعبية التي قام بها الاعراب او العربان في مصر وذلك في سنة ١٢٥٣ م •

من المعروف ان القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح العربي ، أخذت تتحول تدريجيا الى شعب زراعى مستقر ولا سيما في اقاليم الصعيد والشرقية ، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة • وكان هؤلاء

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٠

الاعراب يقومون بفلاحة الارض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من اهالى البلاد • غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الاعراب كانــوا يتمتعون بمركز اجتماعى أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما ابــان الحروب الصليبية • وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والارياف ، كذلك كانت مساهمتهم في الانتاج الزراعى ودفع الخراج كبيرة نسبيا •

وكان تعسف امراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعيــة واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحيانا ، من الاسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب الى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكى • وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم « فساد العربان » ، وكانت تنتهى في العادة بهزيمة العرب نظرا لبراعة المماليك في فنون القتال •

واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوى على القسوة والقهر مثل : التوسيط ، والتسمير ، والمعاصر ، ونشر الاجسام ، وسلخ الجلود ، ودفن الاحياء ، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم ، الى غير ذلك من وسائل القتل والتعذيب المعروفة في العصور الوسطى شرقا وغربا (١) •

وقد أدت هذه السياسية الى هجرة عدد كبير من المزارعين الى المدن الكبرى بغية التسول او السرقة او الاشتراك في المنازعات والاضطرابات

(١) راجع (Poliak : Les Revoltes Populaires en Egypte a l' epoque de mamelouks et leurs causes economiques. Revue des Etudes Islamiques 1934, Cahier III P. 251—273).

الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك . وهؤلاء كانوا يسمون بالجرافيش وبالزعر او زعر العامة ويبدو أن هذه الالفاظ كانت مشرقية بحته بدليل قول المؤرخ الاندلسي لسان الدين ابن الخطيب في سب أحد ملوك غرناطة: « وكان حرفوشا على عرف المشارقة » (١) .

على انه يلاحظ كذلك ان هذه الثورات العربية ، الى جانب دوافعها الاقتصادية ، كانت لها أيضا أهداف سياسية وهى الغاء حكم المماليك واعادته الى العرب الاحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد .

ويبدو أن هذا الهدف السياسي هو الذي أثار مخاوف المماليك ودفعهم الى اتباع سياسة العنف والقسوة في قمع تلك الثورات خوفا على سلطانهم . وأول وأخطر ثورة قام بها الاعراب أيام المماليك ، هى الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركمانى سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) . وأسباب هذه الثورة ترجع الى عوامل سياسية واقتصادية كما أسلفنا . فالمماليك منذ ان انتصروا على الايوبيين في وقعة العباسة وتدخلت الخلافة في صالحهم ، اعتقدوا ان البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع ، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب ، الى درجة ان بعض المؤرخين أمثال المقريزي وابى المحاسن ، فضلوا عليهم الصليبيين ، وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم (٢) .

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ص ٢٠ ، نشر احمد مختار العبادى .

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٨٠ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٩

فقط بل صارت حركة شعبية عامة بدليل قول ابى المحاسن « ان أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا الى ان مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى في وجهه اذا ركب ومر بالطرقات ، ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة » (١) .

وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوى وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة ، وصرح بأن ملك مصر يجب ان يكون للعرب وليس للعبيد الارقاء (٢) . وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى وفي منطقة الشرقية بالوجه البحرى . وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحى الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام او ذروة الشريف (نسبة اليه) وتقع بين النيل وترعة المنهى التى هى الآن بحر يوسف (٣) .

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الايوبى صاحب الشام ، يطلب مساعدته في محاربة أيبك (٤) ، ولكن الناصر يوسف لم يكن في وسعه محاربة أيبك في ذلك الوقت ، اذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما .

وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال بفضل مشاركتهم في حروب الصليبيين ، فكونوا جيشا كبيرا والتفوا حول زعيمهم حصن الدين وحلفوا له . واضطر السلطان أيبك أن يرسل حملة تأديبية

---

(١) ابو المحاسن : المرجع السابق جـ٧ ص ١٣

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ٦٨ ، المقريزي : البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب ص ٢٤ – ٢٥ .

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٨

(٤) المقريزي : البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب ص ٤٤ ، السلوك جـ١ ص ٣٨٦

للقضاء على هذه الثورة ، ومن عجب ان يسند قيادتها الى منافسه أقطاى ، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية .

وخرج أقطاى من القاهرة بخمسة الاف فارس من خيرة المماليك ، وتوجه الى الشرقية حيث كانت اكبر مظاهر العصيان . وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس الى العرب ، تغلب المماليك بفضل تفوقهم الحربى ومهارة قائدهم اقطاى، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة ١٢٥٣[١]، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى ، حيث ظل حصن الدين طليقا ، وأقام حكومة مستقلة هناك . ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه الى ان خدعه السلطان بيبرس البندقدارى وقبض عليه بعد أن أمنه وشنقه بالاسكندرية [٢] . وكيفما كان الامر في نهاية الامير حصن الدين ، فالمهم هنا ان أيبك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر .

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٨٧

(٢) راجع (شهاب الدين العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٨) ويروى المقريزي (السلوك جـ١ ص ٣٨٨) رواية أخرى تختلف عن رواية العمرى يقول فيها ان الشريف حصن الدين طلب من ايبك الامان فأمنه ووعده باقطاعات له ولاصحابه فانخدع الشريف واتجه هو واصحابه الى القاهرة ، فشنق الجميع وبعث بالشريف الى الاسكندرية فحبس بها . وقد علق بولياك Poliak على هذه الرواية بقوله : ويظهر أن الرواية التي سردها المقريزي عن استئصال شأفة العرب في عهد ايبك لم تكن الا طمسا للحقيقة كانت غايته منها تمجيد الاتراك المماليك لان خطر العربان ظل باقيا حتى نهاية حكم المماليك .

راجع (Poliak : Les Revoltes Populaires en Egypte, R. E· I, 1934, Cahier III).

٣ ــ خطر زملائه المماليك :

أما العقبة الثالثة التي اعترضت حكم أيبك وهددت كيان الدولة الناشئة ، فهى خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاى. وكان أيبك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها ، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه ، فانشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة الى لقبه (الملك المعز) ، كما عين مملوكه قطز المعزى نائبا للسلطنة بمصر. ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة ، وعزل الملك الايوبى الطفل موسى شريكه الاسمى في الحكم ، وانفرد بالسلطنة[1].

على أن هذه الاجراءات كلها لم تكن الا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية ، فيجمع المؤرخون على أن أقطاى وصل الى قمة المجد خصوصا بعد تغلبه على ثورة العرب . وأصبح لا يظهر في مكان الا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج . وكانت نفسه ترى ان ملك مصر لا شيء عنده ، وكان كثيرا مـا يذكر الملك المعز في مجلسه ويستنقصه ولا يسميه الا أيبكا ، وقد بلغ ذلك المعز فكان يغضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية . وبعبارة أخرى أخذ أقطاى يرنو علانية نحو السلطنة ، كما أخذ خشداشيته (زملاؤه) يسعون في تحقيق بغيته ، فلقبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على تزويجه من احدى أميرات البيت الايوبى [2] ، وهى ابنة الملك المظفر تقى الدين محمود ملك حماة ، بل انهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٤

(٢) راجع (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١١ . ويعلـق عبدالله بن ايبك (كنز الدرر جـ٨ القسم الاول ، ورقة ٢٢) على زواج اقطاى قائلا : « وتعجب الناس كيف سمح صاحب حماة بمصاهرة مملوك »

لاقطاي [١] . ثم حدث ان طلب اقطاي من أيبك ان يأذن له في الاقامة مع عروسه بقلعة الجبل (المقطم) لكونها من بنات الملوك ، فلم يبق بعد ذلك لدى أيبك أي شك في نوايا أقطاى ، فصمم على قتله . وفي يوم الاربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) ، طلب أيبك الى أقطاى الحضور الى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الامور بعد أن اتفق مع مماليكه المعزية على اغتياله . وركب أقطاى الى القلعة في عدة من مماليكه ، فما كاد يدخل من باب القلعة المؤدى الى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى ، حتى اغلق خلفه ، ومنع مماليكه من اللحاق به ، ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الامير قطز المعزي وقتلوه بسيوفهم . واشيع خبر مقتله في القاهرة ، فهرع لانقاذه سبعمائة من خشداشيته ومنهم الامير بيبرس البندقدارى والامير قلاوون الالفى ، وفي ظنهم انه لم يقتل بعد وانما قبض عليه ، فلم يشعروا الا ورأس أقطاى قد رمى بها اليهم من سور القلعة [٢] . ولقد أفزع هذا الحادث كبار المماليك ، وخشوا ان تدور الدائرة عليهم ، فهرب من استطاع الهرب [٣] الى ملوك البيت الايوبي في الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، والمغيث عمر ملك الكرك ، كما التجأ مائة وثلاثين منهم الى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب قونية بآسيا الصغرى [٤] .

والواقع ان مقتل أقطاى قد شطر المماليك الى حزبين متناوئين وهما

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٨٦
(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٩٠ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٩١ .
(٣) يلاحظ أنه في اثناء فرار المماليك كانت ابواب القاهرة مغلقة ، فاضطروا الى حرق احد ابوابها الشرقية وهو باب القراطين فسمى بالباب المحروق منذ ذلك الوقت .
(٤) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٩٣

البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لاشدالاخطار ، اذ اخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الايوبي على غزو مصر ، ولم يخف ذلك على أيبك ، فعمد اولا الى مصادرة أموال المماليك البحرية، كما قبض على من بقي منهم في مصر ، وشتت شمل من والاهم من طوائف المماليك الاخرى [1] .

ثم كتب أيبك الى الملوك الذين لجأ اليهم البحرية ، وحذرهم منهم ومن غدرهم وشرهم ، فأجابه الناصر يوسف بأن طلب اليه اعادة البلاد التي اخذها من فلسطين وهى مدينة القدس وساحل فلسطين ، ليقيم فيها المماليك البحرية لانها من اقطاعاتهم ، وبذا يكون قد أرضاهم وأبعدهم عن مصر .

غير ان ايبك ظن ان في تلك الاجابة خدعة ، وان لناصر يزمع الزحف على مصر مرة اخرى بعد ان صارت البحرية في جانبه ، فرأى ان يستجيب الى طلبه ، واعاد البلاد المذكورة فعلا الى اصحابها [2] ، ولكنه تجهز للخروج بجيوشه الى الحدود المصرية ، وعسكر بالقرب من بلدة العباسة مدة ثلاث سنوات تقريبا ، ولم يعد الى القاهرة الا بعد ان تقرر الصلح بينه وبين الناصر سنة ١٢٥٦ م (٦٥٤ هـ) بوساطة رسول الخليفة المستعصم نجم الدين البادرانى ، على أن يكون لايبك الديار المصرية

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٩٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٢ ، ٣٤

(٢) المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ، ص ٣٩٣ ــ انظر كذلك
(Blochet : Moufazzal Ibn Abil—Fazail : Histoires des Sultans Mamlouks, vol. I, p. 374.
(مقدمة كتاب النهج السديد) .

وساحل الشام ، وعلى الا يأوى الملك الناصر عنده احدا من البحرية • واضطر المماليك البحرية عندما علموا بما تم ، الى الرحيل الى المغيث عمر ملك الكرك [١] وهو الايوبى الاخر الطامع في مصر • وكان بعض اخوانهم قد لجأوا منذ اول امرهم الى سلطان سلاجقة الروم فكتب اليه ايبك كتابا يقول فيه « البحرية قوم مناحيس اطراف [٢] ، لا يقفون عند الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو اكبر منهم ، وان استأمنتهم خانوا ، وان استحلفتهم كذبوا ، وان وثقت بهم غدروا ، فتحرز منهم على نفسك فانهم غدارون مكارون خوافون ، ولا آمن ان يمكروا عليك » • فخاف سلطان الروم منهم فاستدعاهم وقال : يا امراء ! ما لكم ولاستاذكم ؟ » ـ فتقدم الامير علم الدين سنجر الباشقردى وقال « يا مولانا ! من هو استاذنا ؟ » ـ قال « الملك المعز صاحب مصر » ، فقال الباشقردى « يحفظ الله مولانا السلطان ! ان كان الملك المعز قال في كتابه انه استاذنا فقد اخطأ ، انما هو خشداشنا ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو اكبر سنا وقدرا ، واحق بالمملكة ، ونحن التجأنا اليك » فاعجب السلطان بهم واستخدمهم عنده [٣] •

غير ايبك لم يخش شيئا من سلاجقة الروم لبعد المسافة بينه وبينهم، بل خاف ان يقوم المغيث عمر بمثل ما قام به الناصر من قبل فكتب الى الخليفة المستعصم يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والالوية اسوة بمن تقدمه من ملوك مصر [٤] ، وسعى في نفس الوقت في تعطيل خلعة الملك الناصر يوسف

---

(١) المقريزي ـ السلوك ، جـ١ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨ •
(٢) اطراف جمع طرف ، وهو الرجل الذي لا يثبت على صحبة احد • راجع (المقريزي ـ السلوك ، جـ١ ، ص ٣٩٣ حاشية) •
(٣) المقريزي ـ السلوك ، جـ١ ، ص ٣٩٣ •
(٤) المقريزي ـ السلوك ، جـ١ ، ص ٣٩٨ •

صاحب حلب ودمشق [1] ، رغم ما بينهما من حلف ، اذ خشى ان تتحرك اطماع الناصر من جديد بعد وصول الخلعة الخليفية اليه • ويظهر ان ايبك اخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات ، فعزم على الزواج من غيرها ، وارسل سنة ١٢٥٦ ميلادية الى بدر الدين لؤلؤ [2] الاتابكى صاحب الموصل يطلب اليه حلفا زواجيا لم يعلم عنه الا ما تداولته المراجع من خطبة ايبك [3] لابنة بدر الدين ، وليس من العقول ان تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج اذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل • وكيفما كان الامر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة

---

(١) ابو الفداء ــ المختصر في اخبار البشر ، جـ٣ ، ص ٢٠٠ •

(٢) هو لؤلؤ بن عبدالله النورى الملك الرحيم بدر الدين ابو الفضائل الارمنى الاتابكى صاحب الموصل كان في الاصل مملوكا لنور الدين ارسلان شاه زنكى ، وترقى عنده حتى صار استاداره والحاكم في دولته ، وبعد موت نور الدين سنة ٦٠٧ هـ استقر في الملك بعده ولده القاهر مسعود ، وقام بدر الدين بتدبير ملكه . وبعد موت القاهر ثم ولديه الصغيرين استقل بدر الدين بالملك سنة ٦٣١ هـ وسمى نفسه بالملك الرحيم واخذ يتقرب للخليفة الناصر لدين الله حتى بعث له الخلع والتقليد بالسلطنة . وقد رآه ابن واصل نفسه فوصفه قائلا ــ « ... ورايت من تجمله وعنايته بالرسل والواردين عليه ما لا رأيته عند ملك من الملوك » . ولم يزل بدر الدين مالكا للموصل وبلادها الى ان ملك التتر بغداد واستولوا على العراق والجزيرة سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) فتوجه بدر الدين الى هولاكو ملك التتر فاقره على ولايته ثم رجع الى الموصل فمات بها سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) ــ راجع ــ (ابن واصل ــ مفرج الكروب جـ١ ، ص ١٦٦ ــ ١٦٨ و ١٨٥ و ٢١٤ ، جـ٢ ص ٨٩ ٢و ٣٨٧)

راجع كذلك (Ency. of Ialam, Art. Loulou)

وكذلك (Lane-Poole : Muham. Dynas. p. 162-163)

(٣) المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠١ •

لعهد ايبك ، لان مضارة امرأة مثل شجر الدر ، وهى التي دلت على مهارة وقوة شخصية ايام الصليبيين، كان اسوأ من اللعب بالنار، ذلك انه لما علمت شجر الدر بما بيته لها اخذت هى تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، فقام بعض من بقى في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض ايبك على عدد كبير، منهم ايدكين الصالحي، وسيرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب ، فلما وصلوا الى قرب نافذة القصر السلطاني حيث سكنت شجر الدر ، احنى الامير ايدكين رأسه احتراما وقال بالتركية « والله ياخوند [١] ما عملنا ذنبا وجب مسكنا ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل ، ما هان علينا لاجلك ، فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم (الصالح ايوب) ، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين » • فأومأت اليه شجر الدر بمنديلها بما معناه « قد سمعت كلامك » • وعندما نزلوا بهم الى الجب ، قال ايدكين « ان كان قد حبسنا فقد قتلناه » [٢]• ومعنى هذا ان شجر الدر كانت قد بيتت هى الاخرى لايبك جزاءا وفاقا ، وان قبضه على اولئك لم يكن لمجرد معارضتهم في الزواج ، بل لانه علم بمؤامرتهم، فاراد ان يقضي على الحركة كلها بالفصل بين امراء المماليك وزعيمتهم • غير ان شجر الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان اذ ارسلت سرا احد المماليك العزيزية الى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها انها عزمت على قتل ايبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر ، ولكن الناصر اعرض عنها خوفا ان يكون في الامر خدعة ، ولم يجبها بشيء [٣] • وعلم بدر الدين لؤلؤ باخبار هذه المفاوضات السرية ، فبعث الى ايبك ينصحه ان يأخذ حذره [٤] ، وخاف ايبك على حياته فترك القلعة واقام بمناظر

---

(١) الخوند لفظ تركي او فارسي واصله خداوند بضم الخاء ومعناه السيد او الامير ويخاطب به الذكور او الاناث . انظر: (المقريزي ــ السلوك، جـ١ ، ص ٢٢٤ حاشية رقم ٢) •

(٢) المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ •

(٣) ، (٤) المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٢ •

اللوق ، وصمم على قتل زوجته قبل ان تقضي عليه ، ويقال في هذا الصدد ان منجما اخبر ايبك بانه سوف يموت قتيلا على يد امرأة [١] ، ولا شك ان المنجم كان عليما ببعض ما يجرى من وراء ستـــار ، اذ المعروف ان الزوجان اخذا يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة ، وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها ، اذ ارسلت شجر الدر الى ايبك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور اليها بالقلعة ، فاستجاب لدعوتها وصعد الى القصر السلطاني بالقلعة حيث اعدت له شجر الدر خمسة من الغلمان الاشداء لاغتياله، منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزي، وسنجر ، وكان آخرهم من مماليك اقطاى [٢] . وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في ابريل سنة ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) [٣] . وارادت شجر الدر ان تتفادى عواقب هذه الجريمة بان تولى السلطنة اميرا يقبض على زمام الموقف وتختفى خلفه في الحكم ، فعرضت السلطنة على جمال الدين بن ايدغدى العزيزي وعز الدين ايبك الحلبى ولكنهما لم يجسرا على ذلك وامتنعا [٤] . وفي اليوم التالى ذاع الخبر في المدينة فاسرع المماليك الى القلعة ، وقبضوا على الخدم والحريم ، وبتعذيبهم اعترفوا بحقيقة ما حدث . وعندئذ حاول المماليك المعزية قتل شجر الدر ، ولكن المماليك الصالحية حالوا بينهم وبينها وسعوا الى انقاذها باعتقالها في

---

(١) المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠١
(٢) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٧٦ .
(٣) هناك روايات عديدة مختلفة تصف الطريقة التي قتل بها السلطان ايبك وهي على كل حال روايات مثيرة تزيد من فظاعة الجريمة وقسوتها ــ راجع (ابو المحاسن ــ النجـــوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦) ، (ابن اياس ــ بدائع الزهور ، جـ١ ، ص ٩١ ــ ٩٢) ، و (المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٣) .
(٤) ابو المحاسن ــ نفس المرجع ، جـ٦ ، ص ٣٧٥ .

البرج الاحمر [١] بالقلعة ، فاحاط المماليك المعزية بالقلعة واخذوا يتحينون الفرص لقتلها [٢] ، وكان من المحتمل انقاذ شجر الدر من الموت في ذلك الوقت نظرا لحماية البحرية لها ، ولخدماتها الجليلة التى لم تنس بعد ، لولا انها جلبت على نفسها حقد امرأة المعز الاولى وأم ولده عليّ التى اخذت تتحرق شوقا للانتقام من شجر الدر التي منعت زوجها من زيارتها وارغمته على طلاقها ، فاخذت هى وابنها يلحان في تحريض المعزية [٣] على قتلها الى ان ضعفت معارضة الصالحية في النهاية وحملت شجر الدر اليها فامرت جواريها بقتلها ، وهنا يقول المقريزي ــ « فضربهـا الجواري بالقباقيب الى ان ماتت ، والقوها من سور القلعة الى الخندق ، وليس عليها سوى سروال وقميص ، فبقيت في الخندق اياما ، واخذ بعض اراذل العامة تكة سراويلها ، ثم دفنت بعد ايام وقد تنتت وحملت في قفة بتربتها قريب المشهد النفيسي » [٤] .

ولقد تعصب المماليك المعزية لابن سيدهم المدعو نور الدين على فاقاموه سلطانا في ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) ولقبوه بالملـك المنصور وكان عمره وقتئذ خمسة عشر سنة [٥] . واعترض المماليـك الصالحية على سلطنته ، واتفقوا على سلطنة اتابك العسكر الامير علم الدين سنجر الحلبى وحلفوا له [٦] ولكن سرعان ما قبض عليه المعزيـة

(١) كان بالقلعة عدة ابراج منها البرج الاحمر الذي بناه الملك الكامل ويعرف اليوم باسم برج المقطم في الجهـة الجنوبية من القلعة . راجـع (القلقشندى ــ صبح الاعشى ، جـ٣ ، ص ٣٧٣) ، (النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٧٧ حاشية) .

(٢) ابو المحاسن ــ النجو الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٧٧ ، المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ، ص ٤٠٣ .

(٣) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٨٨ .

(٤) المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ص ٤٠٤ .

(٥) ، (٦) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٧٦ .

وسجنوه في الجب بالقلعة . عندئذ اضطرب خشداشيته من الصالحية ، وخافوا ان تدور الدائرة عليهم ، فامعنوا في الهرب الى الشام ، وخرج المماليك المعزية في اثرهم ، وقبض على عدد كبير منهم[1] . واثار مسلك المعزية استياء بعض الطوائف المملوكية الاخرى مثل الاشرفية ، حتى اشيع انهم اتفقوا على ازالة نفوذ المعزية من الدولة ، فما كان من المعزية الا ان قبضوا على الاشرفية ونهبوا دورهم [2] ، ولجأت الطوائف المملوكية من بحرية وغير بحرية ، التي سئمت الوضع في القاهرة الى ملوك الايوبيين بالشام ولا سيما المغيث عمر صحب الكرك ، حيث اخذوا يحرضونه على اخذ مصر ملك آبائه واجداده حتى استجاب لدعوتهم ، وسعى بمعوتتهم في الاستيلاء على مصر ، وحاول ذلك مرتين ــ في سنة ١٢٥٧ م (ذي القعدة سنة ٦٥٥ هـ) [3] ، وفي سنة ١٢٥٨ م (ربيع الاول سنة ٦٥٦ هـ) [4] ، ولكنه رد في كلتيهما خائبا مهزوما بفضل شجاعة نائب السلطنة الامير سيف الدين قطز المعزي .

وهكذا ، بدت الدولة وسلطانها صبى وهى لم تزل في دور التكوين ، ولم تكن بحاجة الى ما يترتب على قيام الصغار من منافسات ومؤامرات داخلية ، فضلا عما خفى وقتذاك من عوامل الخطر الخارجى مما كان ادهى واعظم ، وهو الخطر المغولى .

---

(١) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٤٢ .

(٢) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٤٣ .

(٣) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٤٤ ، المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ، ص ٣٠٦ .

(٤) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٤٥ ، المقريزي ــ السلوك ، جـ١ ، ص ٤١١ .



الباب الرابع

خطر المغول على قيام الدولة المملوكية الاولى في مصر

احوال الدولة الاسلامية قبيل الغزو المغولى في القرن الثالث عشر الميلادي ــ التنظيم الحربى المغولي واثره في انتصارات المغول ــ سقوط بغداد في ايدي المغول ونتائجه ــ استغلال هولاكو للعداء القائم بين السنة والشيعة ــ الغزو المغولى للشام وموقف الامراء الايوبيين ــ انضمام موسى صاحب حمص الى المغول ــ تردد الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بين القوتين المملوكية والمغولية ــ استيلاء المغول على حلب ودمشق ــ رجوع هولاكو الى فارس لوفاة اخيه الخان الاعظم منجوقان ــ انتقال قيادة الجيش المغولى في الشام الى كتبغانوين ــ هرب الناصر يوسف الى جنوب فلسطين ــ وقوعه في ايدى المغول ــ اعترافه بسلطان المغول على الشام ومصر ــ رجوع المماليك المنتشرين في الشام وآسيا الصغرى وتكتلهم للدفاع عن مصر ــ تهديد هولاكو للمماليك وسلطانهم قطز ــ عزم قطز على القتال ــ اعدام رسل المغول واعلان الجهاد العام ــ جهود قطز في حشد الجيوش وجمع الاموال وتقوية الروح المعنوية المنهارة ــ خروج قطز بالجيوش المصرية والشامية ــ زحف بيبرس البندقدارى بالطلائع المصرية ــ انتصار بيبرس عند غزة ــ تقدم قطز بحذاء الساحل لمعرفة نيات الفرنج ــ سوء حالة الفرنج في الشرق بسبب الحروب الاهلية ــ التزامهم الحيدة التامة ــ الرواية العربية وحياد الفرنج ــ تقدم قطز نحو المغول ــ موافاته لبيبرس عند عين جالوت ــ واقعة عين جالوت ــ رواية الضابط صارم الدين ازبك الاشرفي ــ فضل قطز في هزيمة التتار ــ نتائج واقعة عين

جالوت ـ استيلاء قطز على الشام ـ اعادته بعض ملوك الايوبيين الـى ممالكهم الصغيرة ـ منحه كبار المماليك البحريـة الصالحية والمعزيـة والعزيزية اقطاعات جليلة بالشام ـ رفضه طلب بيبرس نيابة حلب ـ تفويض حلب الى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ ـ غرض قطز من اختيار الملك السعيد ـ سخط بيبرس على قطز ـ مصرع قطز ـ اعتلاء بيبرس عرش السلطنة المملوكية ٠

الباب الرابع

خطر المغول على قيام الدولة المملوكية الاولى في مصر

لم يتعرض الاسلام لاوقات عصيبة مثل التى تعرض لها زمن الغزو المغولى في القرن الثالث عشر الميلادى ، اي السابع الهجرى ، اذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين ، واتت على كثير من الناس قتلا او اسرا او تعذيبا ، وقوضت معالم المدنية بكل مكان في غير شفقة او رحمة . ومن سوء حظ آسيا الاسلامية انه لم يوجد بها وقتذاك قوة تستطيع مواجهة مثل ذلك الغزو العنيف الذي قاده جنكيزخان (١) واولاده واحفادة ، فالخلافة العباسية سادرة في الاضمحلال ، ودولة السلاجقة في بغداد تبدو كأنها اثر بعد عين ، اما في غرب بغداد ، فتوجد دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وهي الاخرى آخذة في الضعف والتدهور (٢) ، ثم الدولة

(١) جنكيزخان — يعنى أقوى الحكام — وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه ، اما اسمه الحقيقي الذي عرف به في صباه فهو تيموجين ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص . وقد تمكن تيموجين بعد حروب ومنازعات مع ابناء جنسه ان يصل الى غايته وهي زعامة المغول سنة ٦٠١ هـ و ان يجعل منهم قوة ظنها المعاصرون انها لا تهزم ، وبهذه القوة الخارقة استطاع هذا الاسكندر الاسيوي ان يكتسح البلاد شرقا وغربا حتى ترك لاولاده امبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الاسود ، وكانت وفاته في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) .

راجع (Cambridge. Med. Hist. vol. IV, Chap. XX, p. 637, 638. & Lane—Poole : The Moham. Dynasties, p. p. 222—231.)

(٢) (Joseph De Somogyi : « Adh. Dhahabi's Ta'rkh i al

المملوكية الناشئة بمصر والشام ولما تبلغ من العمر سوى بضع سنين ، وكيانها لا يزال في كفة الميزان ، واخطار حداثتها لا تزال محدقة بها من كل جانب داخلي وخارجي • ثم زحف هولاكو حفيد جنكيزخان غربا نحو فارس في فبراير سنة ١٢٥٤ • فقضى على قلاع الشيعة الاسماعيلية الباطنية بها ثم قضى على الخلافة العباسية وجميع ولايات غرب آسيا ، ولم يبق امامه سوى الدولة المملوكية بمصر والشام [1] •

ويرجع السر في انتصارات المغول الى تفوقهم في الاسلحة والى سرعة اطباقهم على العدو ، ثم الى سرعة الرماية واحكامها ، فاعمالهم الحربية قائمة على السرعة والقدرة في السبق وهى المعبر عنها اليوم بالحرب الخاطفة ، ومعظم اسلحتهم هي النبال ذات الاطراف الفولاذية او العظمية او القرنية ، ولا تخلو جعبة الجندي المغولى من عدد كبير من اوتار القسى ومعها ابرة وشمع لاصلاحها ، ومبرد لسن اطراف النبال • ثم كانت سيوف المغول مدببة حادة اصلح للطعن منها للضرب ، ودروعهم ودروع خيولهم من جلد مقسى مطلى • ويضع المغول اسلحتهم وامتعتهم في جعبات من الجلد يمكن نفخها ليستعينوا بها على اجتياز الانهار • ويتألف الجيش المغولى من العناصر المغولية الاصلية ثم من عناصر اخرى ملحقة به من الباشقرد والقرغيز والترك والتركمان وغيرهم ، وقوامها جميعا فصائل من

Islam » as an authority on the Mongol Invasion of the Caliphate. J. R. A. S. Oct. 1936, p. 595—604.)

(Charles Oman : The Hist. of Art of war in the Mid. Ages, vol. II, p. 316—317.)

(١) راجع Howorth (Sir Henry) : Hist. of the Mongols, vol. I, p. 193—196.)

& D'Hosson : Hist. des Mongols III, p. 134—135.

الفرسان كل منها عشرة او مائة او الف او عشرة آلاف من الجنود . وفيه فضلا عن المقاتلة فصائل اضافية من مهندسين واخصائيين في فن قـذف المجانيق وآلات الحصار واصلاح مختلف ادوات القتال . ويقضي النظام التتري بالطاعة التامة ، وينكر ان يهرب واحد من صفوف الجند او يترك زميلا عاجزا او اسيرا في يد الاعداء دون ان يقدم على انقاذه . ونساء المغول يتمتعن بحرية كبيرة ، ويحاربن مثلما يحارب الرجال ، وكثيرا ما كن يحملن اطفالهن حول اعناقهن (١) . وصفوة القول ان الامة المغولية كلها عملت في صفوف الجيش المغولي لتوفر له ما يحتاج اليه من طعام ومعدات (٢) .

وتعتبر سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) سنة مشئومة في تاريخ الدولـة الاسلامية ، اذ استولى المغول في فبراير منها على بغداد قلعة الاسلام وحاضرة العباسيين ، واعملوا فيها معاول التخريب والسيف والنار سبعة أيام، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وافراد اسرته واكابر دولته (٣) . واهتز المسلمون فرقا لتلك الكارثة ، لان الخلافة العباسية ظلت ـــ رغم ضعف سلطانها السياسي ـــ محتفظة بمركز الزعامة الروحية الى درجة تفوق مركز البابوية في روما (٤) ، فلا عجب اذن اذا خيل للمسلمين « ان العالم على

(١) لاحظ ذلك الرحالة الطنجي ابن بطوطة فقال : والنساء كالرجال سافرات يحضرن مجالس الرجال. وكان سلطان المغول يصدر اوامره باسمه وباسم خواتينه (زوجاته)

(٢) ...... (Charles Oman : Op. Cit. p. Vol. II, p. 318—319.)

(٣) راجع سقوط بغداد في (Howorth : Op. Cit. Vol. I, p. 196—201) & (Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 460—466.)

(٤) ...... (Camb. Med. Hist. vol IV, p. 462.)

وشك الانحلال وان الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على انها تعبير عن سخط الله ، واتخذوها ادلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة (١) .

وتتج عن سقوط بغداد في ايدي التتار آثار ونتائج عديدة في الحياة الاسلامية : فالوحدة السياسية للمسلمين اصبحت من الامور التي يستحيل تحقيقها ، اضف الى ذلك ان الثقافة الاسلامية منيت على ايدى التتار بخسارة كبيرة حين اتلف المغول آلافا من الكتب القيمة والمخطوطات النادرة ، وقتلوا كثيرا من العلماء والادباء ، وشتتوا شمل من بقي منهم في مختلف البقاع الاسلامية . وجذبت مصر عددا كبيرا من هؤلاء العلماء، مما ادى الى انتقال مركز الزعامة الفكرية الى القاهرة التي اضحت بحكم وضعها الجغرافي اقرب من بغداد الى اوروبا ، مما ساعد على اقتراب العالم الغربي من الحضارة الشرقية (٢) . وما يقال بصدد هجرة العلماء والادباء يقال كذلك على اهل الحرف والصناعات وغيرهم من اهالى بلاد المشرق الاسلامي ، مثال ذلك ان مصر استقبلت ابان الغزو المغولى عددا كبيرا من المشارقة الذين بنوا لانفسهم بيوتا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل (٣) . وقد جلب اهل الحرف منهم بعض اساليب بلادهم الفنية ، وتأثر المعمار المصري نتيجة ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية ، ومن المحتمل جدا ان تكون خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذي انشيء في سنة

---

(١) السيوطى ــ تاريخ الخلفاء ــ ص ٣٠٩ .

(٢) .... (Camb. Med. Hist. vol. IV, Chap. XX, p. 641—643.)

(٣) المقريزي ــ الخطط ــ ج١ ، ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥

١٢٢٣ م [١] • وعلى الرغم من أن هذه الاساليب والمؤثرات الفنية ، قد وجدت فعلا في مصر قبل القرن الثالث عشر ، الا ان تلك الهجرات الاخيرة كانت مدعاة لظهورها واحيائها من جديد [٢] • والواقع ان سقوط بغداد وقيم دولة ايلخانات فارس على عهد هولاكو ، قد فصل اراضي شرق دجلة عن غربه ، ففي الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية ، وفي الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية ، بعد ان كانت حضارة العالم الوسيط من سمرقند الى اشبيلية قائمة على التعاون الفكري والتبادل العلمى والادبى بين الفرس والعرب في ظل الخلافة العباسية • حقيقة ان الفرقة بين اللغتين الفارسية والعربية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة للنهوض القومى الفارسي، الا انه منذ سقوط بغداد قلت اهمية اللغة العربية بين الفرس واصبحت قاصرة على البحوث الدينية والفلسفية [٣] • وترتب على سقوط بغداد ايضا الاتجاه في اعادة ترتيب العالم السياسي مثـل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد محالفات مختلفة ، كما ترتب عليه تغيير سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة اذ جعلهم يفكرون في احيائها من جديد ، وفي

---

(١) (Creswell : « The works of Sultan Baibars Al—Bun-duqdari in Egypt » Bulletin de l'Institut Français D'Archeologie Orientale. tome 26, fasc. 2, p. 181.)

(٢) الواقع ان هجرات اهل الحرف نتيجة الغزو المغولى لم تكن جديدة على مصر والاسلام ، فهناك امثلة عديدة من هذا النوع نذكر منها حادثة المهندسين الارمن الثلاثة الذين هاجروا من الرها Edessa الـى مصر ، واشرفوا على بناء حصون الفاطميين بالقاهرة سنة ١٠٨٧ م (٤٨٠ هـ) في عهد المستنصر بالله . ومن المحتمل ان مجيئهم الى مصر كان نتيجـة لهروبهم من مدينة الرها التي احتلها السلاجقة قبل ذلك بعام ـ راجع :ـ
(Creswell. Op. Cit. p. 181.)

(٣) (Nickolson : A Lit. Hist. of the Arabs, pp. .... 446—448.)

الوقت نفسه اعطاهم فرصة قصيرة من الزمن يستعدون فيها لصد هـذا السيل المغولي الجارف المندفع نحوهم (١) • ومع ان سقوط بغداد بين للمسلمين ضرورة توحيد الجهود ازاء ذلك الخطر العام ، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائما مستمرا ، فاستغل المغول ما هنالك من تنافس لصالحهم ، وزحفوا نحو الغرب يعيثون فسادا وتخريبا يساعدهم في ذلك انقسام كلمة المسلمين • وأيد هولاكو حزب الشيعة واتخذ الاحتياطات التي تكفل سلامة قبر الامام على بالنجف من التدمير (٢) •

ومن الطبيعي ان يتلو ذلك غزو الشام ، وما يليها غربا ، حيث اضحت الامبراطورية التي اسسها السلطان صلاح الدين الايوبي منقسمة الى قسمين ، وهما مصر التي زال عنها حكم الايوبيين وصار سلاطينها من مماليكهم ، ثم الشام وقد سيطر على مدنها عدد من ملوك بنى ايوب على رأسهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، الذي اوجس خيفة من التقدم المغولي ، وقدر أن هولاكو وجنوده سوف يستولون على الشام بين عشية وضحاها ، وان الشام لن يجد من يحميه من ملوك الايوبيين او مماليك القاهرة سواء • لذا ارسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ١٢٥٨ م الى هولاكو يخطب وده ويسأله ان يعينه على اخذ مصر من ايدى المماليك (٣) • وكان حريا بهولاكو ان يقبل ذلك الطلب لو ان امير دمشق احاطه بشيء من العناية وذهب بنفسه يطلب حلف الايلخان المغولي ويعرض عليه ولاءه وتبعيته ، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو ان يرتبط بعهد وثيق ، ففضل البقاء بعيدا عن حضرة هولاكو ، حتى اذا اصيبت القوى المغولية

---

(١) ••••• (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 641—643.)

(٢) ••••• (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 629, 641—643.)

(٣) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤١٠ ــ ٤١١ •

بالهزيمة امام المسلمين استطاع اذ يجد لنفسه بعض المعاذير (١) • وغضب هولاكو من الوفد الذي لم يناسب مقامه ، فارسل الى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد او شرط (٢) • وعندما رأى الملك الناصر حبوط مسعاه ، وان محاولته هذه جعلته مريبا عند المسلمين ، رد على رسالة هولاكو برسالة كلها قذف وسباب ، ودفع ثمن ذلك غاليا فيما بعد •

وفي سبتمبر سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) غزا هولاكو الشام بجيش قوى ، وحاصر ابنه يشموط ميافارقين ، وادرك الناصر استحالة الوقوف وحده في وجه التتار ، فقرر ان يطلب من المماليك معونة حربية تسمح له بوقف سيل المغيرين (٣) • وكان سلطان مصر في ذلك الوقت الملك المظفر سيف الدين قطز وهو من الخوارزمية (٤) الناقمين على التتر والعارفين بما

---

(١) ابن ابى الفضائل ــ النهج السديد ..... المقدمة بالفرنسية للاستاذ Blochet جـ١ ، ص ٣٧٥ .

(٢) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤١٦ ــ ٤١٧ .
Muir : The Mamluk or Slave Dynasty of Égypt.p 38

(٣) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤١٦ ــ ٤١٧

(٤) كان قطز شابا اشقر كبير اللحية ويقال ان اسمه الاصلي محمود ابن مودود ، وانه ينتسب الى بيت الملك في خوارزم ــ ابن اخت جلال الدين خوارزمشاه ــ ولما قضى المغول على ملك هذه الاسرة كان قطز من السبايا الذين حملوا الى دمشق ، وهناك بيع بيع الرقيق للسلطان ايبك التركماني . ويؤثر عن قطز انه قال لاحد المنجمين « انا اكسرهم ــ اي التتار ــ وآخذ بثأر خالى خوارزم شاه ويقال ان كلمة قطز معناها بالتركية الكلب الشرس . ــ راجع (الكتبى ــ فوات الوفيات ــ جـ٢ ، ص ١٣٢ ــ ١٣٣) ويلاحظ انه في تلك السنة عزل قطز السلطان على بن ايبك واعلن نفسه سلطانا مبررا ذلك بقوله : « لا بد من سلطان قاهر يقاتل العدو والملك المنصور على صبى لا يعرف تدبير المملكة » .

يسفكونه من دماء في اي بلد يحلون فيه • وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر ، فان خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكي يتناسى الاحقاد ويقبل طلبه الخاص بارسال نجدات عسكرية اليه • ويظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التى ارسلها الى الناصر لهذا الغرض ، اذ يخبره فيها بانه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر ، ولا يقتصر على ذلك بل يعتبر الناصر ايضا ــ بصفته سليل صلاح الدين ــ ملكا على جميع الممالك التي خضعت لسلطان الايوبيين ومنها مصر • ثم يضيف بانه ــ اي قطز ــ ليس الا احد قادته على ضفاف النيل ، وانه يتعهد ان يعطيه السلطنة العليا اذا اراد القدوم الى القاهرة ، كما يعرض عليه ان يرسل له جيشه الى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه الى القاهرة اذا كان يرتاب في صدق نواياه [1] • وسواء اكانت هذه الوعود آتية من الفزع من هولاكو او آتية من ان قطز يريد ان يخدع امير دمشق ليأخذ املاكه فيما بعد ، فان المغـول انتهزوا فرصة سكون الناصر وتابعوا السير الى الشام ، فاستولوا على حلب في ٢٥ يناير سنة ١٢٦٠ م (صفر ٦٥٨ هـ) بعد سبعة ايام مروعة من السفك والتخريب [2] • ثم سقطت ميافارقين بعد ذلك بعدة شهور في يد يشموط ابن هولاكو ، بعد ان دافعت حاميتها دفاعا باسلا لم يشهد المغول مثله ، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الايوبى [3] •

& (Wiet : Hist. de la Nation Égyptienne, t. 4, p. 390, Éncy. of Islam, Art Kutuz) & Blochet : Op. cit. I, p. 414 Note 4.

و (عبدالله بن ايبك ــ كنز الدرر وجامع الغرر ــ جـ٨ ، ق١ ، ص ٣٥)

(١) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤١٨ ، ابو الفداء ــ المختصر في اخبار البشر ــ جـ٣ ، ص ٢٠٨) •

(٢) انظر .... (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 643.)

(٣) (« Amedroz » J. R. A. S. 1902 & Creswell : The

وامام ذلك الخطر الداهم رأى بعض امراء الايوبيين في الشام ان يخضعوا للغزاة حرصا على كيانهم ، ومن هؤلاء الملك الاشرف موسى سليل اسد الدين شيركوه الذي لم يكن يملك في ذلك الوقت الا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها ، وكافأه هولاكو على ذلك بان رد اليه امارة حمص التي اخذها منه الناصر يوسف قبل ذلك باثني عشر عامـا (٦٤٦ هـ) ، وجعله قائده العام في الشام [١] . اما الناصر فانه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعزيزية وعدة من البحرية [٢] وعلى رأسهم الامير بيبرس البندقداري [٣] ، وخيم على برزه [٤] على مسافة يسيرة من دمشق

---

works of Sultan Baibars in Egypt' Bulletin de l'Institut Français D'Archeologie orientale, tome 26, 2eme. fasc., p. 177—178, & Ency. Isl. Art. Maiyafarikin.

(١) المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ، ص ٤٢٣ و ٤٢٥ و ٤٣٣ ، العينى ـ عقد الجمان ـ (جزء حوادث ٦٥٦ ـ ٦٧٣ هـ) ورقة ٤٢٩ .

(٢) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ جـ٢ ، لوحة ٣٩٤ .

(٣) سبق ان اشرنا الى مفارقة المماليك البحرية الملك الناصر والتجائهم الى الملك المغيث الايوبي صاحب الكرك (انظر البـاب الثالث ص ١٣٦) ونضيف الى ذلك بان هؤلاء المماليك لجأوا الى الاغارة على املاك الملك الناصر الامر الذي جعله يزحف بجيوشه نحو الكرك ويحاصر المغيث بها سنة ٦٥٧هـ لحمايته لهم . واضطر المغيث الى قبول شروط الناصر التي منها تسليم ما عنده من البحرية اليه . ولما علم بيبرس بذلك هرب في جماعة مـن البحرية الى الملك الناصر طالبين منه العفو فعفى عنهم وادخلهم في خدمته ، وقبض المغيث على من بقى عنده من البحرية وبعث بهم الى الملك الناصر فاعتقلهم بقلعة حلب ، وظلوا بها الى ان استولى التتار عليها فاخذهم هولاكو مع من اسر الى بلاده . راجع (ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ جـ٢ ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١) ، ابو الفداء ـ جـ٣ ، ص ٢٠٣ ، المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥ ، ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ٧ ، ص٥٣) .

(٤) هى قرية بالغوطة ـ (ياقوت ـ معجم البلدان ـ جـ١ ، ص٥٦٣) .

شمالا . غير ان تعدد عناصر جيشه (١) وقديم التنافر بين تلك العناصر فضلا عن اختلاف قلوب امرائه ، وتآمر مماليكه الناصرية على قتله ، وخوف الامراء من هولاكو وجنوده ، سرعان ما جعل ذلك الجيش ينفض من حول الناصر (٢) . عند ذلك قرر الناصر ان يترك دمشق مؤقتا لمصيرها التعس وان ينسحب الى غزة حيث يكون على مقربة من النجدة التي وعده بها سلطان مصر (٣) . وكانت هذه الخطة المتقلبة موافقة الى اقصى حد لطبيعته فانه لم يفكر مطلقا في حماية عاصمته وتعريض حياته للخطر بها ، بل اسرع بتركها لوزيره زين الدين الحافظى (٤) الذي اسلمها للمغول في مارس سنة ١٢٦٠ م (ربيع الاول سنة ٦٥٨ هـ) ، وحاولت قلعتها الحصينة المقاومة

---

(١) كان جيش الناصر يشتمل على جنود عرب وعجم وتركمان ومطوعة (ابو المحاسن ـ النجوم ـ جـ٧ ، ص ٧٤) .

(٢) ابن واصل ـ مفرج الكروب ـ جـ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٣) ابو الفداء ـ جـ٣ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، السلوك ـ جـ١ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

(٤) الامير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقربانى المعروف بالزين الحافظي . كان ابوه خطيب عقربا من قرى دمشق ، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه ، ولقب بالحافظى لانه خدم الحافظ نور الدين ارسلان شاه بن العادل ابى بكر بن ايوب صاحب قلعة جعبر ، ثم انتقل الى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب ، فصارت له عنده منزلة رفيعة ، وكثرت امواله، وصار مكينا في دولته ويرسل عنه الى هولاكو ، فمازج التتار واطمعهم في البلاد ، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب ، فقام هو بامر دمشق للتتار ودعوه بالملك زين الدين . وبعد هزيمة التتار في عين جالوت فر مع نواب التتار من دمشق خوفا من الملك المظفر قطز . وقد قتل زين الدين الحافظي بيد المغول سنة ٦٦٢ هـ .

راجع (ابن ابى الفضائل ـ النهج السديد ص ٦٦٩ ، حاشية رقم او « Blochet» و ص ٦٧٠ ـ ٦٧١ ، المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ، ص ٤٢٣ حاشية رقم ٤) .

دون جدوري ، واستسلمت الحامية في ٣ يونيو من نفس السنة (١) • ونجت دمشق من التخريب (٢) بفضل وساطة اعيانها ، واقتدت انطاكية بدمشق في التسليم ولكنها لم تسلم من التخريب (٣) • وفي ذلك الوقت علم هولاكو بموت اخيه الخان الاعظم منجوقان ، فاسند قيادة جيوشه في الشام الى كتبغانوين ورحل مسرعا الى القورلتاي — مجمع زعماء التتر — في العاصمة قره قورم (٤) حيث تجري الانتخابات لاختيار خاقان المغول الجديد • وقدر هولاكو انه سوف يعين خاقانا للمغول لاهمية فتوحاته واتساعها ، ولكنه علم في تبريز (٥) ان الاختيار وقع على اخيه

---

(١) نقش على جدران قلعة دمشق عبارة تذكارية عن حملة المغول عليها تبين ان سقوط القلعة في ايدي المغول كان في ٢١ جمادى الآخرة ٦٥٨ هـ (٣ يونيو ١٢٦٠ م) وان استعادة الجيش المصري والشامى لها كان في ٢٧ رمضان من نفس السنة (٥ سبتمبر) اما المدينة نفسها فسلمت قبل سقوط قلعتها بنحو شهرين .

راجع ...... (Gaston Wiet : Hist. De la Nation Egyptienne, t. IV, p. 411.)

(٢) كان المؤرخ المعروف بابى شامة موجودا بدمشق اثناء الاحتلال المغولى لها ، وقد وصف هذا الغزو مفصلا في كتابه «الذيل على الروضتين» ص ٢٠٤ وختمه بقوله « والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا » .

(٣) انظر ...... (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 643.)

(٤) قره قورم مدينة في منغوليا على نهر ارخون في وسط آسيا ولم يبق منها الان سوى الانقاض ودير بوذى .

(٥) حلت تبريز منذئذ محل بغداد في الجاه والثراء ، واصبحت العراق تحكم حكما مغوليا من هناك .

راجع — (عبد الفتاح السرنجاوى — النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية — ص ٣٠٥) .

قوبيلاى [1] (١٢٦٠ — ١٢٩٤) ، وان الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة امراء مغول الشرق الاقصى الذين ارادوا افساد الانتخابات قبل مجيء امراء الغرب ، وكان ذلك منافيا لقواعد الحكم التي قررها جنكيزخان ، ولكن هولاكو قبل تلك النتيجة احتراما لاخيه قوبيلاي [2] .

اما الناصر فانه ما كاد يصل الى غزة على رأس جيشه حتى اخذ قطز في اغراء وحدات ذلك الجيش واجتذابها الى ناحيته [3] ، وذلك لان قطز لم يكن يخشى شيئا خشيته من وصول امير ايوبى على رأس قوة حربية الى حدود مصر . ونجحت اغراءات قطز حتى الفى الناصر نفسه وحيدا في غزة ، فخرج منها في بعض اقاربه وحاشيته وهو لا يدرى بالضبط ماذا يفعل ، فاتجه الى قطيا [4] بجنوب فلسطين لعله يجد فيها مأوى او منجاة

---

(١) صار قوبيلاى الخان الاعظم على بلاد التتر حتى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) واستولى في اثناء حكمه على البقية الباقية من بلاد الصين ، ونقل عاصمة التتر من قراقورم Karakorum الى خان بالق Khan Balik وهي بكين الحالية ، وانصبغت دولة قوبيلاي منذ ذلك الوقت بصبغة صينية من دون سائر دول التتار وعرفت الاسرة الحاكمة بها باسم يون Yuen

راجع — Ency. Of Islam. Art. Kubilai, Lane—Poole : Moham. Dynas, p. 212 215.)

(٢) ...... Blochet : Hist. des Sultans Mamlouks, vol. I, p. 377—378.)

(٣) يروى ابو شامة في هذا الصدد العبارة التالية « ... فتوجه الترك الى مصر مع الاثقال ، وتوجه هو — اي الناصر — مع خواصه الى وادى موسى ثم نزل بركة زيزى وكبسه نائب التتار بها » .

راجع (الذيل على الروضتين — ٢٠٥)

(٤) وتكتب ايضا قطية وهى قرية من نواحى الجفار في الطريق بين مصر والشام في وسط الرمل قرب الفرما وبها جامع ومارستان (مستشفى)

من المغول من ناحية والمماليك من ناحية اخرى . وبينما هو على تلـك الحال ، افشى اثنان من رجاله الى كتبغانوين [١] ــ نائب هولاكو بدمشق ــ سر ارتداد الناصر عن الحدود المصرية ، فأرسل القائد المغولى ثلة من الفرسان قبضت على الامير الايوبى عند بركة زيزاء[٢] وحملته الى هولاكو . واختار هولاكو ان ينسى خطاب السب الذي ارسله اليه الناصر ردا على خطابه ، او لعله ــ لان المغول لا ينسون شيئا ــ رأى ان امير دمشق انفع له وللسياسة التي يريد اتباعها مع المسلمين من امير حمص الشاب الملك الاشرف موسى ، ولهذا لقيه لقاء طيبا ، ووعده باحياء الامبراطوريـة

وبها والى طبلخاناه مقيم لاخذ العشر من التجار ، وبها قاض وناظر وشهود ومباشرون . لا يمكن احد من الجواز من مصر الى الشام او بالعكس الا بجواز مرور . وكان بها مكان اخذ المكس من القادمين الى مصر (ياقوت ــ معجم البلدان ــ ج ٤ ص ١٤٤) وقد اندثرت هذه القرية الآن ولم يبق الا اطلالها في الطريق بين القنطرة والعريش في الجنوب الشرقي من محطة الرمانة (الروماني قديما) وعلى بعد عشرة كيلومترات منها . راجع ــ (ابــو المحاسن ــ النجوم ــ جـ٧ ص ٧٧ حاشية رقم ٢) .

(١) يرد اسم هذا القائد على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقــا وكيتوقا نوين ، وهو من قبيلة تترية اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون (Wiet: op. cit. IV, p. 409.) وقد يكون هذا من الاسباب التي جعلتــه يضطهد مسلمى دمشق ويعظم قسوس النصارى وينزل كنائسهم مما شجع نصارى دمشق على الاستطالة على المسلمين (ابو شامة ــ الذيل علــى الروضتين ص ٢٠٨ ، المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٤٢٥) ونويــن ــ حسب ضبط صبح الاعشى ــ جـ٦ ص ٣٣ ــ لفظ فارسي كثيرا مــا يقرن باسماء قواد التتر ومعناه مقدم الف وقيل عشرة آلاف ــ (ابــو المحاسن ــ النجوم ــ جـ٧ ص ٧٨ حاشية ٣) .

(٢) قرية من قرى البلقاء الكبيرة ، والبلقاء كورة من اعمال دمشق ــ يطؤها الحاج ويقام بها لهم سوق ــ وفيها بركة عظيمة (ياقوت ــ معجم البلدان ــ جـ٢ ص ٩٦٦) .

الايوبية الممتدة من اطراف الشام الى النوبة ومن برقة الى الفرات ؛ كما وعده بانه سوف يجعل له السيادة الفعلية في تلك البلاد كلها بما في ذلك مصر بشرط ان يعترف بسلطان المغول وسيادة الخان الاكبر (١) . وهنا تتضح لنا حقيقة لها اهميتها فيما يتعلق بسلامة دولة المماليك في مصر ـ الا وهي تواطؤ ملك من ملوك الأيوبيين مع المغول في القضاء على الدولة المملوكية الناشئة . وهذه الحقيقة ان دلت على شيء فانما تدل على مدى ما تعرضت له الدولة المملوكية من الاخطار المهددة لكيانها ، كما تدل على ان قيام دولة المماليك ظل ناقصا ما دامت تلك الاخطار ماثلة .

ورأى هولاكو ان تتابع جيوشه زحفها نحو الغرب ، غير مقتصر على الفتوحات الهامة التي تمت له بالاستيلاء على حلب ودمشق ، فاخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتعقيب على ذلك بغزو البلاد المصرية (٢) فارسل رسله الى مصر بكتاب كله وعيد وتهديد وانذار بالويل والثبور لسلطان مصر المملوكي ان هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول (٣) . وقد اوردنا ـ كضميمة في آخر الكتاب ـ نص هذا الخطاب الذي يدل على مبلغ اعتداد المغول بانفسهم ومدى ما احدثوه في البلاد التي فتحوها من قتل وتخريب .

وامام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسا من كبار الامراء ، واستقر الرأي على مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب . وحوالى ذلك الوقت اخذ كثير من امراء المماليك البحرية ، الذين هربوا من القاهرة

---

(١) .... (Blochet : Hist. des Sultans Mamlouks, p. 380.)

(٢) راجع .... (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 643.)

(٣) المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩

ايام ايبك خوفا من ان ينالهم مانال اقطاى ، وبقوا في منتصف الدويلات الشامية الايوبية ، وفي بلاط دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، اخذوا يفدون الى القاهرة بعد ان انتشر المغول باكبر مدن الشام وهددوا آسيا الصغرى نفسها • ونسى اولئك المماليك مخاوفهم ، ونسى قطز مخاوفه كذلك ،فرحب بمقدمهم ومنحهم الاقطاعات الجليلة الواسعة ، فصار المماليك بذلك كتلة واحدة متحدة ، وتلك الظاهرة تتكرر كثيرا في صفوف المماليك ابان الازمات التي تعرضت لها دولتهم في تاريخها الطويل • ومن ضمن المماليك الذين رجعوا الى القاهرة والقائلين بوجوب مقاتلة التتر ، الامير بيبرس البندقدارى (١) ، الذي استقبله قطز مرحبا سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨هـ)، وانزله بدار الوزارة (٢) واقطعه قليوب واعمالها (٣) •

---

(١) يقال ان بيبرس طلب من الناصر عندما كان مقيما عنده ، ان يقدمه او يقدم غيره على اربعة آلاف فارس ليتوجه بهم الى شط الفرات ليمنع التتر من عبوره ، فلم يمكنه الناصر من ذلك ، ففارقه وقدم الى مصر . (الكتبى ــ فوات الوفيات ــ جـ١ ص ٨٦) . ويقال كذلك ان بيبرس سب الوزير زين الدين الحافظى حينما اشار على الملك الناصر بعدم مقاتلة التتر ، وصاح به قائلا « انتم سبب هلاك المسلمين » ــ راجع (المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٤١٩) .

(٢) كانت دار الوزارة بجوار القصر الخلافى الفاطمى المعروف بالقصر الشرقي الكبير ، بناها الوزير الافضل بن بدر الجمالى ويقال ان بدر الجمالى نفسه هو الذي بناها . وكان يسكنها وزراء الدولة الفاطمية ارباب السيوف من عهد الافضل الى ان زالت الدولة ، وكانت تعرف بالدار الافضلية . ثم استقر بها صلاح الدين الايوبي وابنه العزيز ثم الملك العادل وصاروا يسمونها بالدار السلطانية . واول من انتقل عنها من الملوك وسكن قلعة الجبل الملك الكامل بن العادل الذي جعلها منزلا للرسل . فلما ولى قطز ملك مصر وحضر اليه المماليك البحرية من الشام خرج قطز للقائهم وانزل الامير بيبرس بدار الوزارة . راجع (المقريزي: الخطط جـ٢ ص ٣٠١ ــ ٣٠٢)

(٣) الكتبى ــ فوات الوفيات ــ جـ١ ص ٨٦ ، المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٤١٩ ــ ٤٢٠ .

وكان رد قطز على تهديد هولاكو واضحا ، اذ قبض على رسل المغول واعدمهم توسيطا [١] ، وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، ونودى في القاهرة وسائر الاقاليم بالخروج الى الجهاد [٢] . وفي نفس الوقت اخذ قطز يعمل على حشد الجيوش وجمع الاموال اللازمة للانفاق عليها بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر والقاهرة [٣] . ولقى قطز في جباية تلك الضرائب معارضة شديدة من جانب القضاة ورجال الدين ، اذ اشترطوا عليه اولا احضار ما عنده وعند حريمه ، وما عند الامراء من الحلى وضربها سكة ونقدا ، وتفريقها على رجال الجيش ، فان لم تقم بكفايتهم جاز ان يفرض ضرائب جديدة على الرعية ، وان يقترض من اموال التجار ليستعين بذلك على مجاهدة اعداء الدين . وامتثل قطز لرأى رجال الدين ولم يشرع في جمع الاموال من المصريين الا بعد ان احضر هو والامراء ما عندهم من الحلى والاموال بين يدى الشيخ عزالدين بن عبد السلام اقوى رجال الدين مكانة في ذلك الوقت [٤] . ولم يقتصر الامر على

---

(١) التوسيط هو ان يضرب الشخص بالسيف ضربة تقطعه نصفين ، وكان هذا النوع من الاعدام شائعا بمصر في العصور الوسطى .

(٢) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٤٢٩ .

(٣) وضح لنا ابن اياس (بدائع الزهور جـ١ ص ٩٦ ــ ٩٧) هذه الضرائب فقال ان قطز (اخذ في اسباب جمع الاموال فاخذ من اهل مصر والقاهرة على كل راس من الناس من ذكر وانثى دينارا واحدا ، واخذ من اجرة الاملاك والاوقاف شهرا واحدا ، واخذ من اغنياء الناس والتجار زكاة اموالهم معجلا ، واخذ من الترك الاهلية الثلث من المال ، واخذ على الغيطان والسواقى اجرة شهر ، واحدث من ابواب هذه المظالم اشياء كثيرة فبلغ جملة ما جمعه من الاموال في هذه الحركة ستمائة الف دينار » . والمقصود بالترك الاهلية عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل « Turcs domiciles » راجع (المقريزي: السلوك، جـ١، ص٤٣٧ حاشية٥)

(٤) تاج الدين السبكى ــ طبقات الشافعية الكبرى ــ جـ ٥ ص ٨٣ ــ ابن واصل ــ مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٩٢ .

ذلك بل لقى قطز صعوبة اخرى في اقناع كثير من الامراء بوجوب الرحيل معه من مصر لملاقاة التتر ، فاخذ يعمل على اثارة نخوتهم واستنهاض همتهم بقوله « يا امراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون امــوال بيت المال واتـــم للغزاة كارهون ، وانا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة المسلمين في رقــاب المتأخرين [1] » • وكان لهذه الخطبة اثرها في تقوية روحهم المعنويــة المنهارة فتحالفوا جميعا على الجهاد في قتال العدو ودفعه عن البلاد •

يتضح لنا مما تقدم انه فضلا عن الصعوبات الخارجية التي واجهت دولة المماليك من جراء انضمام الايوبيين الى المغول في غزو مصر ، واجهتها صعوبات اخرى داخلية لا تقل عنها خطرا ، عندما اعلنت التعبئة العامة من مال ورجال لصد ذلك الخطر المغولي الداهم • وفي اغسطس سنة ١٢٦٠ م (رمضان سنة ٦٥٨ هـ) خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية ومن انضم اليه من الجنود الشامية وغيرهم [2] ، وامر الامــير بيبرس البندقدارى ان يتقدم بقطعة من العسكر ليكشف اخبار التتار ، فســار بيبرس حتى لقى المغول عند غزة ، وتمكن بيبرس من ان يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الاولى في تاريخ المغول غير انها لــم تكن حاسمة ، واخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفى عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز • ثم تقدم قطز عن طريق الساحل ، فعرج اولا نحو عكا لكي يتبين نيات الفرنج الذين ارتبطوا مع الناصر سلطان حلب ودمشق بمعاهدة منذ ٢١ فبراير سنة ١٢٥٤ م وتستمر عشرة اعوام ، وقد اندمجت مصر

---

(١) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٤٢٩ •

(٢) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ــ جـ٧ ص ٧٨ •

في تلك المعهدة بعد عقدها في سنة ١٢٥٦ م (١) • ويقول بعض المؤرخين في ذلك الصدد ان الفرنج عرضوا وقتذاك على قطز ان يمدوه بقوات من عندهم ، ولكنه اكتفى بان طلب منهم التزام الحيدة التامة والا قاتلهم قبل ان يلقى التتر (٢) • غير ان احوال الصليبيين ببلاد الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم اية مساعدة للسلطان قطز او المغول ، ولم يكن السلطان قطز في الواقع بحاجة الى خشيتهم او تهديدهم لان احوال مسيحيي الشام جميعا ولا سيما في عكا بلغت اقصى درجات السوء حيث قام نزاع بين الجنوية والبنادقة سنة ١٢٥٦ م ، وسرعان ما تطور ذلك النزاع الى حرب اهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية ، فانضم البيازنة ، وفيلب دى مونتفورت امير صور الى الجنوية ، وانضم بوهمند السادس امير انطاكية الى البنادقة• ولم تستطع جماعات الفرسان الحربية المعروفة ان تقف مكتوفة اليدين ، فانضم الاسبتاريون Hospitallers الى الجنوية وانضم الداوية Templars والتيوتون وهيئة القديس توماس اكون Acon ولازارس Làzârus الى البنادقة ، وامتدت الحرب على طول ساحل الشام برا وبحرا ، فقتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع ، ولم ينته هذا الصراع الا بعقد معاهدة بين الطرفين في ٩ اكتوبر سنة ١٢٥٨ م (٣) • ومن هذا نرى ان حالة الفرنج الداخلية ـ حينما تقدم قطز لقتال المغول سنة ١٢٦٠ م ـ كانت من الضعف والسوء بمكان بحيث لا تسمح لهم بالاشتراك فعليا في مساعدة القوة المصرية او المغولية على السواء (٤) •

---

(١) (Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne, t. IV, p. 410 & King : The Knights Hospitallers, p. 252.)

(٢) المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ـ ص ٤٣٠ •

(٣) راجع •••• (King : Op. cit. pp. 252—255 & Wiet : Op. cit. p. 410.)

(٤) •••••• (Wiet : Op cit. t. 4, p. 410.)

ثم وافى قطز الامير بيبرس عند عين جالـــوت [١] • ويروى بعض المؤرخين ان رجوع هولاكو بجزء من جيشه الى فارس قبيل ذلك الوقت اضعف من قوى المغول امام المماليك [٢] ، بل يقول ابو المحاسن ان بعض امراء المسلمين الخاضعين للتتر ، نصحوا القائد المغولى بالانتظار ريثما يعود هولاكو او يصل المدد من عنده الى الشام ليستطيع ملاقاة الجيش المصري [٣] و [٤] • وكيفما كان الامر فان رجوع هولاكو الى فارس لم

يغير من عزم التتر على التقدم لغزو مصر ، كما انه لم يلق في نفوس المماليك امنا ولا هدوءا ، بل ظلت قلوبهم مضطربة واهمة[٥] من هؤلاء القوم الذين اجتاحوا آسيا وجزءا من اوروبا دون ان تلحق بهم هزيمة واحدة • وفي صباح يوم الجمعة الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م [٦] (٢٦ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) التقى الجمعان المغولى والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت•

---

(١) بليدة شرق دارين بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم الى الاسطورة القائلة بان داود قتل جالوت في هذا المكان وقد سماها الصليبيون مدينة Tubanéa راجع (ياقوت ـ معجم البلدان ـ جـ٣ ص ٧٦ و Ency . of Islam Art Ain Djalut .)

(٢) (Levi Della vida : « L'invasione dei tartari in Syria Nel 1260 » Orientalia nova Series vol. IV (Roma 1935) p. 354.)

(٣) ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٧ ص ٧٨ ـ ٧٩ •

(٤) يقال ان هولاكو كان يتأهب للزحف على مصر بحوالي اربعين الف جندى ، واذا بوفاة اخيه منجوقان تضطره الى الرجوع بجزء من جيشه الى فارس بعد ان ترك بالشام قائده كتبغا نوين مع عشرة آلاف من عساكره لتنفيذ مهمة فتح مصر ـ راجع (الرمزي ـ تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ـ جـ١ ص ٤١٩) •

(٥) المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ص ٤٣٠

(٦) ••••••• (Ency. of Islam, Art. « Ain Djalut » .)

وليس ادل على تفاصيل تلك المعركة واسرارها من رواية « صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي »[١] الذي وقع اسيرا في يد المغول ابان غزوهم الشام ، وقبل الخدمة في صفوفهم وحارب معهم في تلك الواقعة ، فروايته لها قيمتها لا بصفته شاهد عيان للموقعة فحسب ، بل للدور الذي لعبه فيها كما يتضح من النص حيث يقول فيه « ... لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الاردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون للقائهم . فلما علمت ان التتار لا بد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلاما لى في صفة جاسوس وامرته ان يجتمع بالملك المظفر قطز ، والامير بيبرس البندقدارى ، وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى ، ويعرفهم ان التتار لا شيء فلا تخافوا منهم ، وان تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال ، وعرفهم ان التتار في عسكر قليل . واوصيته

---

(٣) بدأ صارم الدين ازبك حياته مملوكا عند الملك الاشرف موسى صاحب حمص ، وشغل وظائف ادارية في الشام ، وعاش ببلاد المغول مدة من الزمان ، وتوفي في حوالي سن الخمسين ، يناير — فبراير سنة ١٢٨١ م (شوال سنة ٦٧٩ هـ) بعد ان اعطانا معلومات دقيقة عن المغول ، وصورا حية عن عاداتهم تضمنها التاريخ الذي كتبه قرطاى العزى الخازندارى ، وهو ايضا موظف مملوكى شغل وظائف امير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس وتوفي سنة ١٣٣٣ م (٧٣٤ هـ) فوق سن الستين . والجزء الخاص باخبار صارم الدين ازبك في تاريخ قرطاى العزى مخطوط بمكتبة الفاتيكان (ar. 726.) وقد نشره العالم الايطالى G. Levi Della Vida تحت عنوان « غارة التتار على سوريا في سنة ١٢٦٠ م كما رواها شاهد عيان » : —

Della Vida : « L'invasione dei Tartari in Syria Nel 1260 di un testimone oculare » Orientalia vol. IV (Roma 1935) p. 352—376.

ويوجد هذا النص ايضا في مخطوط (عبدالله بن ايبك — كنز الدرر وجامع الغرر — ج ٨ ق ١ لوحة ٤٦ — ٥٢ — (مخطوط بدار الكتب) . ونظرا لاهمية هذا النص رأينا نقله برمته كضميمة في آخر هذا الكتاب .

ان يراعى المسلمون ان يكون الملتقى عند طلوع الشمس • فلما وصل غلامى الى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع ببعض الامراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما اوصيتهم به • وكنت قلت في كلامى : ــ قل للامراء ، لا تخافوا ، ها انا واصحابي والملك الاشرف ، ننهزم بين ايديكم ، والله وكذلك كان • فلما سمع الامراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض ــ « لا يكون هذا معمولية على المسلمين » • فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس علينا ، وظلت عساكر الاسلام ، كان اول سنجق سبق أحمر وابيض ، وكانوا لابسين العدد المليحة • واشرقت الشمس على تلك العدد ، فطلبنى كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل ، وقال لى «يا صارم ! هذا رنك [1] من ؟ «قلت سنقر الرومى» •

---

(١) رنك كلمة فارسية بمعنى لون وقد استعملت في اوربا في العصور الوسطى كشعار للاشخاص والاسر بينما استعملت في المشرق كشعار للوظائف وكان من عادة كل امير مملوكي كبير او صغير ان يكون له رنك يخصه ، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي شغلها الامير وقت ترقيته الى مرتبة الامرة او على الوظيفة التي يؤثر ان يعرف بها من بين الوظائف التي تقلب فيها ، وهو لا يختلف عن رنوك الاسرة الاقطاعية في اوربا في العصور الوسطى الا من حيث كونها شخصية ومن حيث دلالتها على الوظائف . فكان لوظيفة الدوادار رسم دواة ، وللساقى رسم كأس وهو المعروف في العصر المملوكي باسم هناب ، وللسلاح دار سيف ، وللبندقدار سيف ، وللجمدار بقجة وهكذا . وقد جعل الامراء هذه الرنوك دهانا على ابواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم كمطابخ السكر وشون الغلال التابعة لهم والاملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وربما جعلوها على السيوف والاقواس الخاصة بهم وبمماليكهم ايضا .

راجع (القلقشندي ــ صبح الاعشى ــ جـ٤ ص ٦١ ــ ٦٢ ، المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٦٧٣ حاشية رقم ٤ ، وكذلك :

(Fox Davies : A Complete Guide to Heraldry, p. 1—12.)

ثم ظهرت سناجق صفر ، قال « هذا رنك من ؟ » ، قلت بلبان ألرشيدي • ثم تتابعت الاطلاب اولا فاولا وانحدروا من سفح الجبل ، ودقت الكوسات والطبلخانات ، وامتلأ الوادي والبر من العياط وغابت الفلاحين واهل القرى والبلدان من كل جانب • وكنت غرا بمعرفة رنوك المسلمين ، فصار كتبغا يسألني « هذا رنك من ؟ » فصرت اي شيء طلع على لساني قلته • ثم ان التتار انحازوا الى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر الى هلاوون [1] ، ولكن قتل الجميع ولم يرد خبرهم الا من كان مقيما بدمشق او حلب » •

وتزيد المصادر العربية المعاصرة في تفاصيل هذه الواقعة على رواية صارم الدين ، فتقول بان المغول انقضوا على المصريين في بادىء الامر وتمكنوا من تشتيت شمل جناحهم الايسر ، فأضطرب المصريون وتزلزلوا زلزالا شديدا ، وبانت الكرة عليهم ، وعند ذلك القى السلطان قطز خوذته عن رأسه الى الارض وصرخ باعلى صوته « واسلاماه ! » وقاد الهجوم بنفسه ، فضرب بذلك مثلا من امثلة الشجاعة النادرة اذ سرعان ما التفت حوله القوات المصرية وحملوا على المغول حملة صادقة ، فاختل توازنهم وارتدوا الى التلال المجاورة بعد ان تركوا قائدهم كتبغا صريعا في الميدان وابنه اسيرا في ايدى المماليك [2] • ولقد عاد المغول وانتظموا ثانية عند بيسان فاشتبك معهم المصريون في معركة ثانية ، واشتدت وطأة القتال ، وعاد السلطان قطز يصيح صيحة عظيمة سمعها معظم العسكر وهو يقول « واسلاماه » ثلاث مرات ، « يا الله !! انصرعبدك قطز على التتار » [3]•

---

(١) صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرا في كتب المؤرخين المعاصرين .
(٢) انظر ــ (ابو شامة ــ الذيل على الروضتين ــ ص ٢٠٧)
(٣) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ص ٤٣١ .

عند ذلك مالت كفة النصر الى جانب الجيوش المصرية ، وانتهى امر هذه الواقعة الدامية التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة مرات ، الـى نصر المماليك وهزيمة المغول لاول مرة في تاريخهم • عند ذلك نزل السلطان قطز عن فرسه ، ومرغ وجهه على الارض وقبلها وصلى ركعتين شكرا لله ، ثم ركب لينظر عاقبة المغول [١] •

هذا ، وقد أورد القلقشندي (جـ٧ ص ٣٦٠) رسالة فريدة على لسان الملك المظفر قطز الى الملك المنصور نور الدين سلطـان الدولـة الرسولية باليمن يبشره فيها بهزيمة التتار • والرسالة قطعة ادبية في وصف المعركة من انشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر • ويعترف القلقشندي بأنه تلقفها من أفواه بعض الناس كان قد عثر عليها في بعض المجاميـع فحفظها منه • وقد رأينا نقلها كضميمة في آخر الكتاب •

ولقد كانت وقعة عين جالوت الحلقة الاولى في سلسلة الوقائع بين التتار ودولة المماليك ، كما انها تعتبر تجربة حربية خطيرة بين اسلوبـين وفنين من فنون الحرب في العصور الوسطى • ومن الواضح ان هـذه الواقعة التي انتهت بهزيمة المغول لاول مرة في تاريخهم ، بددت عقدة المناعة الحربية التي كانت سر انتصاراتهم منذ ايام جنكيزخان ، فانقشعت عن العالم خرافة الاعتقاد بان المغول قوم لا ينهزمون [٢] • على ان الاهمية الكبرى لهذه الواقعة هي انها نصر لجيوش دولة لا زالت في دور التأسيس

---

(١) راجع (المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ص ٤٣١ ، ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ٧ ص ٧٩ ، ابو الفداء ـ جـ٣ ص ٣١٤ ، عبدالله بن ايبك ـ كنز الدرر ـ جـ ٨ ق١ ص ٤٢ ـ ٤٣ ، ابن اياس ـ بدائع الزهور ـ جـ١ ص ٩٧) . وقال ابو شامة في هذا الصدد . ـ

غلب التتار على البلاد فجاءهم = من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام اهلكهم وبـدد شملهم = ولكل شيء آفة مـن جنسه
انظر (ابو شامة ـ الذيل على الروضتين ـ ص ٢٠٨)

(٢) راجع ...... (Camb. Med. Hist. vol. IV, p. 644.)

تتلمس مختلف الوسائل التى تدعم بها اركانها، فجاء انتصار المماليك في تلك الواقعة خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة ، وعاملا من العوامل المؤسسة لها ، اذ اخذ العالم الاسلامى ينظر الى الدولة المملوكية نظرة كلها اجلال وعطف . وروايات المؤرخين عن هذه الحملة التي تجاوزت تنائجها الخاطفة كل آمال المسلمين ، تشهد بفضل مصر ودولة المماليك ، فيروى الخزرجى مثلا ان المظفر نور الدين سلطان دولة بنى رسول باليمن ، حج بجيش كبير في العام التالى للموقعة اي في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وهناك في الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر . فقال له أحد الامراء : « هلا أطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل اعلام المصريين ؟ » ، فقال له سلطان اليمن : « أترانى أؤخر أعلام ملك كسر التتار بالامس ، وأقدم أعلامى لحضورى !! » [1] . هذا التصريح الجميل يدل على أن دولة المماليك في مصر قد اكتسبت عطفا ونفوذا في العالم نتيجة لهذا النصر .

ويقول ابو الفداء في هذا المعنى أيضا : « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فان القلوب قد يئست من النصرة على التتر ، لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولانهم ما قصدوا اقليما الا فتحوه ولا عسكرا الا هزموه » [2] .

ومما تجب ملاحظته كذلك ، ان نصرة عين جالوت كانت قد سبقتها نصرة سلبية ليس للمماليك أنفسهم فيها فضل ، وهى ان المقاومة الايوبية التي ظلت تعارض قيام دولة المماليك ، وتلح في المطالبة بعرش مصر دونها ، قد انهارت أمام الغزو المغولى ، وبدا على ملوك الايوبيين ضعف وتخاذل في الوقت الذي أبدى فيه المماليك ثباتا وصلاحية للبقاء .

وعلى الرغم من أنه ليس في مقدورنا ان نحكم على مصير مشروع

---

(١) انظر (الخزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ص ٦٩) .

(٢) ابو الفداء : المختصر في تاريخ البشر جـ٣ ص ٢١٤

فتح مصر بالنسبة لاوربا المسيحية التي أخذت تبنى آمالا كبيرة على انتصار المغول على المسلمين [1] ، فان بعض المؤرخين الاوربيين ذهبوا في تقدير أهمية عين جالوت الى أنها لم تنقذ مصر والشام او بالاحرى دولة المماليك فحسب ، بل انها انقذت العالم الاوربي والمدنية الاوربية من شر لم يكن لاحد من ملوك أوربا وقتئذ قبل بدفعه [2] • هذا ، ومن المعروف ان طريق الصحراء الغربية هو الطريق الطبيعي المعروف لدى الغزاة والفاتحين الذين قاموا بغزو أوربا من الجنوب في العصور المختلفة ، فلا أقل من أن يسلكه هولاكو بجحافله أيضا كما سلكه هانيبال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والاغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل وكما سلكه القائد الانجليزي منتجومرى من بعد في الحرب العالمية الثانية •

والواقع اننا اذا قارنا موقعة عين جالوت بالوقائع الحربية الحاسمة في العصور الحديثة مثل واقعة المارن في الحرب العالمية الاولى ، ومعركة العلمين في الحرب العالمية الثانية ، نجد ان عين جالوت كانت اقوى أثرا في تاريخ البشرية من كل تلك المعارك لانها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة ، بل كانت حربا أحد الطرفين فيها ــ وهم المغول ــ شعب بدائي بربرى جبل على التخريب وسفك الدماء في كل مكان حل فيه • فانتصاره في تلك الواقعة كان معناه القضاء المبرم على الحضارة الشرقية والغربية معا •

وكان نصر عين جالوت اشارة لخلاص الشام من ايدي المغول ، اذ اسرع ولاة المغول بالهرب قبل ان يقعوا في ايدى الشاميين الذين هبوا

---

(١) يشهد بذلك ما قاله اسقف مدينة ونشستر Winchester من انه يأمل في أن يفنى المسلمون والمغول بعضهم بعضا ، وعندئذ يقيم المسيحيون على أشلائهم كنيسة كاثوليكية عالمية موحدة . راجع
(Browne : A Literary Hist. of Persia, III p. 6.)

(٢) راجع (Camb. Med. Hist. vol IV, pp. 628, 643—644.)

للانتقام ، وهذا بعض السر في استيلاء قطز في عدة اسابيع على البلاد الشامية كلها حيث اقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات [١] . وقامت في مدينة دمشق ـ لما وصلتها اخبار عين جالوت ـ مذبحة كبرى [٢] في التتر ومن عاونهم على المسلمين من سكانها ، ونخص بالذكر منهم النصارى الذين تهجموا على الاسلام ، واعتدوا على المسلمين في خلال فترة الاحتلال المغولى للدينة . ولم يستتب النظام والامن في هذه المدينة الا بعد ان دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الظافرة سبتمبر سنة ١٢٦٠ م (٢٧ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) [٣] .

اخذ قطز يعمل على اعادة الامن الى نصابه في جميع المدن الشامية ، ومن سخرية الحوادث انه اخذ يعيد بعض امراء البيت الايوبي الى ممالكهم الصغيرة في الشام مثل الملك المنصور صاحب حماة ، والملك الاشرف موسى صاحب حمص ، بعد ان أخذ عليهم المواثيق بالولاء ، وبدفع الجزية [٤]. كما انه انعم على اعوانه امراء المماليك ، فاقطع الامراء الصالحية والمعزية اقطاعات جليلة بالشام [٥] ، ورتب الامير شمس الدين اقوش البرلى [٦]

---

(١) المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ص ٤٣١ و
(Lane—Poole : Hist. of Eggpt in the Middle ages, p. 262.)

(٢) انظر وصف المذبحة في (ابو شامة ـ الذيل على الروضتين ـ ص ٢٠٨ ، المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ، ص ٤٣٢ ، ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ٧ ص ٨١) .

(٣) راجع المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٣٣ ـ وانظر كذلك
(Wiet ; Op. cit. p. 411.)

(٤) راجع . . . (Lane—Poole : A Hist. of Egyptin the Middle Ages, p. 262.)

(٥) المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ، ص ٤٢٢ .

(٦) لفظ البرلى محرف عن الكلمة التركية برنولو ومعناها ذو الانف ←

العزيزي اميرا بالساحل وغزة ومعه عدة من المماليك العزيزية [1] . وأقام قطز الامير علم الدين سنجر كنائب له في دمشق . اما مدينة حلب التي اضحى صاحبها الملك الناصر الايوبى اسيرا عند التتار ، فقد منــح قطز نيابتها الى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ الذي فضل ان يترك بلاده ــ الموصل ــ عن الاعتراف بسيادة هولاكو [2] . وكان غرض قطز من تلك المنحة ، ان يصبح الملك السعيد وسيلة لتتبع حركات المغول واخبارهم عن طريق مكاتباته مع اخيه الصالح بن لؤلؤ صاحب الموصل[3]. على ان تلك المنحة أدت الى هلاك قطز ، اذ ان الامير بيبرس البندقدارى ــ الذي ابدى شجاعة في عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان نفسه ــ

الكبير او الانف الاحمر ــ (المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤٢٣ حاشية رقم ٢) .

(١) سبق ان اشرنا الى ان المماليك العزيزية هم مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب . وقد انتقلوا بعد وفاته الى خدمة ابنه الملك الناصر يوسف (راجع الباب الثالث ص ١٢٦) وفي اثناء واقعة العباسة التي دارت بين الناصر وايبك في فبراير سنة ١٢٥٤م (رجب ٦٤٨ هـ) خامر البرلى وجماعة من العزيزية على ابن استاذهم وصاروا مع ايبك . ثم انهم قصدوا بعد ذلك اغتيال ايبك ، وعلم بهم ، فقبض علــى بعضهم ، وهرب البعض الآخر . وكان البرلى من جملة من سلم وهرب الى الشام . فلما وصل الى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون . وعندما اجتاح التتار الشام ، اطلــق الناصر سراحه قبل فراره من دمشق . فالتجأ البرلى واصحابه الى مصر . واشترك في واقعة عين جالوت وكافأه قطز بعد انتصاره فولاه الساحل وغزة وصار مقره نابلس .

انظر (ابو الفداء ــ المختصر في اخبار البشر ــ جـ٣ . ص ٢١٥ ــ ٢١٦) .

(٢) ...... (Ency. of Islam, Art : Kutuz.)

(٣) ابو الفداء ــ جـ٣ ، ص ٢١٦ .

كان يطمع في نيابة حلب ، وطلبها فعلا من قطز ، فلما رفض السلطان ان يجيبه الى طلبه ، تنكر له بيبرس ، واتفق مع جماعة من الامراء على قتله وظل يترقب الفرصة لتنفيذ غرضه . ثم واتته الفرصة اثناء عودة السلطان الى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية . ففي اثناء رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطاني ، وثب عليه بيبرس في عدة من المماليك ، وقتلوه بسيوفهم في ٢٢ اكتوبر سنة ١٢٦٠ م (١٥ ذي القعـدة سنة ٦٥٨ هـ) [١] . واتفق الامراء بعد ذلك على بيبرس فاقاموه سلطانا ولقب بالملك الظاهر . ثم سار السلطان الجديد في الجيوش حتى دخل مدينـة القاهرة بلا مقاومة وجلس في ايوان القلعة بدست المملكة في ٢٦ اكتوبر (١٩ ذي القعدة) من نفس السنة [٢] .

وهكذا اغتيل السلطان قطز ، صاحب الفضـل في تدعيم الدولـة المملوكية من الناحية الخارجية ، ولم تستقبله مملكته استقبال الفاتـح المنتصر ، فحرم بذلك من لذة التمتع بثمرة انتصاره [٣] . ويروى ابـو المحاسن ان قطز « بقى ملقى بالعراء ، فدفنه بعض مـن كان في خدمته بالقصير ، وكان قبره يقصد للزيارة دائما ..... وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله ، فلما بلغ بيبرس ذلك ، امر بنبشه ، ونقله الى غير ذلك المكان [٤] ، وعفى اثره ، ولم يعف خبره [٥] . »

---

(١) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤٣٥ .
(٢) المقريزي ــ السلوك ــ جـ١ ، ص ٤٣٧ .
(٣) راجع .... (Camb. Med. Hist. IV, p. 644.)
(٤) يروى المقريزي (السلوك جـ١ ص ٤٣٥) ــ « وحمل قطز بعد ذلك الى القاهرة ، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل ان تعمر ، ثم نقله الحاج قطز الظاهرى الى القرافة ودفن قريبا من زاوية ابن عبود »
(٥) ابو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ــ جـ٧ ص ٨٦ ــ ٨٧ ، راجع ايضا (الكتبى ــ نوات الوفيات ــ جـ٢ ص ١٣٣) .

اما اسباب مصرع قطز فلا شك انها اعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس ، وان هذا الرفض لم يعد ان يكون سببا مباشرا لمقتله عند الحدود المصرية • والواقع ان تلك الاسباب قديمة ترجع الى ايام السلطان ايبك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية ، وقتله زعيمهم اقطاى ، اذ صار مماليك ايبك وهم المعزية ومنهم قطز ، اصحاب النفوذ والسلطان في مصر [1] • واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائما حتى اغار المغول على مصر ، فاضطر المماليك جميعا الى الاتحاد بدليل قول العينى ان المماليك البحرية انحازوا الى قطز المعزي « لما تعذر عليهم المقام بالشام وللتناصر على صيانة الاسلام ، لا لأنهم اخلصوا الولاء له » [2] • فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت ، ولم تبق هناك ضرورة للاتحاد ، ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد ، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحى • وهذا هو المعنى الحقيقي لما اورده ابن ابى الفضائل تعقيبا على مقتل قطز حين قال « ••••• فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية الى ما كانوا عليه من الفساد » [3] • وروى ابن اياس في هذا الصدد ـ « ولما تم امر بيبرس في السلطنة ، رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين في البلاد » [4] • كما روى في موضع آخر وكذلك المقريزي ، ان المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس

---

(١) انظر ما سبق ص ٨٥ ـ ٨٦ •

(٢) العينى ـ عقد الجمان ـ (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ ـ ٦٧٣ هـ) ورقة ٤٣٨ •

(٣) ابن ابى الفضائل ـ النهج السديد ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ ، انظر كذلك (المقريزي ـ السلوك ـ جـ١ ، ص ٤٣٧) •

(٤) ابن اياس ـ بدائع الزهور ـ جـ١ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ •

عقب عودته الى القاهرة ، فقتل بعضهم ، وسجن ونفى البعض الآخر [1] •
وهذه النصوص ان دلت على شيء فانما تدل على ان مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية •

---

(1) ابن اياس — بدائع الزهور — جـ ١ ، ص ١٠٠ ، المقريزي — السلوك — جـ ١ ، ص ٤٤٧ •

الباب الخامس

تدعيم أركان الدولة المملوكية الاولى في مصر والشام

احوال دولة المماليك عند مجيء بيبرس الى السلطنة ــ ثورة علم الدين سنجر بدمشق ــ ثورة الكورانى بالقاهرة ــ اهتمام بيبرس باعادة الخلافة العباسية في مصر ــ نجاح بيبرس في تحقيق الفكرة ــ قدوم الامام ابو القاسم احمد العباس الى القاهرة ــ المبايعة له بالخلافة ــ تلقيبه المستنصر بالله ــ تفويضه لبيبرس بالسلطنة ــ شكوك المؤرخين في صحة نسب الخليفة الجديد ــ تجهيز الخليفة الى بغداد ــ هزيمته عند هيت ووفاته ــ دعوة بيبرس الامام ابا العباس احمد للقدوم الى مصر ــ مبايعته بالخلافة بالقاهرة ــ تلقيبه الحاكم بأمر الله ــ تطور سياسة بيبرس نحو الخلافة ــ عزمه على اقامتها بالقاهرة ــ نفوذ الخليفة بالعاصمة المملوكية ــ فوائد سلاطين المماليك ومدينة القاهرة من احياء الخلافة بمصر ــ شكوك المؤرخين في نسب الخليفة الحاكم ــ اهتمام بيبرس بجمع أبناء البيت العباسى بمصر والغرض من ذلك ــ محاولة شريف مكة اقامة الخلافة بتونس بعد زوالها من بغداد ــ مبايعته المستنصر بالله سلطان الدولة الحفصية بالخلافة ــ امتداد سلطان بيبرس الى الحجاز والاراضي المقدسة لاضعاف خلافة تونس ــ تقرب بيبرس من رجال الدين ــ قدوم ملوك المسلمين الى القاهرة ودمشق لتقديم فروض الولاء لسلطان مصر ــ خطر المغيث عمر الايوبي على دولة المماليك ــ اتفاقه مع هولاكو على غزو مصر والشام ــ وعود بيبرس ومواثيقه له ــ مقابلته لبيبرس عند بيسان ــ

اعتقال المغيث ومقتله ـــ استيلاء بيبرس على مدينة الكرك ـــ محاولات بيبرس انشاء علاقات طيبة مع ملوك الدول المجاورة ـــ تحالفه مع ميخائيل باليولوج امبراطور الدولة البيزنطية ـــ تبادله الرسائل والهدايا مع ما نفرد ملك صقلية والفونسو العاشر ملك اسبانيا ـــ محالفته بركة خان القبيلة الذهبية ـــ تحالف بيبرس مع عزالدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم ـــ عناية بيبرس بتقوية جيشه واسطوله وتحصين ثغوره وعواصم أطراف دولته ـــ الاكثار من شراء المماليك القفجاق ـــ صلاحية بلاد القفجاق لنمو تجارة الرقيق ـــ موافقة الامبراطور البيزنطي على مرور السفن المصرية عبر البسفور الى البحر الاسود لجلب المماليك القفجاق ـــ تنظيم بيبرس للجيش والبريد في انحاء مملكته ـــ جهاد بيبرس للصليبيين في الشام ـــ احتلاله قيصرية وأرسوف وقلعة صفد ويافا وانطاكية ـــ اسراع بقية المدن الصليبية الى مهادنة السلطان على أساس مبدأ المناصفة في دخلها ومنتجاتها ـــ علاقة بيبرس بمغول ايلخانات فارس ـــ انتصاره عليهم عند الحدود الفراتية شرقا وفي آسيا الصغرى شمالا ـــ وفاة بيبرس وتقييم اعماله وشخصيته ـــ

الباب الخامس

تدعيم أركان الدولة المملوكية الاولى في مصر والشام

تغلبت الدولة المملوكية الاولى على البدو في مصر ، كما تغلبت على معظم أبناء البيت الايوبي بالشام ، ثم بينت للعالم مقدرتها الحربية بالانتصار على المغول في عين جالوت ، وأحاطت نفسها منذ قيامها في مصر والشام بآيات اولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الخلفاء بسلاطينها اعترافا تاما ، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم ممن عسى يفكر في انتزاع السلطنة منهم • تلك عوامل البقاء التي نعمت بها الدولة المملوكية الاولى عندما صار الظاهر بيبرس سلطانا على مصر (٦٥٨ ــ ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) ثم اضاف السلطان الجديد عوامل جديدة لا يستطيع القيام بها الا حاكم بصير موهوب قوى الشكيمة شديد العزم • وبتلك العوامل أتم بيبرس بناء الدعائم التي أقام عليها سلاطين المماليك بعده تاريخهم الطويل •

١ ــ القضاء على الثورات الداخلية :

وأول ما قابل بيبرس أثر اعلانه سلطانا ، ثورتان داخليتان في وقت واحد تقريبا أواخر سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) : احدهما بدمشق ، والاخرى في القاهرة فاستغلهما بيبرس استغلالا قوى دولة المماليك داخليا وخارجيا في آن واحد •

أما الثورة الاولى ، فمنبعها الاحتجاج على ما حدث من مقتل قطز ، والانفة مما فعله بيبرس دون اذ يستشير من تنبغى استشارته • وقام

الامير علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه قطز بدمشق ، ونادى بنفسه سلطانا على دمشق في نوفمبر سنة ١٢٦٠ م (ذى الحجة سنة ٦٥٨ هـ) ، وتلقب بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، وخطب له على المنابر ، وضربت السكة باسمه ، وأخذ في تحصين قلعة دمشق استعدادا للقتال . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل الى الامير حسام الدين لاجين العزيزي نائب حلب ، والملك المنصور الايوبى صاحب حماة ، والملك الاشرف موسى صاحب حمص ، ليدخلوا في طاعته ويشدوا أزره ، فرفضوا اجابة طلبه خشية بيبرس فيما يبدو . ولم تستطع رسل السلطان وكتبه اقناع الثائر بلزوم الطاعة ، فقرر بيبرس ان يجرد جيشا للقضاء على تلك الثورة قبل أن تستفحل ، وعاد الجيش بنائب دمشق الى القاهرة مقرنا في الاصفاد في يناير سنة ١٢٦١ م (١٦ صفر سنة ٦٥٩ هـ) حيث اعتقل بقلعة الجبل بعد شهر واحد من اعلانه الثورة ، وولى بيبرس استاذه علاء الدين البندقدارى نيابة دمشق التي انضوت منذ ذلك الوقت تحت لوائه [١] . وبذا قضى السلطان في سرعة وعزم على احدى الحركات الانفصالية في تاريخ السلطنة المملوكية ، مما برهن على سلامة دولة المماليك وصلاحيتها للبقاء .

أما الثورة الثانية فزعيمها رجل شيعى يعرف بالكوراني [٢] ، أظهر الزهد والورع ، وسكن قبة بجبل المقطم ، وتردد اليه الغلمان والركابدارية [٣] وجماعة من السودان . فأخذ يدعوهم ويحرضهم على

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٣٨ ــ ٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٢١٠

(٢) نسبة الى كوران من قرى اسفرايين . واسفرايين بلدة حصينة من نواحى نيسابور على منتصف الطريق من جرجان ، راجع (ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ، جـ٤ ص ٣١٩)

(٣) الركابدارية هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان في المواكب

قلب نظام الحكم المملوكي السني واستبداله بحكم شيعي ، واقطعهم الاقطاعات وكتب لهم الرقاع • وتمخضت تلك الدعوة أو الدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠ م (أواخر سنة ٦٥٨ هـ) ، فشق الثوار شوارع القاهرة ليلا وهم ينادون : « يا آل علي » ، وفتحوا حوانيت السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح ، واقتحموا اصطبلات الجنود ، وأخذوا منها الخيول • وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة ، فارسل من الجند ما كفل الحوطة على الثوار والقبض على جميع زعمائهم • حتى اذا خمدت الثورة ، أمر السلطان بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة (١) • وهكذا قضى بيبرس قضاء مبرما على البقية الباقية من الحركة التي ظلت تعمل على هدم السنية في مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين بدليل خلو المراجع العربية من أخبار أية حركة مشابهة في مصر أو الشام طوال العهد المملوكي الاول والثاني سواء • وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ امعان بيبرس في هدم الثورة ، مما جعل توفيقه في اخمادها جديرا بأن يعتبر عاملا من عوامل تدعيم دولة المماليك •

٢ ـ احياء الخلافة العباسية في القاهرة وما ترتب عليه من اعمال دينية ومادية :

على ان بيبرس ليس صاحب فضل على السنة في اخماد تلك الحركة الشيعية فحسب ، بل انه جعل الدولة المملوكية تبدو كذلك صاحبة فضل على العالم الاسلامي • ويظهر ذلك بوضوح في اظهار تعلقه باحياء الخلافة

وهم تابعون للركابخاناه وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه (القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص ٧ ، ١٢)

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٤٠ .

العباسية السنية المنهارة ، اذ نجم عن زوالها من بغداد مشكلة كبرى وهى في أي جهة تكو الخلافة ؟ ولمن تكون الخلافة من أبناء البيت العباسى الذين تشتتوا في بوادى العراق والشرق الادنى بعد هذه الكارثة ؟ •

والمتواتر في الكتب أن السلطان بيبرس أول من فكر في احياء الخلافة ليقيلها من عثرتها الدامية التي لحقتها على يد هولاكو وجنوده ، وليظهر أمام العالم الاسلامى بمظهر الحامي للخلافة ، وليجعل لنفسه شيئا من النفوذ والزعامة على البلاد الاسلامية ، كما يجعل من دولته الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها •

والواقع ان بيبرس ليس اول من فكر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر والشام ، وانما هو الذي نجح في تحقيقه فقط (١) ، والادلة على ذلك كثيرة ، فقد حاول احمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد الى مصر سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) حينما استبد بالخليفة أخوه وولى عهده الامير أحمد الموفق ، فأرسل اليه كتابا يقول فيه « قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ما له في عنقى من الايمان المؤكدة • وقد اجتمع عندى مائة الف عنان انجاد ، وانا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب الى مصر فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يتهيأ لاخيه (الموفق) فيه شيء مما يخاف عليه في كل لحظة » (٢) • ولا شك أن أحمد بن طولون أراد بذلك ان يدعم دولته الجديدة التي أسسها في مصر والشام ، وأن يمتنع عن

---

(١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ١٩٣٦ •

(٢) عبدالله البلوى : سيرة أحمد طولون ص ٢٨١ ، زيادة : نفس المرجع السابق •

ارسال الجزية السنوية الى دار الخلافة ، بالاضافة الى تحطيم منافسيه في بغداد • غير ان مشروع ابن طولون لم يتحقق ، اذ أن الموفق قبض على أخيه الخليفة في الموصل وأعاده الى بغداد •

كذلك حاول محمد الاخشيد نفس المحاولة حينما ذهب الى الشام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) لاغاثة الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بحلب، ومن استبداد الامراء الاتراك في بغداد ، فلقيه بالرقة في شمال الفرات، وترجل عن بعد وهو بسيفه ومنطقته وجعبته على سبيل الخدمة، وقبل الارض مرارا، ثم تقدم فقبل يده، وطلب منه ان يصحبه الى مصر، ولكن الخليفة عز عليه آخر الامر أن يترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض ، وعاد الاخشيد الى مصر ، على حين عاد الخليفة الى بغداد • ولا شك ان الاخشيد رأى ان في اجتذاب الخلافة العباسية الى مصر ما يقوى دولته التي أسسها في مصر [1]• كذلك يقال ان الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر في احياء الخلافة العباسية أوائل سنة ٦٥٨ هـ ، وأنه ما كاد يعلم من عيسى بن مهنا، أمير العربان بالاطراف الشرقية والشمالية المتاخمة للحدود العراقية ، أن أميرا عباسيا واسمه ابو العباس احمد [2] يريد القدوم الى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه اليه • لكن الناصر فوجيء بقدوم التتار الى الشام ، فانصرف عن ابى العباس ، وعاد الامير العباسي ثانية الى عيسى بن مهنا[3]• ثم ان السلطان قطز فكر سنة ٦٥٨ هـ في اعادة الخلافة الى بغداد ، بدليل أنه بعد واقعة عين جالوت استدعى الامير أبا العباس احمد المذكور الى دمشق وبايعه بالخلافة ، وقال للامير عيسى بن مهنا « اذا رجعنا الى مصر انفذه الينا لنعيده ان شاء الله » [4] ولكن السلطان قطز قتل قبل تحقيق

---

(١) ابن سعيد : العيون الدعج في حلى دولة بنى طغج ص ٤٠ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ٨ ص ١٤٨ ، زيادة : المرجع السابق •
(٢) هو حفيد الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله العباسى •
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ص ٣١٧ — ٣١٨
(٤) مفضل بن ابى الفضائل : النهج السديد جـ١ ص ٤٣٥ •

غرضه ، فعاد ابو العباس الى الحدود الفراتية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع ان يحتل بعض المدن هناك مثل عانة والحديثة والانبار وان ينتصر على سريةمن عسكر التتار •

من هذا وذاك نرى ان ملوك المسلمين قبل بيبرس رغبوا في احياء الخلافة العباسية ، وان تلـك الرغبة ظلت قائمة حتى تولـى بيبرس البندقدارى سلطنة مصر ، فشرع في اخراج المشروع الى حيز التنفيذ • ولذا أرسل بيبرس في طلب ابى العباس أحمد وكـان لا يزال بالعراق يحاول محاولته، فقدم أبو العباس الى دمشق حيث جهزه نائبها الىالقاهرة• غير أن أبا العباس كان قليل الحظ ، اذ سبقه الى حضرة بيبرس زميل آخر من أبناء البيت العباسى واسمه ابو القاسم أحمد ، ففضل هو الرجوع الى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها الثائر على بيبرس شمس الدين أقوش البرلى العزيزي (١) ، ولقبه الحاكم بأمرالله ، ثم ثم أمده بسبعمائة فارس من التركمان • فسار بهم الخليفة الى بلدة عانة على الحـدود العراقية ، لمناوشة التتار مرة أخرى •

أما أبو القاسم أحمد الذي اتفق له حظ الوصول الـى القاهرة ، فتلقاه السلطان بيبرس خارج العاصمة في يونيو سنة ١٢٦١ م (رجب سنة ٦٥٩ هـ) ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا (٢) ، وقاضى القضاة تاج الدين

(١) لم يستمر عصيان اقوش البرلى طويلا اذ تمكنت الجيوش المصرية من اخماد ثورته بحلب سنة ٦٦٠ هـ فدخل في طاعة بيبرس الذي سرعان ما تغير عليه وقتله سنة ٦٦١ هـ . راجع (ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٢١٧ ــ ٢٢٠ ، ٢٢٣) •

(٢) بهاء الدين بن حنا بكسر الحاء ، يؤثر عنه انه استدعى العالـم السكندري شرف الدين محمد البوصيري وسمع قصيدته المعروفة باسم « البردة النبوية في مدح خير البرية » وهو قائما حافيا عاري الراس . راجع (الكتبى : فوات الوفيات جـ٢ ص ٢٠٥) •

ابن بنت الاعز (٣) والعلماء والاعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ، وكان يوما مشهودا بالغ فيه السلطان باحترام الخليفةواكرامه وأنزله بقلعة الجبل . وبعد عدة أيام (في ١٣ رجب) عقد السلطان مجلسا عاما بالديوان الكبير بالقلعة حضره القضاة والعلماء وجميع رجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس ، وحضر أيضا شيخ الاسلام عزالدين بن عبد السلام ، فمثلوا كلهم بحضرة الامام العباسى ، وجلس السلطان متأدبا بين يديه . ثم استدعى جماعة من العربان والبغاددة الذين قدموا مع الامير العباسي من بغداد ، فشهدوا أمام هذا الجمع أن الامير أبا القاسم أحمد ، ابن الخليفة الظاهر أمير المؤمنين ، كما شهد بالاستفاضة من حضر من القضاة . عند ذلك أعلن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز قبوله لشهادات القوم وسجل على نفسه بثبوت النسبة الشريفة الى العباس بن عبد المطلب ، وقام فبايع أبا القاسم بالخلافة ، ثم تبعه السلطان بيبرس فبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، واخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عزالدين بن عبد

---

(١) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المعروف بابن بنت الاعز ، والعلامى نسبة الى علامة وهى قبيلة من لخم ، أما الاعز فهو جده لامه الصاحب الاعز فخر الدين وزير الملك الكامل الايوبي . ولقد درس تاج الدين بالاسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه السلطان الكامل شاهدا لبيت المال . وفي عهد الملك الصالح ايوب تولى نظر الدواوين ثم قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ ثم ولى الوزارة سنة ٦٥٥ هـ ثم عزله السلطان قطز في نفس السنة وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى اعاده بيبرس الى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية سنة ٦٥٩ هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥ هـ . راجع (السبكى : طبقات الشافعية جـ٥ ص ١٣٣ – ١٣٦، ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ١٧٦ – ١٧٨) .

السلام (١) ، وجميع من حضر المجلس من الامراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة . ولقب الخليفة الجديد بالمستنصر بالله ، وهو لقب اخيه الخليفة المستنصر (١٢٢٦ — ١٢٤٢ م) بانى المدرسة المستنصرية ببغداد (٢) . ولما تمت البيعة ، قلد الخليفة المستنصر السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما ينضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم . ثم كتب السلطان بيبرس في نفس اليوم الى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة المستنصر بالله ، وأن يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

وعلى الرغم من حرص السلطان بيبرس على اثبات نسب الخليفة الجديد في مجلس عام ، يفهم من عبارات بعض المؤرخين ان شيئا من الشك في نسبة الخليفة الجديد الى العباسيين قد ساور الكثيرين (٣) ، فيروى أبو الفداء في تاريخه تحت عنوان « ذكر مبايعة شخص بالخلافة » ، أنه في رجب سنة ٦٥٩ هـ « قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا انه ابن الامام الظاهر بالله ، ابن الامام الناصر ، فيكون عم المستعصم ... » (٤) كذلك يسمى مفضل بن أبى

(١) ورد في بعض المصادر أن اول من بايع الخليفة المستنصر هو الشيخ عزالدين بن عبد السلام ثم تلاه السلطان في المبايعة . (السيوطى : حسن المحاضرة ص ٤٤ ، السبكى : المرجع جـ٥ ص ٨٤) .

(٢) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ٢١٣ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٥١ .

مجلة آداب القاهرة سنة ١٩٣٦ .

(٣) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر ،

(٤) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٤ ص ٨ ، ويلاحظ أن ابا الفداء ولد سنة ٦٧٢ هـ أي بعد مجيء المستنصر الى القاهرة بثلاث عشرة

الفضائل هذا الخليفة باسم « المستنصر الاسود » [١] ، بينما يروى أبو شامة وهو المؤرخ المعاصر المتوفي سنة ٦٦٥ هـ عبارة لا تخلو من الشك والسخرية وهي « وفي تاسع عشر رجب قرىء بدمشق بالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس يتضمن أنه قدم عليهم بمصر أبو القاسم احمد بن الظاهر محمد ••• أمير المنافقين » [٢] • ويظهر ان هذا الشك تسرب الى العامة من الناس بالقاهرة وغيرها بدليل تلقيبهم للمستنصر بلقب الزراتيني أو الزرابيني وهو لقب غريب نسبه أبو الفداء الى لفظ زربون المستعمل في مصر للدلالة على الشخص الاسود •

وكيفما كان الامر في صحة نسب الخليفة الجديد ، فلا ريب ان بيبرس كان في حاجة ماسة الى تدعيم سلطانه بتلك المظاهرة الدينية التي قام بها في صورة احياء الخلافة العباسية متغاضيا عما يشاع عن الخليفة ونسبه • وتدل جميع النصوص الواردة في المراجع المعاصرة على أن السلطان بيبرس كان على استعداد بأن يمد الخلافة بكل ما يستطيع من جند ومال ومعونة حربية في سبيل اعادتها واقامتها في بغداد • وشرع بيبرس فعلا في تجهيز الخليفة بكل المعدات واللوازم من جند وسلاح ومال وكراع لاسترداد بغداد من التتر وارجاع الخلافة اليها • ويقال ان مبلغ ما انفق في هذا المشروع لا يقل عن ألف ألف دينار • ومما يدل على اهتمام بيبرس بمسألة

سنة فقط فيكون قد سمع اشباه هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه في السن .

(١) ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ١٠٥

(٢) راجع النسخة الخطية من كتاب (أبو شامة : الذيل على الروضتين ورقة ٢٣٥ بمكتبة البلدية بالاسكندرية ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة) اذ أن النسخة المطبوعة التي نشرها عزت العطار الحسيني ص ٢١٣ حرفت لفظ أمير المنافقين الى امير المؤمنين .

الخلافة واقامتها ، أنه خرج مع الخليفة الى دمشق • فوصلها في ذي القعدة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفي عزمه أن يضيف الى ما تجمع لديه من جند مصر ، أعدادا اخرى من جند الشام حتى يصبح عدد الجيش الخليفى عشرة آلاف فارس • غير أن أحد امراء الموصل وسوس للسلطان وهو بدمشق قائلا له « ان الخليفة اذا استقر امره ببغداد ، نازعك وأخرجك من مصر » ، فأوجس خيفة بيبرس وغير موقفه بازاء الخليفة ، واكتفى بأن جهزه بثلثمائة فارس كأنما أراد ان يلقى به الى التهلكة • وسار الخليفة بهذا العدد الضئيل من الجند الى العراق ، وفي الطريق انضم اليه أربعمائة فارس من عرب العراق من خفاجة وعبادة الذين لجأ اليهم في اول أمره ، كما انضاف اليه ستون مملوكا من مماليك الموصل ، وثلاثون فارسا من عسكر حماة • وتقدم الخليفة المستنصر بهذا الجيش الغير المتجانس الى الحدود العراقية • وهناك في موضع على نهر الفرات يسمى مشهد [1] علي أو مقام علي في لواء الدليم حاليا ، التقى المستنصر بمنافسه في الخلافة أبى العباس احمد ــ الحاكم بأمر الله ــ في سبعمائة فارس من التركمان • ويبدو أنهما اتفقا على العمل معا لاعادة الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول أبو شامة : « فانصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الاصغر وذاك الاكبر (أي المستنصر) ، ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد » [2] • ثم سارا معا الى بلدة عانة ثم الى الحديثة [3] يريدان

---

(١) مشهد على بلدة على نهر الفرات بجوار مدينة عانة في لواء الدليم وهى خلاف مدينة النجف التي بها مقام الامام على بن ابى طالب

(٢) ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ٢١٥ •

(٣) هناك عدة اماكن تحمل هذا الاسم : فهناك حديثة الموصل على نهر دجلة ، وحديثة الفرات على بعد عدة فراسخ من الانبار وهي المراد بها هنا . ثم هناك حديثة اخرى في غوطة دمشق . راجع (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٢٢٢)

بلدة هيت • فلما وصل الخليفة الى هيت أغلق أهلها ابوابها دونــه ، فحاصرها حتى فتحها آخر ذى الحجة سنة ٦٥٩ هـ (اكتوبر سنة ١٢٦١ م) ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الانبار [١] • وهناك التقت جيوش التتار بقيادة قرابغا وبهادر بجيوش الخليفة في ٢ محرم سنة ٦٦٠ هـ ، ودارت بين القوتين معركة غير متكافئة انتهت بأن احاط التتار بعسكر العباسيين وقتلوا معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الامير ابو العباس أحمد وبضعة من الامراء في نحو الخمسين فارس فقط • أما الخليفة ابو القاسم فــلم يعرف له خبر ، فيقال انه قتل في المعركة ، ويقال انه نجا مجروحا في طائفة من العرب ومات عندهم [٢] •

وكيفما كان الامر ، هيأت هذه الحوادث الفرصة للامير ابى العباس أحمد ، اذ أرسل اليه السلطان بيبرس يستدعيه الى القاهرة [٣] فوصلها في مارس سنة ١٢٦٢ م (١٧ ربيع الثانى سنة ٦٦٠ هـ) [٤] • واحتفل بيبرس بلقائه وانزله في البرج الكبير بقلعة الجبل كما صنع بالمستنصر بالله • على أن المراجع كلها تدل على أن ثمة تغييرا حل برأس بيبرس ازاء الخلافــة العباسية خلاصته ان تقام الخلافة العباسية بمصر ، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وتتجنب خطر اقامتها بعيدا في بغداد • ومما يدل

---

(١) ابن ابى الفضائل : النهج السديد جـ١ ص ٤٢٩ ــ ٤٣٠ •
(٢) زيادة : المرجع السابق •
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٤٧ ، تاريخ الخلفاء ص ٣١٨
(٤) ضبط هذا التاريخ على السيوطى (حسن المحاضرة جـ٢ ص ٤٧) وابن ابى الفضائل (المرجع ص ٤٣٤) اما المقريزي فيذكر انه ١٧ ربيع الاول سنة ٦٦٠ هـ (السلوك جـ١ ص ٤٦٨) بينما يروى ابو الفــداء (المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٢٢٤) ان وصول الخليفة الى القاهرة كان في سنة ٦٥٩ هـ • (على أن المعقول ان مجيئه كان بعد واقعة هيت التي حدثت في اوائل سنة ٦٦٠ هـ)

على هذا التغيير أن جماعة من البغاددة وهم مماليـــك الخليفة المستعصم الذين فروا من وجه التتار بزعامة مقدمهم الامير سيف الدين سلار [1] الى الحجاز ، وصلوا الى القاهرة بعد وصول ابى العباس احمد بشهر واحد فقط ، وكان حضورهم الى مصر بناء على طلب بيبرس والحاحه • كما حضر بعدهم بقليل عدة من شيوخ عشائر عبادة وخفاجة من عرب العراق [2] • وأخذ بيبرس من بعد ذلك يعمل على مبايعـــة ابى العباس بالخلافـــة ، فعقد له في ٨ محرم سنة ٦٦١ هـ مجلسا عاما بالايوان الكبير بقلعة الجبل كما حدث للمستنصر من قبل • وجاء أبو العباس فقرىء نسبه على الناس بعدما ثبت عند قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الاعز ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله • فلما تمت البيعة ، أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور العباد والبـــلاد ولقبه « قسيم أمير المؤمنين » [3] ، واخذ الناس على اختلاف طبقاتهم مبايعـــة

---

(١) أصل هذا المملوك من بلاد القبشاق ، واشتراه الخليفة الظاهر العباسي ثم انتقل الى خدمة المستعصم وترقى حتى اصبح واليا على واسط والكوفة والحلة . وبعد سقوط بغداد في يد هولاكو لجأ الى الحجاز ثم جاء الى مصر بناء على طلب بيبرس فدخلها وزملاؤه البغاددة في نصف رجب سنة ٦٦٠ هـ فاكرمهم بيبرس واعطى الامير سلار امرة خمسين في الشام ونصف مدينة نابلس ثم نقله الى امرة طبلخاناة بمصر . راجع (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٦٨)

(٢) كان مقر هذه القبائل من هيت والانبار الى الحلة والكوفـــة . ويلاحظ ان هذه البلاد حتى مقتل الخليفة المستعصم كانت بيد الامير سيف الدين سلار الذي كتب الى من تأخر من خشداشيته والى اصحابه مـــن خفاجة واخبرهم بما ناله من الاحسان على يد السلطان بيبرس فلحقوا به كما في المتن . راجع (ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٠ ، المقريزي: السلوك جـ١ ص ٤٧٦)

(٣) يعتبر بيبرس اول من لقبته الخلافة بهذا اللقب ، اذ كان الملوك المسلمون قديما يلقبون بألقاب تقل عن هذا اللقب مكانة مثل مولى امـــير

الخليفة الجديد ، وخطب له من منابر مصر والشام [١] .

وهكذا احييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة . غير ان بيبرس لم يفكر في اعداد هذا الخليفة الثاني لاسترجاع بغداد واقامة الخلافة العباسية بها ، بل عزم على أن يكون مقامه بالقاهرة حيث يكون على مقربة منه وتحت عينه . ولم يرد السلطان بذلك ان يخلق في عاصمته سلطة دينية او سياسية بجانب سلطته ، بل قصد أن تكون الخلافة سندا للدولة المملوكية في أرجاء العالم الاسلامي ، وأن يكون الخليفة شخصية نافعة لاغراض دولة المماليك وما تحتاجه من الحماية الروحية ، ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر في تلك المرة ان يقرن اسم الخليفة باسمه على السكة كما فعل سابقا بالمستنصر بالله ، وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترزا عليه ، ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة فقط . وعلى هذا الاساس لم تكسب الخلافة العباسية في احيائها الاكسبا زائفا ، اذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت في وضع مهان تقريبا : يعملون في دوائرهم الضيقة ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويزينون مجالس السلطان للوفود والسفراء. ولم تتدخل الخلافة في شئون الدولة المملوكية الا قليلا ، ولم يأمن لها سلاطين المماليك في يوم من الايام ، بل أبقوا الخلفاء سجناء تقريبا في دور أقيمت لهم خصيصا في أبراج القلعة أو مناظر الكبش [٢] .

المؤمنين اي عتيقة ، او خادم امير المؤمنين . فان زيد في تعظيمه لقب ولى امير المؤمنين ثم صاحب امير المؤمنين ثم خليل امير المؤمنين وهو أعلى ما لقب به ملوك بنى ايوب . أما لقب بيبرس « قسيم امير المؤمنين » فهو اجل من تلك الالقاب . راجع (السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٦٦)

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٧٧ — ٤٧٩

(٢) راجع (زيادة : المرجع السابق) وكذلك

(Armold : The Caliphate p. 99 — 102.)

أما الذين استفادوا من ذلك الاحياء فسلاطين المماليك والقاهرة عاصمتهم ، اذ صار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت الى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م يفرضون لانفسهم مقاما ساميا على ملوك العالم الأسلامى وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان ، لانهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعا باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها (١) . وفي ذلك يقول ابن شاهين الظاهري : « ... ولا يطلق لفظ سلطان الا لصاحب مصر نصره الله ، فانه الان اعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الاولين والاخرين ، وتشرفه من امير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعي بعقد الائمة الاربعة (٢) . »

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٩ ويلاحظ ان لفظ سلطان ظهر اول الامر في أواسط آسيا واستخدمه الغزنويون والسلاجقة وغيرهم من الاتراك كرمز للسلطة الزمنية . ثم انتقل بعد ذلك الى مصر أيام الايوبيين . ومن العجيب ان صلاح الدين رغم انتصاراته الباهرة لم يحمل لقب سلطان حسب الوثائق التي لدينا وأن كان يبدو ان هذا اللقب قد اطلق عليه شفويا على السنة العامة ، فسمى بسلطان الاسلام والمسلمين . وبعد وفاة صلاح الدين شاع استخدام هذا اللقب بين خلفائه حتى عم امراء الاسرة الايوبية أيضا الى أن جاء سلاطين المماليك فقصروا هذا اللقب على انفسهم وجعلوا من دونهم ملوكا وامراء . راجع

(Wiet : Histoire de la nation Egyptienne IV p. 335—336 ; Précis de l'hist. d'Egypte p. 225.)

(٢) يقصد ابن شاهين بالائمة الاربعة ، قضاة المذاهب السنية الاربعة ، اذ كان القضاء بمصر في العصر الفاطمى قائما على المذهب الاسماعيلي الى ان جاء الوزير ابو على احمد بن الافضل في اواخر العصر الفاطمى فرتب في الحكم اربعة قضاة يحكم كل واحد بمذهبه ويورث بمذهبه : قاضى للشافعية وقاضي للمالكية وقاضي للاسماعيلية وقاضى للامامية . وهو بهذه المحاولة اراد الحد من نفوذ المذهب الاسماعيلي . وفي العصر الايوبي صار القضاء للشافعية فقط واستمر كذلك الى ان جاء السلطان الظاهر ←

أما القاهرة ، فقد تمتعت تتيجة لذلك الاحياء بشهرة دينية وعلمية واسعة ، اذ صارت مركز الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول جلال الدين السيوطى : « الايمان والعلم يكونان مع الخلافة اينما كانت ، فحين صارت مصر دار خلافة ، عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » [1] • وبالاضافة الى شهرة القاهرة الدينية والعلمية ، فهناك شهرتها التجارية التي جعلت هولاكو يسميها « كروان سراى » في احدى رسائله [2] ، أي محط الرحال والمتاجر والمال ، اذ أصبحت بفضل قيام الخلافة بها مركزا لنشاط تجاري واسع فضلا عن نشاطها القديم •

على ان الخليفة العباسي الثاني أبا العباس احمد ، لم يسلم كذلك

بيبرس فأدخل تعديلا جوهريا على النظام القضائي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) اذ أنه لم يشأ ان يترك قاضى القضاة الشافعية يتحكم وحدة في جميع الشئون لقضائية لما في ذلك من اجحاف ببقية المذاهب . لذلك جعل القضاء في يد اربعة قضاة يمثلون المذاهب السنية الاربعة ، وأجاز لهم أن يولوا نوابا عنهم بانحاء البلاد ، على ان يحتفظ قاضى قضاة الشافعية بالاشراف على احوال اليتامى والاوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال . وهكذا ظل قاضى القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ثم يليه الحنفى فالمالكى فالحنبلي . وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون صار المالكي يلى الشافعي وتأخر الحنفى عن المالكي في الرتبة . راجع (السبكي : طبقات الشافعية جـ٥ ص ١٣٣ — ١٣٦ ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٢١ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٩٢ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٣٩ — ٥٤٠ ، سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية ص ١٥٢ ، محمد المناوى : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى ص ١٦٩ ، المقريزي الخطط ص ٢٠٦ ، رحلة ابن بطوطة جـ١ ص ٢٥)

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٦٦

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٢٧ — ٤٢٩

من شك بعض المؤرخين في نسبه ، كشكهم السابق في نسب الخليفة المستنصر ، فيوجد في تاريخ أبى الفداء تحت سنة ٦٦١ هـ عبارة بشأن الخليفة الحاكم لم تخل من الغمز واللمز ونصها : « وفي أواخر ذى الحجة من هذه السنة ، جلس السلطان الملك الظاهر مجلسا عاما وأحضر شخصا كان قد قدم الى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد ان أثبت نسبه وبايعه بالخلافة ، ولقب احمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين • » (١)

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تنته بمبايعة الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) اذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قدم شخصان على السلطان بيبرس وهو بدمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) ادعى احدهما أنه مبارك بن الخليفة المستعصم ، يريد بذلك أنه احق بالخلافة من الحاكم بأمرالله • وذكر الثانى — وكان أسود اللون — أنه من أولاد الخلفاء • وقد تبين للسلطان كذب الاثنين ، فسيرهما الى مصر « تحت الاحتياط » (٢) • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل وفد على السلطان في نفس السنة أيضا (٦٦٤ هـ) على بن الخليفة المستعصم وكان أسيرا عند التتار (٣) • ولم يعلق المؤرخون على هذه الحوادث بشيء ، مما يرجح أن الشكوك التي انتشرت وقتذاك حول نسب الخليفتين ، ادخلت في روع بعض الناس انهم يستطيعون القيام بدور المستنصر والحاكم ، أو لعل السلطان بيبرس أراد من وراء اولئك الاشخاص أن يهيمن على الخليفة الحاكم بتهديده بخلعه ومبايعة خليفة آخر كلما حدثته نفسه بالتدخل في

---

(١) ، (٢) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية اداب القاهرة المجلد الرابع سنة ١٩٣٦ •

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٥٤

شئون الدولة ، او لعله اراد ان يجمع أبناء البيت العباسى بمصر ــ ان كانوا من أبناء البيت العباسى حقا ــ ليتجنب خطر التجاء بعضهم الى أحد ملوك المسلمين فيقيمه خليفة ، مثلما فعل أقوش البرلى في حلب مع الخليفة الحاكم من قبل •

على أن موضع الاهمية هو أن بيبرس نجح في اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واضاف بذلك الى مجموعة العوامل المساعدة في تأسيس الدولة المملوكية • يوضح ذلك ان دولا وشخصيات أخرى اسلامية حاولت ان ترث الخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد سنة ١٢٥٨ م ، ونعنى بذلك الخلافة الحفصية بتونس •

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون الى الشيخ ابى حفص يحيى ابن عمر الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة احدى بطون مصمودة التي قامت على اكتافها دولة الموحدين • وكان هذا الشيخ الحفصى من كبار القائمين بدعوة المهدى بن تومرت ، ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والاندلس • وقد ازدادت هذه الصلة ارتباطا حينما تزوج ولده عبد الواحد أخت الخليفة المنصور الموحدى ، وصار حاكما على البلاد التونسية سنة ٦٠٣ هـ [١] (١٢٠٦ م) • ولما هزم الموحدون بالاندلس امام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وانهار نفوذهم في المغرب والاندلس بعد هذه الكارثة ، اعلن الامير ابو زكريا بن عبد الواحد الحفصى استقلاله بحكم افريقية عن خلافة بنى عبد المؤمن في مراكش سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ولكنه مع ذلك

(١) راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ١٢٠ وما بعدها) •

اقتصر على لقب الامير لدرجة أنه زجر الشاعر الذي مدحه بأمير المؤمنين[١] • على ان هذه الامارة الحفصية لم تلبث ان تحولت الى خلافة في عهد ولده ابى عبدالله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين [٢] (٦٤٧ ـ ٦٧٥ هـ = ١٢٤٩ ـ ١٢٧٧ م) ولقد استند الحفصيون في اعلان خلافتهم الجديدة الى الاسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد ، كالاصل العربى والنسب النبوى الى جانب قرابتهم للموحدين • فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب • وعمر كما هو معروف من أشراف قريش وكانت اليه السفارة في الجاهلية ، وقد تزوج النبى ابنته حفصة • فالحفصيون بحكم هذا الاصل القرشي ، وهذا النسب النبوى ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لان يرثوا خلافة الموحدين المنهارة • وقد حرصوا على الاعتزاز بهذا الاصل ، واظهاره في كل مناسبة ، ونجد ذلك واضحا في أقوال كتابهم وشعرائهم التي أطلقت على دولتهم اسم العمرية والفاروقية [٣] او كقول ابن خلدون في قصيدة يمدحهم بها :

---

(١) راجع (ابن ابى دينار : المونس في اخبار افريقية وتونس ص ١١٨ ، محمد الباجى المعودي : الخلاصة النقية في امراء افريقية ص ٦١)

(٢) هناك خلاف حول تاريخ اعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس : فالزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٦) يجعله في ٢٤ ذى الحجة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٣ م) بينما يجعله محمد الرعينى القيروانى المعروف بابن ابى دينار (المؤنس في اخبار تونس ص ١٢٠) في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م)عقب سقوط خلافة بغداد في ايدى المغول . ويبدو ان راي الزركشى هو الاصح نظرا لاتساع نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة اهل المغرب والاندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية .

(٣) انظر (Brunschvig : Le Berberie Oriental Sous Les Hafsides, II, p. 18.)

قوم ابو حفص اب لهم وما ادراك ! والفاروق جد أول (١) •

ولقد جاء اعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، اذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) • وعقب ذلك أرسل الامير ادريس شريف مكة (٢) ، وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصي المستنصر بالله ، واعتبروه وريثـا للخلافـة العباسية المنهارة •

ولا شك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية ، لانها أكسبتها أساسا شرعيا وهو الاشراف على الحجاز ، « أصل العرب والملة ، ومقر الحرمين الشريفين » (٣) • وفي ذلك يقـول المستشرق السويسري ماكس فان برشم : « ان الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين في الوقت الذي اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئا من هيبة الخلافة العباسية » (٤) •

ولقد شعرت مصر بخطورة اهداف هذه الخلافة الجديدة التي تقع على حدودها الغربية ، لان السياسة المصرية كانت تهدف دائما الى مد سلطانها على الحجاز لاسباب دينية وسياسية واقتصادية اهمها السيطرة على البحر الاحمر وتجارته • فجميـع الحكام الذين استقلـوا بمصر كالطولونيين والاخشيديين والفاطميين ، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ، ثم سار الايوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقبوا

(١) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٣٥.

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ١٧٨ •

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٧ تحت عنوان اللقب بأمير المؤمنين •

(٤) راجع (Wiet : Précis de l'histoire d'Égypte, II, p. 250; Hist. de la nation Egyptienne tome IV p. 437; Ency. of Islam. art. Hafside.)

أنفسهم بلقب « خدام الحرمين » ، وبقى هذا اللقب للمماليك والعثمانيين من بعدهم [١] .

وسار السلطان بيبرس في هذا السبيل أيضا وأظهر فيه نشاطا كبيرا ، اذ رأى ان سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع سياسة مصر التقليدية نحو الحجاز ، ولهذا عمد الى احياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١ م) وكان هدفه من ذلك انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة العباسية على الحجاز والبحر الاحمر [٢] .

على أن الشيء الذي يدعو الى الالتفات في هذا الصدد هو أن اللقب الذي اتخذه الخليفة العباسى الاول في القاهرة وهو « المستنصر بالله » ، هو نفس اللقب الذي اتخذه الخليفة الحفصي بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين كان مجرد مصادفة او توارد خواطر بقدر ما كان نوعا من التحدى والمنافسة . وقد يؤيد ذلك ان بعض الامراء الطامحين استغلوا هذا التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس لتحقيق مآربهم الشخصية . فيروى ابن خلدون مثلا انه في سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) ثار والى طنجة المدعو ابن الامير ، وخطب الخليفة الحفصى صاحب افريقية ، ثم خطب للخليفة العباسي في القاهرة ، ثم خطب لنفسه وانتهى الامر بقتله سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) [٣] .

وكيفما كان الامر ، فالمهم هنا ان السلطان بيبرس أخذ في تنفيذ سياسته الحجازية عمليا ، فقام اولا بعدة اصلاحات بالحرم النبوى الشريف

---

(١) ، (٢) راجع (Gaston Wiet : Précis ... II p. 250 ; Histoire ... IV p. 437.)

(٣) ابن خلدون : العبر جـ٧ ص ١٩٦ ، السلاوى : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى جـ١ ص ١٧ .

وأرسل الكسوة الى الكعبة (١) ، كما أرسل الصدقات والزيت والشموع والطيب .. الخ (٢) . واخيرا أدى بيبرس فريضة الحج سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩) ، فأظهر خشوعا وكرما لا ينتهى (٣) ، ولكنه لم ينس مصالحه السياسية اذ أزال أنصار الحفصيين وجعل الخطبة في في الحجاز للخليفة العباسي ثم لسلطان مصر بعده (٤) ، كما أقام الامير شمس الدين مروان شبه مندوب له الى جانب شريف مكة (٥) . وجملة القول قوى نفوذ سلطان مصر في الاراضي الحجازية ، وصار يرمز لذلك النفوذ بالخطبة والسكة (٦) وارسال الكسوة الى الكعبة في كل عام . وكان كل ذلك من عمل بيبرس ، وهو في مجموعة من عناصر تدعيم الدولة المملوكية داخليا وخارجيا .

هذا ، ولم يكتف بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين ، بل امر سنة ١٢٦١ م بارسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس ، وجدد مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام (٧) ، وأخرج ما كان في اقطاعات الامراء من اوقافه (٨) ، كما امر سنة ١٢٦١ م ببناء مشهد على عين جالوت عرف

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٠٢ ، ٥٤٤

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥١٢

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٨١ — ٥٨٢

(٤) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٠٤

(٥) ، (٦) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٧٩

(٧) قبر ابراهيم الخليل ومسجده في بلدة الخليل بفلسطين واسمها الاصلي حبرون وهى قرب بيت المقدس . راجع (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٤٢٨)

(٨) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٤٥ — ٤٤٦ ، ٥٠٢ .

بمشهد النصر (١) ، تخليدا لذكرى ذلك الانتصار العظيم الـذي حققه المسلمون هناك .

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أخذ في بناء المساجـد وتأسيس المدارس ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦٠ (١٢٦١ م) بدأ في بنـاء مدرسته المشهورة على انقاض احدى قاعات القصر الكبير الفاطمي . وتم بناء هذه المدرسة سنة ٦٦٢ هـ (٢) (١٢٦٣ م) . وبالرغم من تهدم تلك المدرسة في عهد المقريزي نفسه (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م) ، فان الجزء الاكبر منها ظل باقيا حتى سنة ١٨٧٤ م ، عندما اخترقها الشارع الممتد من ميـدان بيت القاضي الى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون . وتهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢ م ولم يبق منها اليوم الا كتلة مساحتهـا ١١/٥ مترا (٣) .

وتقرب بيبرس الى العلماء ورجال الدين ، ويؤثر عنه انـه زار الاسكندرية أربع مرات ، وأنه كان يترك بها في كل زيارة أثرا يدل على اهتمامه بها مثل تحصين أسوارها ، وتقوية اسطولها ، وتطهير خليجهـا من الرمال الذي طمرته ، وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القبارى (٤) ، والشيخ الشاطبى (٥) . وبتلك الوسائل الوسائل وغيرها

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٤٦ ، العينى : عقد الجمان ، الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ — ٦٧٣ هـ ورقة ٤٥٨ .

(٢) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٣٧٨ ، على مبارك : الخطط التوفيقية جـ١ ص ٢٩ ، جـ٦ ص ٩ .

(٣) راجع (Creswell : The Madrasa ôf Baibars, Op. cit. p. 131—132.)

(٤) هو الشيخ ابو القاسم محمد بن منصور المالكي الاسكندراني المعروف بالقباري نسبة الى صناعة القبار أي حفر القبور ودفن الموتى ،

تزعم بيبرس العالم الاسلامى شرعا وعرفا ، وقدم ملوك المسلمين الـى القاهرة ودمشق للقيام بخدمته وتقديم فروض الطاعة والتبعية لشخصه ، مما ضمن قيام دولة المماليك على أسس ثابتة (١) .

٣ ــ التخلص من العناصر الايوبية المناوئة :

لم يبق بعد ذلك من المشاكل التي واجهت بيبرس وهددت دولـة

وتطلق كلمة القبار ايضا على مساعد صائد السمك (السلوك جـ١ ص ٤٤٩) أخذ القبارى عن الشيخ الحسن الشاذلي مؤسس الطائفة الشاذلية ، وأقام بمزرعة صغيرة يزرعها ويعمل فيها بيده ويقتات منها . وكان يكلم الناس من طاقة منزله . ويقال ان السلطان بيبرس عندما زاره لـم يتمكن مـن الطلوع اليه ولم يكلمه الا وهو في البستان والشيخ في عليته وقد نصحه بتحصين أسوار الاسكندرية . وتوفي القبارى بظاهر الاسكندريـة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ولا يزال يطلق اسمه على الحى الذي كان يعيش فيه هناك . راجع : (ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ٢٣١ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٢٣ ، السندوبى: ابو العباس المرسى ومسجده ص ٢٠)

(٥) هو الشيخ الزاهد ابو عبدالله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى الاسكندري ، وأصل هذا الشيخ من مدينة شاطبة Jàtiba في شرق الاندلس ثم هاجر الى الاسكندرية وعاش فيها ايام السلطان الظاهر بيبرس. وقد اشتهر بالعبادة والتقوى ومات ودفن بها سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) وقبره يزار بالقرب من مبنى ادارة جامعة الاسكندرية في الحى المعروف باسمه . وهو غير الشيخ ابى القاسم الرعينى الشاطبى الـذي عاش في القاهرة في عهد صلاح الدين الايوبي ، وعين استاذا في المدرسة الفاضلية والف كتبا كثـيرة في تفسير القرآن وقراءاته السبـع ، ونخص بالذكـر قصيدته المشهورة بالشاطبية في القراءات وهى في ١١٧٣ بيتـا . وتوفي بالقاهرة ودفن بقرافتها سنة ٥٩٠ هـ . راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٣ ص ٢٣٤ ، المقرى : نفح الطيب جـ٢ ص ٢٢٩ ، السندوبى : ابـو العباس المرسى ص ١٢٨) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٩٧ ــ ٣٩٩ .

المماليك سوى بقايا الايوبيين على الرغم من اعلان المنصور صاحب حماة ، والاشرف موسى صاحب حمص ولاءهما لبيبرس • ذلك ان الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك [1] ، لم يقلع يوما عن مناوأة سلاطين المماليك منذ عهد ايبك التركماني ، اعتقادا منه انه أحق منهم في ملك مصر والشام • فلما جاء بيبرس الى السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر وازالته [2] وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع لولا ان المغيث بعث برسالة الى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة الى بيبرس يشفع فيه ، فقبل الشفاعة ، وابقى على المغيث والكرك معا [3] • غير انه يبدو ان المغيث ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطنتهم ، فكتب الى هولاكو سرا يحضه على فتح الشام ، ويطلب اليه أن يقيمه عليها ملكا تابعا [4] ، ولكن بيبرس علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين هولاكو والمغيث عمر • ويقال ان هذه المكاتبات لم تحدث ، وان بيبرس اختلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الايوبي المناوئين لسلطانه [5] • ومهما يكن

---

(١) يروى ياقوت (معجم البلدان جـ٤ ص ٢٦١ ــ ٢٦٢) ان هناك ثلاثة امكنة تسمى بالكرك : الاولى قرية في جنوب لبنان ، والثانية قلعة خصينة في البلقاء وسط الجبال بين بحر القلزم (الاحمر) وبيت المقدس وهى المقصودة هنا ، والثالثة قرية بالقرب من بعلبك .

(٢) يعزو ابو الفداء (المختصر في اخبار البشر جـ٣ ص ٢٦٦) هذا العداء الى اعتداء وقع من المغيث على امراة الظاهر بيبرس بالكرك .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٠

(٤) انظر (Blochet : Histoire des Sultans Mamlouks p. 382)

(٥) يقول ابن واصل في هذا الصدد (مفرج الكروب جـ٢ ص ٤١٤): وفيها (اي سنة ٦٦١ هـ) استقبل الظاهر بيبرس الملك المغيث استقبالا رائعا ثم قبض عليه ، وأخرج فتوى يبرر فيها عمله بان الملك المغيث كان على اتصال بهلاوون الذي وعده بوعود حسنة منها : « قد اقطعتك من بصرى

من شيء ، فقد عمد بيبرس الى السياسة والمداراة ، فأرسل الى عمر رسالة أكد له فيها الايمان والمواثيق ، وأنه يرعى ذمتـــه ولا يمسه بأذى [1] ، وطلب اليه الحضور الى معسكره بفلسطين • وعلى الرغم مـــن تشكك المغيث في مواثيق بيبرس ، فانه اضطر الى الذهاب الى حضرة بيبرس في معسكره عند بيسان حتى لا يبدو جاحدا لحسن المعاملة ، ناكرا لجميل الخليفة والسلطان • وفي جمادى الاولى سنة ٦٦١ هـ (مارس سنة ١٢٦٣م) وصل المغيث عمر الى الدهليز السلطاني عند بيسان ، فقابله بيبرس واكرم وفادته ، وساق الى جانبه حتى قارب الدهليز ، وهناك قبض عليه واعتقله • ثم جمع بيبرس مجلسا حضره كبار الامراء الشاميين وقاضي قضاة دمشق المؤرخ شمس الين بن خلكان ، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين هولاكو ، كما أحضر القصاد الذين حملوا تلك الكتب ، ثم أخرج بيبرس فتاوى الفقهاء بوجوب قتل المغيث عمر [2] ، وأرسله مصفدا في الحديد الى القاهرة حيث قتل في ابريل سنة ١٢٦٣ م [3] ، واستولى بيبرس على الكرك في نفس السنة ، وعين بها واليا من قبله • وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوىء لها من ناحية الايوبيين •

الى غزة » ثم يعده بامداده بالجيوش والفرسان لكى يفتح بها مصر . وبهذه الكتب برر الملك الظاهر قبضة على المغيث .

(١) يقال ان بيبرس حلف للمغيث أربعين يمينا من جملتها الطلاق من أم الملك السعيد . ويقال انها بعد ذلك استحلت بمملوك ، ولم ير ذلك المملوك بعدها . راجع (مفضل بن ابى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٠)

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٥٠ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٨٢ ، ٤٩١ — ٤٩٢ .

(٣) يروى ابو الفداء (المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٢٢٦) ان المغيث حمل الى امرأة الظاهر بيبرس التي قيل انه اعتدى عليها بالكرك ، بقلعة الجبل ، فأمرت جواريها فقتلنه بالقباقيب .

٤ ــ محالفات بيبرس مع الدول الاوربية :

لم يكن من المنتظر ان يقف بيبرس عند هذا الحد من التمكين للدولة المملوكية في الداخل والخارج ، وهو يعلم ان المغول سوف يتحركون لمسح عار عين جالوت ، وأن الصليبيين سوف يعملون كذلك على اثارة ملوك أوربا الى مثل ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا اواخر ايام الايوبيين ، وان في هذين الخطرين أحدهما او كلاهما ما يعرض الدولة المملوكية للزوال . لهذا عمد الى عقد المحالفات مع الدول الاوربية وغيرها استعدادا لذلك الخطر المزدوج :

فحالف ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaeologus امبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢ م (٦٦٠ هـ) ، وارسل اليه ــ بناء على طلبه ــ بطريقا من الملكانية ليشرف على الملكانيين [١] في دولته . وكان صحبة هذا البطريق ــ واسمه الرشيد الكحال ــ الامير فارس الدين أقوش المسعودي ، وعدة من الاساقفة . فلما وصلوا القسطنطينية ، احتفى بهم الامبراطور واكرمهم ، واطلع الامير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه [٢] في عاصمته كي يصلي فيه المسلمون من التجار والصناع

---

(١) ملكانيون جمع ملكاني Malkaniy وهي كلمة سريانية ، وتقابلها في العربية ملكيون وملكي Melkites وباليونانية Basilikoi اي ملكي. وقد اطلق اسم ملكانية على المسيحيين العرب الذين انضموا الى الكنيسة البيزنطية متبعين مذهب الامبراطور الرسمي . راجع :

(Concise Encyclopaedia of Arabic Çivlization p. 361.)

(٢) بنى مسلمة بن عبد الملك هذا المسجد في سنة ٧١٤ م (٩٦ هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك على اثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد بالقسطنطينية . وقد هدمه الصليبيون اثناء غاراتهم على القسطنطينية . ويقال ان صلاح الدين حاول تجديد بنائه فلم يجبه ←

وغيرهم المقيمين أو المارين ببلاده . ولما علم بيبرس بما قام به الامبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد ، امر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد ... الخ (١) .

كذلك حالف السلطان بيبرس امبراطور الدولة الغربية وملك صقلية ونابلى منفرد بن فردريك الثاني هو هنشتاوفن ، وأرسل له في اوائل حكمه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) هدية من جملتها عدد من الزراف وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم التترية وعدتهم ، فاعجب الامبراطور بالهدية ، وأحسن الى الرسل واكرمهم . وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموى الكبير جمال الدين بن واصل الذي أمدنا بعض أخبار تلك السفارة في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب » حيث يقول : « توجهت رسولا الى منفريد من السلطان الاعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — رحمه الله — في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة، فأقمت عنده مكرما بمدينة منمدائن ابنولية (٢) يقال لها برلت (Barletta) ، واجتمعت به فوجدته متميزا محبا للعلوم العقلية ،يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس في الهندسة . وبالقرب من البلد التي كنت نازلا بها مدينة تسمى لوجارة (Lueera) أهلهم

البيزنطيون الى ذلك . (ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٢ ، العيني : عقد الجمان ورقة ٤٨١) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ، القريزي : السلوك جـ١ ص ٤٧١

(٢) يريد بذلك مقاطعة ابوليا في جنوب ايطاليا .

كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية [١] ، وتقام الجمعة فيها ، ويعلن فيها بشعائر الاسلام ، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الامبراطور [٢] ، وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع انواع العلوم النظرية. واكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون ، ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة » [٣] . ويضيف الصفدي في ترجمته لابن واصل ان منفرد قال لجمال الدين في مجلسه : « يا قاضي أنا ما عندي ما أسألك عنه في الفقه والعربية ثم سأله ثلاثين سؤالا في علم المناظر (البصريات) ، فبات تلك الليلة وصبحه بالجواب عنها ، فصلب الانبرور على وجهه وقال : « هكذا يكون قسيس المسلمين ، لان القاضي لم يكن معه كتب في تلك السفرة وانما أجابه عن ظهر قلب » [٤] . كذلك ألف ابن واصل أثناء اقامته في ايطاليا رسالة في المنطق سماها « الرسالة الانبرورية » وأهداها الى منفرد [٥] .

وتروى المصادر الاسبانية المعاصرة أن ملك قشتالة الفونسو العاشر

---

(١) يروى المؤرخون ان الامبراطور فردريك الثاني نقل معظم عرب جزيرة صقلية الى مدينة لوجارة Lucera في ابوليا جنوبي ايطاليا سنة ١٢٤٩ م وكان ذلك على اثر مصادمات عنيفة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية ، فنقلهم الامبراطور معه الى مدينة لوجارة حيث كان يقضي اغلب اوقاته متخذا اياهم حرسا أمينا له . راجع (مارتينو ماريو مورينو : المسلمون في صقلية ص ٢٥) .

(٢) يقصد الامبراطور فردريك الثاني الذي كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين ، وفضله في نشر الثقافة العربية في اوربا حديث الكتاب والمؤرخين في كل عصر .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب (مخطوطة باريس) ص ١٢٢ أ ، جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ٢ ص ٢٠٦ — ٢١٤ .

(٤) ، (٥) الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص ٢٥١ ، جمال الدين الشيال : نفس المرجع السابق .

المعروف بالعالم (١) El Sabio أرسل الى السلطان بيبرس البندقداري ــ وتسميه Alvandexaver ــ هدية من الخيول العربية الاصيلة ، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) • وقد رد عليه بيبرس بهدية مماثلة من بينها زرافة ، وسن فيل ، وتمساح محنط لا يزال الى اليوم معلقا في مدخل الباب الشرقي لكتدرائية اشبيلية ، Puerta del Lagarto وتضيف الروايــة ان السلطان بيبرس طلب الزواج من ابنة الملــك الاسباني الفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق (٢) •

ولم تقتصر مساعي بيبرس على ملوك اوربا فحسب ، بل حالف أيضا خان القبيلة الذهبية Golden Horde (٣) أو مغول القبشاق ، واسمه بركة خان ، وهو اول من اعتنق الاسلام من اولاد جنكيزخان ، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقا الى شمال البحر الاسود غربا ، وتعرف بــلاد القبشاق او القفجاق ، وعاصمتها مدينة صراي Sarai في شمال غرب بحر قزوين •

---

(١) سمي بالعالم او الحكيم لانه اشرف على كتابة الحولية التاريخية الكبرى في تاريخ اسبانيا PrimeraCronica General de Espana واستعان على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين المسيحيــين ، واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية والبيزنطية واللاتينية وعلى جميع الحوليات الاسبانية السابقة . كذلك نشطت حركــة الترجمة في طليطلة في عهد هذا الملك الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء .

(٢) راجع (Sacheverell Sitwell : Spain p. 21) وكذلــك (بدرو مونتابث : علاقة قشتالة بمصر في القرن الثالث عشر الميلادي ، من الابحاث التي القيت في عيد القاهرة الالفى) ، عبد العزيز سالم : القصور الاسلامية في الاندلس (سلسلة اقرأ) .

(٣) يقال ان هذه التسمية ترجع الى لون مخيماتهم .

فالسلطان بيبرس تحالف مع عاهل هذه الدولة الاسلامية المغولية بركة خان وتبادل معه البعوث والهدايا (١٢٦١ ــ ١٢٦٣ م) كما تزوج ابنته ، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة (١) . ولا شك ان هذا الحلف كان موجها بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك المثل في دولة ايلخانات فارس التي يحكمها هولاكو واولاده ، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز او مراغه (٢) ، فيروى المقريزي ان بيبرس أخذ يحرض بركة خان على قتال هولاكو ويرغبه في ذلك (٣) .

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل حالف في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) سلطان السلاجقة الروم عزالدين كيكاوس بن كيخسرو ، ووعده بالمساعدة ضد أخيه ركن الدين قلج أرسلان وضد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى . وأرسل بيبرس جنوده الى دمشق وحلب استعدادا لتأييد السلطان عزالدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول (٤) .

ومن الواضح ان المعاهدات التي ابرمت والسفارات التي تبودلت بين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٩ ، مفضل بن ابى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٤٥٤ ــ ٤٦٢ .

(٢) راجع (Barthold : Histoire de Turcs D' Asie Centrale p. 138. adaptation francaise par Madame Danskis)

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٦٥

(٤) راجع تفاصيل النزاع بين بين هذين الاخوين وتدخل هولاكو في آسيا الصغرى في (ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٥ وكذلك مقدمة ناشر الكتاب بلوشى (Blochet : Hist, des Sultans Mamlouks p. 385.)

راجع كذلك (ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠١ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٦٩) .

سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا ، جعلت دولة المماليك في شيء من الامن مما يهدد كيانها من ناحية المغول والصليبيين، وان كان من المعروف ان خلو عهد بيبرس من حملة صليبية على مصر انما يرجع لانصراف الدول الاوربية الى شئونها ومشاكلها في الغرب ، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده انما يرجع الى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيزخان وهولاكو في البلاد الشرقية على الاقل .

٥ ـ تحصين الاطراف والثغور والعناية بالبريد :

لم يعوز الدولة المملوكية بعد ذلك دعامة من دعامات القوة والبقاء سوى تأمين حدودها ضد الغزو الخارجي ، وتنظيم جيوشها وتقوية اسطولها استعدادا لما يتطلبه مركز الزعامة في العالم الاسلامي من هجوم او دفاع ، ولذا كان ما قام به بيبرس في هذا المضمار من اهم ما تحتاجه الدولة للقيام على أساس متين . واول ذلك ان السلطان جند العشائر العربية سنة ١٢٦١ م (٦٥٩ هـ) وهي العشائر المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة وحثهم على قتال هولاكو بعد ان غمرهم بالخلع والهدايا والاموال (١) . ويقال ان هؤلاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت اغاراتهم ابواب مدينة بغداد (٢) .

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل أمر نوابه بحلب سنة ١٢٦٢ م (٦٦٠ هـ) باحراق المروج والاعشاب التي جرت عادة هولاكو ان يعسكر

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٦٥ ، ٤٨٠ ، ٥٠١ ـ ٥٠٢ ، ٥١٠ ـ ٥١٢ ، وكذلك :

(Wiet : Le Sultan Baibars, Revue du Caire, t. III, 1939 — 1940, p. 418)

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥١٠ ـ ٥١٢ .

على مقربة منها أثناء هجومه على الشام . فجهزت القداحات والصوفات وآلات النار سرا ، واحرقت تلك المروج جميعها ، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد الى خلاط . وبذا قطع بيبرس على هولاكو وجنوده السبل والطرق المؤدية الى الشام [1] . وقد شرح لنا كل من العمرى والقلقشندي طريقة هذا الاحراق بقوله : « كان من عادة التتر انهم لا يكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها الى ما تنبت الارض ، فاذا كانت تلك الارض مخصبة سلكوها ، واذا كانت مجدبة تجنبوها ، وكانت أرض هذه البلاد مخصبة تقوم بكفاية خيل القوم اذا قصدوا بلادنا ، فاذا احرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك الدفع عن مباغتة الاطراف ومهاجمة الثغور . وكان طريقهم في احراقها ان يجهزوا اليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد ، فيكمنون عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الاودية ، ويرتقبون يوما تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع ، تعلق النار موثقة في أذناب تلك الثعالب والكلاب ، ثم تطلق الثعالب ، والكلاب في أثرها وقد جوعت ، لتجد الثعالب في العدو ، والكلاب في الطلب ، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات ، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره ، مع ما يلقيه الرجالة بأيديهم في الليالي المظلمة ، وعشاء الايام المعتمة » [2] .

ثم امر بيبرس سنة ١٢٦٣ م بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص الى حوران ، وزودها بالمؤن والذخيرة ، فأقام بذلك خطا تحصينيا من شرق الاردن الى نهر العاصي ، فضلا عن أبراج المراقبة التي أقامها على

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦ ، وكذلك :
(Wiet : Le Sultan Baibars, Revue du Caire, III, 1939—1940, p. 422.

(٢) راجع (العمري : التعريف ص ٢٠١ ، القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٤٠١)

طول الاطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج [1] •

كذلك اهتم بيبرس بعمارة سلسلة المناور او المنائر التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة • وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يرابط فيها الحراس والمرابطون ليل نهار • فاذا كشفوا عدوا مقبلا من البر كالمغول، أو من البحر كالصليبيين ، اشعلوا النار على قمم هذه المناور اذا كان الوقت ليلا ، او أثاروا فيها الدخان اذا كان الوقت نهارا • ثم سرعان ما تنتقل هذه الاشارات النارية او الدخانية من منارة الى اخرى تحذر الاهالى الى أن تصل الى العاصمة • فهي تشبه صفارات الانذار في وقتنا الحاضر • وكثيرا ما استعمل المنورون اشارات نارية او دخانية بطرق او حركات معينة للاخبار عن حالة العدو او عدده او جنسيته او غير ذلك • وان كانت المراجع للاسف لم تشرح لنا طريقة ارسال هذه الاشارات •

ولعل الوصف الذي اورده ، المقدسي (ق ٤ هـ) ، والعمري (ق ٨هـ) عن دور هذه المناور في مقاومة الصليبيين والمغول ، يعطينا فكرة عن أهميتها الدفاعية في الشرق العربي • فيقول المقدسي : « وكفر سلام من قرى قيسارية كبيرة آهلة ، بها جامع على الجادة ، ولهذه القصبة رباطات على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار . وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ، ويذهبون في الرسالات ، ويحمل اليهم أصناف الاطعمة ، وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم فان كان ليلا اوقدت منارة ذلك الرباط ، وان كان نهارا دخنوا ، ومن كل رباط الى القصبة عدة منائر شاهقة ، قد رتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الاخرى ، فلا

---

(١) انظر (Wiet : Précis de l'histoire d' Egypte, II, p. 252—253; Le Sultan Baibars, Revue du Caire, III, p. 419.)

يكون ساعة الا وقد انفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودى الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة » (١) •

اما العمرى فيصف مناور الجبهة الشرقية المواجهة للمغول بقولــه : « والمناور هي مواضع رفع النار في الليل ، والدخان في النهار • وذلك ان مملكة ايران لما كانت بيد هولاكو من التتــار ، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة ، ان جعلوا اماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ، ويثار الدخان نهارا ، للاعلام بحركة التتار اذا قصدوا دخول البلاد لحرب او اغارة • وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون على أبنية عالية • ومواضعها معروفة (٢) مــن اقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة ، الى حضرة السلطان بقلعة الجبــل ، حتى ان المتجدد بالفرات ان كان بكرة علم به عشاء ، وا نكان عشاء علم به بكرة • ولما يرفع من هذه النيران او يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك • وقد ارصد في كل منور الدياد بـوالنظارة ، لرؤية ما وراءهم وايراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة (٣)•

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أمر في سنة ١٢٦٤ م بتجديد بنــاء القلاع التي على الحدود الفراتية ولا سيما قلعة البيرة التي أرسل اليها

(١) المقدسي : كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧٧ ، نشر دي خويه (ليدن ١٩٠٦) •

(٢) اورد العمرى والقلقشندي اسماء تلك المواضع . راجع (العمرى : التعريف ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ ، القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٣٩٩)

(٣) العمري : نفس المرجع والصفحة ، القلقشندي : نفس المرجع ص ٣٩٨ •

آلات القتال والاسلحة من مصر والشام ، وعبأ فيها كل ما يحتاج اليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين (١) كي تظل شوكة في جنب المغول .

اما في مصر فان السلطان أمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخورا عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبيين وتتكرر مأساة دمياط من جديد، كما شيد برجا للمراقبة في رشيد، وعمر أسوار الاسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها (٢) .

على ان بيبرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعيــة لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة في تلقي الاخبار واصدار الاوامر ، ولهذا وضع للبريد (٣) نظاما ربط به جميع انحاء مملكته بشبكة مــن خطوط البريد البرية والجوية . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبــل بالقاهرة ، ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الــى انحاء المملكة ، واليها ترد الرسائل من الحكام ، والتقارير من ولاة الاعمال

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٢٥ .

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص١١١، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص٨٤

(٣) البريد نظام يتعلق بأمن الدولة مثل نظام المخابرات اليوم ، مهمته التجسس على عمال الدولة واعدائها وابلاغ العاصمة كل ما يقع في الولايات من أحداث . فهو اذن بريد الدولة وليس بريد الجمهور مثل البوستة اليوم. ويقال ان اصل كلمة بريد لاتيني بيزنطي Veridus ثم انتقل هذا النظام الى الدولة الاسلامية في عهد معاوية بن ابى سفيان نقلا عن الروم في الشام .

واطلق لفظ البريد في اول الامر على الدابة التي تركب لمهمة رسمية ثم اطلق على الراكب نفسه ثم على المسافة التي يقطعها الراكب وهذه على حسب تقدير علماء المسالك والفقهاء اربعة فراسخ . ولما كان الفرسخ اربعة اميال ، فان مسافة البريد تكون ١٢ ميلا على هذا الاساس .

وعامل البريد كان يسمى ايضا بصاحب البريد كما كان يسمى في الهند بملك البريد على حد قول ابن بطوطة . اما في المغرب والاندلس فكان يطلق عليه اسم الرقاص . ولا شك ان ادارة البريد بما فيها من سجلات وقوائم باسماء المحطات وتقدير المسافات ، قد اعطت الرحالة والجغرافيين العرب مادة خصبة في كتاباتهم الجغرافية المعروفة باسم المسالك والممالك .

والنيابات في سرعة وانتظام [1] ، حتى صار البريد يصل من دمشق الى القاهرة ومن القاهرة الى دمشق في ثلاثة أيام [2]، ولم يتأت ذلك الا بعد ان انفق بيبرس اموالا ضخمة في سبيل ترتيبه [3] . وزود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج اليه عمال البريد من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه او وجود قرية بجوارها كي يستأنسوا بها [4] . وأعد في كل مركز منها خيولا لا يسمح بركوبها الا بمرسوم سلطاني [5] . وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفايات والذكاء لابلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ، وكانت لهم مكانة محترمة . ويشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الانشاء ، اذ عهد اليه حفظ الواح [6] البريد بالديوان . فاذا خرج بريدي الى جهة من الجهات ، اعطى لوحا من تلك الالواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وايابه .

---

(١) كان يتفرع من قلعة الجبل اربعة طرق برية يمتد احدها جنوبا الى قوص بالوجه القبلي وما يلي ذلك من بلاد النوبة ، وآخر شرقا الى عيذاب وسواكني على البحر الاحمر ، وثالث غربا الى الاسكندرية وبرقة ، ورابع شمالا الى دمياط ومنها الى غزة حيث يتفرع البريد الى سائر البلاد الشامية . راجع (القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٣٧٢–٣٨٣) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة بيبرس الاول .

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٤٦ – ٤٤٧ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ١ ص ١٠٨

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٣٧٢

(٥) ابن اياس : نفس المرجع جـ١ ص ١٠٨

(٦) كانت هذه الالواح من الفضة وقد نقش على احد وجهى كل لوح منها عبارة : لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون – ضرب بالقاهرة المحروسة . وعلى الوجه الاخر :

« عز لمولانا السلطان .... سلطان الاسلام والمسلمين »

راجع (القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٣٧١)

ولم يقتصر الامر على البريد البرى ، فهناك أيضا ما نستطيع ان نسميه بالبريد الجوي ونعني بذلك الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة • وكان لهذا الحمام ابراج خاصة بالقلعة ومراكز معينة في سائر انحاء المملكة مثل مراكز البريد البرى ، لكنها تزيد عنها في المسافة • فاذا نزل الحمام في مركز منها ، نقل البراج الرسالة التي بجناحه الى طائر آخر ليوصلها الى المرحلة التي تليها وهكذا • وكان الايجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل ، اذ يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات والالقاب الكثيرة ، ويكتفي بذكر التاريخ والساعة وايراد المطلوب في صيغة مختصرة [1] • وكان الخط المستعمل في هذه الرسائل هو المعروف باسم « الغبار » لانه دقيق صغير يشبه ذرات الغبار • لهذا كان حجم الرسالة في بعض الاحيان لا يزيد طولها عن سلامية الاصبع •

مما تقدم نرى ان النظام الدقيق الذي وضعه بيبرس للبريد كان من الضروريات الحربية اللازمة للوقوف على كل ما يتجدد في انحاء مملكته فيأخذ حذره ويستعد للطوارىء •

٦ ـ تقوية الاسطول والجيش :

ولم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند هذا الحد ، بل عمل على انشاء قوة بحرية يستعين بها في صد اعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر • ويعتبر بيبرس في الواقع هو مؤسس اسطول المماليك ، اذ يشير المقريزي الى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل ، والى اهتمامه بدور صناعة السفن التي في الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة ، والاسكندرية، ودمياط، لدرجة انه كان يشرف بنفسه على بناء الشواني [2]،

(١) القلقشندي : نفس المرجع جـ١٤ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٤
(٢) راجع (المقريزي : الخطط جـ٢ ص ١٨٠ ، ٢٩٧) •

وتجهيزها بالآلات ، ولعبها في البحر [1] ، ويسوق المقريزي في هذا الصدد رواية طريفة تدل على مبلغ ــ عناية بيبرس بالاسطول ، وهي ان رسل ملك قبرص جاءت الى السلطان بيبرس سنة ٦٧٠ هـ للشفاعة في صاحب عكا ، فوجدته جالسا في الصناعة بين الاخشاب ، والصناع والامراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد ، فراعهم ما شاهدوا [2] .

وقد حرص بيبرس على توفير أعواد الخشب التي تصلح لبناء السفن فمنع الناس من شرائها . ويفهم من كلام المؤرخين امثال الاسعد بن مماتى (ت ١٢٠٩ م) وعثمان بن ابراهيم النابلسي (ت ١٢٥٨ م) والمقريزي (ت ١٤٤٢ م) أن حراج السنط acacia التي كان خشبها يستخدم في بناء السفن ، والتي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا ، وصعيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء على عهد الفاطميين والايوبيين [3] ، قد أخذت تقل تدريجيا منذ اواخر العصر الايوبي ، وأن العوام والخواص صاروا يقطعون منها ما يحتاجونه من السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في بيوتهم ومعاصرهم بالجمل الكثيرة [4] بحيث لم ينته القرن الثالث عشر

---

(١) الشوانى جمع شينى او شوني او شونة وهي من أهم القطع التي كان يتألف منها الاسطول ، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها ابراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكانت هذه الابراج مكونة من عدة طبقات ، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام ، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف ، وتحتوي على مخازن لخزن الطعام ، ومستودعات لخزن المياه .

(٢) المقريزي : الخطط جـ١ ص ٦٠١

(٣) الاسعد بن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٥ ــ ٣٤٧ .

(٤) عثمان بن ابراهيم النابلسي : كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص ٤٥ ــ ٦٠ منشور في مجلة (Bulletin Dètudes Orientales Tome XVI annes 1958—1960, Damas 1961.)

الميلادي الا وكانت حراج الدلتا حول القاهرة في المطرية وقليوب والجيزة قد اختفت تماما ، ثم تلتها حراج الصعيد في البهنساوية والاشمونين واسيوط واخميم وقوص ، فاختفت هي الاخرى في اواخر القرن الرابع عشر الميلادي وتحولت الى اراضي زراعية ، ثم يأتي المقريزي في القرن الخامس عشر فيؤيد ذلك بقوله : « وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الايدي على تلك الاشجار فلم يبق منها شيء البتة » [١] .

من هذا نرى ان مصر حينما حكمها الظاهر بيبرس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، لم يكن يوجد بها الا بقايا مبعثرة من حراج السنط في الوجه القبلى ، وحول مدينة السويس في صحراء سيناء [٢] ، وهي في مجموعها لا تكفي حاجة الدولة . وقد يؤيد ذلك ان بيبرس احتكر الخشب المحلى الصالح لبناء السفن ومنع الناس من بيعه او شرائه [٣] ، كما انه اضطر الى قطع شجر الجميز Sycamore بجزيرة الروضة لاستخدام خشبه — رغم قلة جودته — في بناء اسطول جديد عوض الاسطول الذي كان قد سيره الى جزيرة قبرص وتحطم هناك على سواحلها سنة ١٢٧١ م[٤] . ولعل العبارة التي وجهها بيبرس الى ملك قبرص في احدى رسائله ، ويقول

---

(١) المقريزي : الخطط جـ١ ص ١١٠ ، جـ٢ ص ١٩٤ ، وكذلك
(Aly Bahgat : Les Forets en. Egypte, Bulletin de l' Institut Egyptien, Le Cairc 1900.)

(٢) سعيد عاشور : مدينة السويس منذ الفتح العربي الى بداية العصر الحديث ص ٧٧ (الفصل الثاني من كتاب تاريخ السويس سلسلة بلادنا . (القاهرة ١٩٦٦) .

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٤٧

(٤) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ١٨٥

فيها : « وأنتم خيلكم مراكب ، ونحن مراكبنا الخيل » (١) ، تـدل على العجز الذي كانت تعانيه البحرية المملوكية في أهم خاماتها ، وهو الخشب . وكيفما كان الامر ، فان بيبرس عمل على تلافي هذا العجز باستيراد الخشب والحديد من آسيا الصغرى (٥) وايطاليا ، وتمكن بذلك من اعداد اسطول من خمسين قطعة (٣) .

ولم يكن اهتمام بيبرس بتقوية جيشه أقل من اهتمامه بالمسائـل الحربية السالفة الذكر ، ولذا اكثر من شراء المماليـك مـن بني جنسه القفجاق (٤) ، اذ « مالت الجنسية الى الجنسية » على قول القلقشندي ، ووقعت الرغبة في الاستكثار من القفجاق على عهد بيبرس ، « حتى اصبحت مصر بهم آهلة المعالم ، محمية الجوانب ، منهم زعماء جيوشها ، وعظمـاء

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٩٤ حاشية ٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ص ١٩١ .

(٢) يروى ابن بطوطة (ق ١٤ م) ان مدينة العلايا الواقعة على ساحل الاناضول كانت كثيرة الخشب ومنها يحمل الى الاسكندرية ودمياط (رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص ٢٥٧) كذلك يروى ابن اياس انه جرت العادة ان يخرج جماعة من الامراء والجند في عدد من المراكب الى مكان يسمى الجون او اللجون لاحضار الاخشاب على العادة ، ومن المرجح ان المقصود بالجون هو مدينة ببر Babar التركية الواقعة على ساحل الاناضول (آسيا الصغرى) راجع (ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٣٧ حاشية ، بدائع الزهور جـ٢ ص ١٨٢)

(٣) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٤٧ .

(٤) المعروف ان بيبرس ولد ببلاد القفجاق او القبشاق سنة ١٢٢٣ م (٦٢٠ هـ) وقضى بها شطرا من حياته الاولى انى ان بيع لاحد النخاسين على أثر هجوم المغول على تلك البلاد في سنة ١٢٤٢ م (٦٤٠ هـ) . راجع (دائرة المعارف الاسلامية ، مادة بيبرس الاول) .

أرضها ، وحمد الاسلام مواقفهم في حماية الدين حتى انهم جاهدوا في الله اهليهم » (١) .

وبينما يروى القلقشندي أن معظم هؤلاء المماليك من أجـلاب القبشاق وهو لفظ يدل على القبيلة الذهبية GoldenHorde، يروى المقريزي أنهم اتوا بالاخص من بلاد تركستان . ونستطيع ان نوفق بين الروايتين في سهولة لان القبيلة الذهبية تملكت على جزء من تركستان وهو شمال خوارزم وأراضي السهوب الشمالية ، ولهذا سماها القلقشندي « مملكة توران خوارزم والقبشاق » (٢) . واذا سلمنا جدلا بأن هؤلاء المماليك من أصل تركستانى ، فانهم في الواقع اتوا الى مصر من بلاد القبشاق جنوبي الفلجـا .

وكيفما كان الامر فالراجح ان حسن العلاقة بين بيبرس وبركة خان سهلت الحصول على أولئك المماليك القفجاق دون غيرهم . غير ان الحصول على هؤلاء المماليك تتطلب الوصول الى السواحل الشمالية للبحر الاسود في سهولة ، واستطاع بيبرس بسفاراته وهداياه ان يحصل من الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوج على اذن لمرور سفينتين مصريتين مشحوتين بالمماليك عبر البسفور الى البحر الاسود ذهابا وايابا مرة في السنة (٣) . ثم ان بلاد القفجاق كانت أصلح البلاد للحصول على أعداد كثيرة مـن

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص ٤٥٨

(٢) القلقشندي : نفس المرجع جـ٤ ص ٤٦٩ ، وكذلك

(Poliak : La Caractere Colonial de l'État Momelouk dans ses rapports avec la Hordc D ' Or. Revue des Etudcs Islamiques 1935, Cahier III p. 231—233.)

(٣) انظر Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen age, tome II p. 556—557.)

المماليك ، اذ كانت شعوب تلك الجهات بدائية رحل يصيفـون بأرض ويشتون بأخرى لقلة المراعي الدائمة وقسوة المناخ ، ويعانون ضيقا في العيش ونقصا في المواد الغذائية . وكان من الطبيعي أن يبيع بعض الاهالي أولادهم وبناتهم او يستبدلونهم بالغلال لسد جوعهم [١] . يضاف الى ذلك ان القفجاق كانوا يغيرون على جيرانهم من الشراكسة والروس والمجر واللان، ويأسرون منهم ما استطاعوا للبيع فيأسواق النخاسة البيضاء [٢]. ومن ثم صارت قاعدة مملكتهم مدينة صراي [٣] Sarai فرضة عظيمـة للتجار ورقيق الترك والشراكسة والروس والمُجر واللان [٤] ، وهذا هو بعض السر في كثرة الاجناس التي تكونت منها الطبقة المملوكية في مصر . ومن هذه الاجناس التي كثر فيها عنصر القفجاق ، ملأ بيبرس صفوف جيشه حتى بلغت عدته أربعين ألف فارس [٥] .فيحدثنا المؤرخون في هذا الصدد ان جماعات من مغول القفجاق وفدت مستأمنة الى مصر في عهد بيبرس

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص ٤٥٧ ــ ٤٥٨ ، وكذلك :
(Heyd : Op. eit. II p. 556).

(٢) راجع (Heyd : Op. cit. II, p. 557.)

(٣) كانت صراي تقع في شمال غرب بحر قزوين . وقد تم بناؤها في عهد بركة خان . وتصفها الروايات العربية بانها مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد ، وفيها طوائف مختلفة من الناس مثل الروس والمغول والروم والشركس ، كل طائفة منهم تسكن على حدة . كان التجار الغرباء من أهالى العراق ومصر والشام وغيرها يقيمون في مكان خاص محاط بسور حفظا على أموالهم وبضائعهم . ولما انتشر الاسلام في تلك الجهات ، صارت هذه المدينة مقصد العلماء والادباء امثال قطب الدين الرازي ، وسعد الدين التفتازاني ، وغيرهما . راجع (الرمزي : تلفيق الاخبار جـ١ ص ٤١١ ــ ٤١٣ ، القلقشندي جـ٤ ص ٤٥٧) .

(٤) القلقشندي جـ٤ ص ٤٥٧ .

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٩٧

وانضمت الى جيشه • وسميت تلك الجماعات بالوافدية والتتر المستأمنة : وصل منهم أول الامر مائتي فارس سنة ١٢٦٢ م (اواخر سنة ٦٦٠ هـ) ثم ما يزيد عن الالف وثلاثمائة فارس بعائلاتهم في سنة ١٢٦٣ م هذا خلاف اعداد أخرى جاءت الى مصر سنة ١٢٦٤ م (١) •

وقد رحب بيبرس بهؤلاء الجند ، وخلع عليهم واكرمهم وانزلهم في دور بنيت لهم خصيصا بالقرب من اللوق بظاهر مدينة القاهرة وقتذاك ، ثم أمر كبراءهم ، وانزل باقيهم في جملة بحريته ومماليكه (٢) • وجلب هؤلاء التتار معهم نظمهم وعاداتهم التي كان لها أثر كبير في النظم المملوكية بدليل قول المقريزي : « ثم كثرت الوافدية ايام الملك الظاهر بيبرس ، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم وطرئقهم (٣)• وعلى هذا الاساس تكون جيش المماليك من عدة فئات من الغرباء يقودهم قائد منهم يعرف بأتابك العسكر • وكلمة أتابك ، كما اسلفنا ــ معناها الامير الاب ثم صارت تعنى قائد الجيش على اعتبار أنه ابو العساكر ، اذ

---

(١) راجع (ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٤٠٦ ـ ٤٠٧ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٧٣ ــ ٤٧٤) وكذلك (Poliak : La Caractere Colonial de l'Etat mamelouk, R. E. I. 1935, Cahier III, p. 233.)

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٠٠ ــ ٥٠١

(٣) المقريزي : الخطط جـ٢ ص ٢٢١ ويضرب بولياك مثلا على ذلك بقوله : « اخذ المماليك المبادىء الاساسية الاقطاعية من الامبراطورية المغولية • ومن ثم صارت قوانينهم الاقطاعية لا يبت فيها بواسطة القضاة ووفق احكام الشريعة الاسلامية ، وانما بواسطة الحجاب وعلى أساس احكام جنكيزخان ــ الياسة ــ راجع (Poliak: Some Notes on the Feudal system of the Mamlouks. J. R. A. S. 1937 p. 97.)

أن هذا المعنى يتفق مع طابع دولة المماليك التي اعتمدت في المقام الاول على العلاقة بين الاستاذ ومماليكه (١) • اما الفئات التي تكون منها الجيش فهي كالآتي :

المماليك السلطانية : وهم عبارة عن مماليك السلاطين السابقين ثم مماليك السلطان القائم الذين يجلبهم لنفسه ، ولهذا عرفوا باسم الاجلاب والجلبان ، ومنهم طائفة الخاصكية .او الاحداث ، وتمتاز عن بقية المماليك السلطانية بانضواء افرادها وهم صغار السن في خدمة السلطان ، فهو الذي يتولى تربيتهم وعتقهم • وكانت المماليك السلطانية اعظم الجنود شأنا وأشدهم الى السلطان قربا وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم تؤمر الامراء (٢) •

جند الحلقة : وهم من محترفي الجندية من اولاد المماليك ، وقد عرفوا ايضا باسم « اولاد الناس » ، فهم على هذا الوضع احرار وليسوا من المماليك • وهم كثرة الجيش وعامته في حالة الحرب ، وأصحاب حرف وصناعات في وقت السلم • ولكل أربعين نفسا مقدم منهم ليس له عليهم حكم الا اذا خرج الجيش الى الحرب ، فهم أشبه باحتياطي الجيش وبمضي الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر ، كذلك كان يوجد جند حلقة في الشام ، يؤخذون من أهل الشام ، ويوزعون على نياباتها •

مماليك الامراء : وهم يشبهون المماليك السلطانية غير انهم تابعون مباشرة لامرائهم ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الامراء

---

(١) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ص ١٤٤ •
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٥ •

مع السلطان في حروبه [1] .

وهكذا كان تحصين بيبرس للثغور والعواصم المملوكية باطراف الدولة ، وتنظيمه للجيش وفئاته ، وعنايته بالاسطول والبريد ، من آهم الدعائم اللازمة لاقامة الدولة المملوكية على أسس ثابتة ، والدليل على ذلك أن بيبرس استطاع بفضل ذلك الجيش والاسطول والتحصينات ، أن يقوم بالدور الذي حلا له ان يقوم به ، وهو محاكاة صلاح الدين الايوبي في الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم في الشام وفي النوبه فضلا عن جهاد المغول .

٧ ـ جهود بيبرس في مكافحة الخطر الصليبي :

اولا : الامارات الصليبية في الشام .

سبقت الاشارة الى أن اقامة الملك لويس التاسع في فلسطين كانت توافق الايام الاولى لقيام دولة المماليك حينما كانت مطالبة الايوبيين بعرش مصر على أشدها والحرب قائمة بينهم وبين المماليك . واستطاع لويس التاسع بدهائه ان يستغل هذا النزاع لصالحه ، وان يصلح في هدوء ما أحدثته هزيمةالمنصورة . وبفضل هذه السياسة المرنة تمكن لويس التاسع من اطلاق عدد كبير من أسرى جيشه ، والغاء ما تبقى عليه من أموال الفدية فضلا عن حصوله علي وعد من السلطان ايبك بتسليمه بيت المقدس اذا ما انضم الى جانبه ضد الايوبيين . ثم جاء تدخل الخليفة العباسي الذي حسم النزاع بين الطرفينالمتنازعين مخيبا لآمال الصليبيين المستعمرين .

(١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص ١٥ ــ ١٦ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ١٢٢ ، ص ٢٨١ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ص ١٥٠ . وكذلك (Demombynes : La Syrie a l' epoque des mamelouks p. XXX.)

واضطر لويس التاسع ان يعود الى بلاده خائب السعى سنة ١٢٥٤ م بعد ان فشل في تغيير الاوضاع السياسية في فلسطين وتدعيم مركز الصليبيين فيها ، وان كان قد استطاع باقامته هناك ان يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين في الشام بعد ان انقطعت عنهم سبل الامدادات العسكرية من أوربا • والفترة التي تلت رحيل لويس التاسع الى ان تولى بيبرس سلطنة مصر والشام (١٢٥٤ — ١٢٦٠ م) كانت فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب انشغال كل فريق بمشاكله الداخلية التي فصلنا الكلام عنها في الفصول السابقة •

على أن هذا الموقف لم يلبث ان تغير تماما في عهد بيبرس وخلفائه ، اذ نجد ان السياسة المصرية نحو الصليبيين في الشام تتسم بطابع العنف والقسوة • والسبب في ذلك يرجع الى ان الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ، ويعملون كأدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الاراضي الشامية • وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي اتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية واحاطة المغول علما بها مما سهل عليهم احباط خطط المسلمين في كثير من الاحيان • ولم يقتصر الامر على ذلك النحو ، بل نجد أن بعض الامارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري او الدفاع المشترك ضد المسلمين • ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت ارادتها على الصليبيين في كثير من الاحيان ، وصارت تملى عليهم ارادة الخان المغولي المقيم في تبريز او مراغة او بغداد •

ومهما يكن من شيء فان هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام ، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي اتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين اذ عز عليهم ان يكونوا مراقبين من الفرنج

لحساب المغول ، فصمموا على طردهم من الشام [١] •

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية ، ويفهم من كلام المقريزي ان بيبرس ذهب بنفسه الى الشام سنة ١٢٦٣ ، وكانت حركاته وقتئذ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعا استراتيجيا خاصا ، وعندما سارعت اليه وفود الامارات الصليبية تطلب منه السلام والمهادنة ، قابلها بمنتهى الجفوة مما يدل على تصميمه على القتال [٢] •

وفي اوائل سنة ١٢٦٥ م دخل بيبرس في عمليات حربية واسعة النطاق ضد الامارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينة قيسارية ثم على مدينة ارسوف في جنوبها • وفي السنة التالية ١٢٦٦ م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة في الشام وهي قلعة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الاستيلاء عليها • ويقال ان بيبرس استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر بقتل حماتها لاسباب غامضة ، مما جعل المصادرة الصليبية تتهمه بالخيانة والغدر • ولا مجال للكلام هنا عن الخيانة والغدر مع أناس مثل الصليبيين كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل وحسبنا أن تتصفح أخبارهم لنجد أمثلة مشابهة كثيرة في هذا المجال •

---

(١) راجع (مفضل بن ابى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ ـ ١٩٥ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٨٤ ، ٦٠٠) وكذلك

D' Ohsson : Histoire des Mongols, III p. 496, 543.)

(٢) قال بيبرس لرسل الصليبيين : « ردوا ما اخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فانى لا اقبل غير ذلك » ثم طردهم من مجلسه . راجع (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١١٤) •

وكيفما كان الامر ، فان سقوط قلعة صفد في يد المسلمين قد أصاب الصليبيين بضربة قاسية ، وحطم معنوياتهم الى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت الى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها [١] ولعل من أطرفها تلك الهدنة التي ابرمت بين السلطان بيبرس وبين ملكة بيروت ازابيلا Isabella بنت الملك جون الثاني ابلين John II Ibelin ، التي تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة ، وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت D'Ibelin [٢] .

وقد خلفت ازابيلا أباها بعد وفاته سنة ١٢٦٤ م على بيروت وجبالها (لبنان) باعتبارها ابنته الكبرى . وكانت هذه الملكة قد تزوجت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل أن يعقد عليها . وحاول خليفته هيو الثالث الوصي على قبرص ان يستغلها كوريثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق ولكنه لم ينجح [٣] . وذلك لان الملكة ازابيلا عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) مدتها عشر سنوات . وقد أورد القلقشندي نصوص هذه الهدنة ، وهي في مجموعها مفيدة لانها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها فضلا عن أنها تدل على ما كان للسلطان بيبرس من نفوذ في تلك

---

(١) راجع امثلة على ذلك في (القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٤٢ ــ ٥١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٥٠) .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٣٥ تحقيق قسطنطين زريق .

(٣) أنظر (Steven Runciman: A History of the Crusades Vol 3 p . 326,342 - 343)
& Grousset : Hist, des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, III p. 569)

البلاد (١) . ويضيف ابن الفرات في تاريخه ان هذه الملكة كانت كلما عزمت على السفر ومغادرة بيروت ، ذهبت الى السلطان بيبرس بنفسها واستودعته بلادها الى ان تعود (٢) .

وفي سنة ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ) استولى بيبرس على مدينة يافا في اقصى الجنوب ، ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة الى أهم امارة صليبية وهي انطاكية في اقصى الشمال . فيروى المؤرخون انه هاجمها بثلاث فرق : احداها اتجهت الى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين انطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنع وصول امدادات من أرمينية الصغرى ، والثالثة ، وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس ،

---

(١) راجع نصوص هذه الهدنة في القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٣٩ وما بعدها ، وقد أوردناها كضميمة في آخر هذا الكتاب نظرا لاهميتها .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص٣٥ . ونضيف على سبيل الاستطراد ان هذه الملكة تزوجت سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م) رجلا انجليزيا يدعى هامو الغريب Hamo L'estrange كان من اتباع الامير الانجليزي ادوارد (ادوارد الاول ملك انجلترا فيما بعد) ووهبته نفسها ومملكتها . على أن هذا الزوج لم يلبث أن مات في العام التالي ، ويبدو انه كان لا يثق في نوايا هيو الثالث ملك قبرص فأوصى قبيل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان بيبرس . ولما علم هيو الثالث بذلك أقدم على محاولة جريئة وهي اختطاف الملكة ازابيلا كي يزوجها في قبرص من الشخص الذي يختاره لها . ولكن السلطان بيبرس احتج على هذا العمل وهدد بضرورة تنفيذ وصية هامو Hamo واعادة الملكة ازابيلا الى بيروت في الحال . واضطر الملك هيو الثالث أن يعيد ازابيلا الى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرسا من المماليك . وعاشت هذه الملكة بعد وفاة بيبرس ، وتزوجت مرتين ثم ماتت سنة ١٢٨٢ م تاركة حكم بيروت الى اختها اشيفا Eschiva . واستمرت بيروت في حكم اسرة Ibelini الى أن سقطت نهائيا في يد السلطان الاشرف خليل ابن قلاوون عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ م .
(Runciman : op.cit. III p. 342 - 343)

هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها في مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ) • وقد بلغ من كثرة الغنائم التي غنمها المسلمون من انطاكية « أن قسمت النقود بالطاسات ! » كما بلغ من كثرة الاسرى انه « لم يبق غلام الا وله وغلام •• وبيع الصغير باثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم ! » (١) •

كان سقوط امارة انطاكية في الواقع كارثة كبرى على القوى الصليبية لانها كانت بحكم موقعها الجغرافي سندا قويا للدولة الصليبية منذ اوائل الحروب الصليبية • وتشير المراجع المعاصرة الى الرسالة التي كتبها بيبرس الى اميرها بوهمند السادس الذي كان مقيما وقتئذ في امارته الثانية طرابلس في جنوب انطاكية • وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم ، وليس الذي يعنينا هنا هو السخرية او التهكم ، وانما استنتاج ما وصلت اليه أحوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع بيبرس أن يوجه أمثال تلك العبارات الى صاحب اكبر امارة صليبية في الشام في ذلك الوقت (٢) •

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك في مهاجمة امـارة طرابلس سنة ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) فاستولى على المنافذ المؤدية الى المدينة والحصون المحيطة بها ومن أهمها حصن الاكراد وحصن عكار ، فأصبح في مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها والاستيلاء عليها ، ولكن الانبـاء الواردة بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع انقذت طرابلس من هذا المصير (٣) • ذلك لان السلطان بيبرس عاد أدراجه مسرعا الى مصر ،

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٦٨ سعيد عاشور : المرجع السابق جـ٢ ص ١١٤٩ وكذلك (Runciman : A history of the Crusades, Vol. III. p. 324—325.)

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٤٧

(٣) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ص ٦٩ ٢، ٦ انور زقلمة : المماليك في مصر ص ٣٧ .

اذ كان يخشى أن يعيد ملك فرنسا قصة المنصورة مرة أخرى ، ولذا اهتم بتتبع اخبار تلك الحملة ، واعلن حالة التعبئة والاستعداد في الموانى والثغور المصرية •

ويبدو ان ملك فرنسا كان يريد فعلا ان يكون اتجاه هذه الحملة الصليبية نحو المعاقل الاسلامية في الشرق العربي ، لولا ان اخاه شارل دى انجو الذي كان ملكا على جزيرة صقلية ، اراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه ، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت • والمراجع التونسية ترجع اسباب تلك الحملة الى عامل الانتقام الشخصي ، فيقول ابو القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن ابي دينار : « وسبب نزول الفرنسيس تونس ، قيل انه ذكر اسمه يوما بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي ، فهضم من جانبه ، وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه (يشير الى المماليك) ، فبلغت هذه المقالة الفرنسيس (أي لويس التاسع) فحقد لها وعزم على غزو تونس » (١) • والواقع ان هذه الرواية ــ ان صحت ــ لا تعدو أن تكون سببا مباشرا فقط ، اما السبب الحقيقي فيرجع الى أهمية موقع تونس بالنسبة لصقلية التي كان يحكمها شارل اخو الملك لويس كما هو معروف ، ويكفي ان ننبه الاذهان في هذا الصدد الى ان غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الاغالبة وعلى يد قاضي القيروان اسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م)• وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية • ولهذا نجح شارل في اقناع اخيه لويس بتحويل تلك الحملة الى تونس •

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل الى الشواطىء التونسية حتى اصيب الملك لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها ، وتولى اخوه

---

(١) راجع (ابن ابى دينار : المونس في اخبار افريقية وتونس ص ١٢٩

شارل قيادة الحملة ، فأخذ يسيرها وفق اغراضه حتى ازال عنها صفتها الصليبية . وانتهى امر هذه الحملة باجراء مفاوضات مع الخليفة المستنصر الحفصى الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين . وهكذا عادت الحملة تجر أذيالَ الخيبة بتلك النتيجة المادية الضعيفة التي اغضبت معظم الذين اشتركوا فيها [1] .

أما السلطان بيبرس ، فانه بعد أن اطمأن على نتائج تلك الحملة الصليبية ، غادر مصر وعاد الى مقاتلة الصليبيين في طرابلس من جديد سنة ١٢٧١ م ، فأرسل اليه اميرها بوهمند السادس يطلب الصلح والمسالمة ، هذا في الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية انجليزية بقيادة الامير ادوارد الى عكا ، فاضطر السلطان بيبرس ان يجيب صاحب طرابلس الى طلبه ويعقد معه صلحا لمدة عشر سنوات [2] . ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في اثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس ، كان بيبرس نفسه مندسا بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده ،

---

(١) يقول في ذلك احد الشعراء التونسيين :

يا فرنسيس هذه اخت مصر　　فتهيأ لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر　　وطواشيك منكر ونكير

والمقصود بالطواشي هنا صبيح المعظمي ـ نسبة الى المعظم تورانشاه ـ الذي تكفل بالملك لويس التاسع في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة . راجع : (جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٦٠) .

(٢) هذا الامير ادوارد هو ادوارد الاول ملك انجلترا فيما بعد ، وكان قد اتى الى الشام على راس قوة صغيرة من الف محارب على أمل التعاون مع خان مغول فارس ابغا بن هولاكو على غزو مصر والشام . ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال ابغا بمحاربة مغول التركستان . ولم يلبث ادوارد نفسه ان طعنه احد الحشيشية بخنجره ولكن الطعنة لم تكن قاتلة ، فاضطر الى العودة الى بلاده بعد أن عقد هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات (سعيد عاشور : نفس المرجع ص ١١٥٩) .

ومتنكرا في زي خادم كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيدا لفتحها فيما بعد •

هذه الجرأة التي اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة قبيل هذا الوقت بقليل حينما أرسل اسطولا لغزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠ م وكان يحكم هذه الجزيرة الملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر باطماعه الصليبية في الشام ، وبعداوته الشديدة لدولة المماليك • غير أن معظم هذا الاسطول تحطم للاسف عند شاطىء الجزيرة على أثر عاصفة شديدة هبت عليه [١] •

وعلى الرغم من أن ملك قبرص حاول ان يجعل من فشل هذه الحملة البحرية نصرا صليبيا كبيرا ، الا انه يبدو بوضوح أن هذه الهزيمة لم تؤثر في قوة بيبرس تجاه الصليبيين كما انها لم ترفع من روح الصليبيين المعنوية في الشام بدليل أنهم أصروا على مفاوضة بيبرس ومصالحته • وأخيرا تم الصلح بين بيبرس والامارات الصليبية بوجه عام ١٢٧١ م • وكانت شروط الصلح تدل على أن كلا الطرفين كان في حاجة الى هدنة ، اذ اشترط كل منهما على أن موت احد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما • واستمر الوضع على هذا الحال الى وفاة بيبرس سنة ١٢٧٧ م •

ثانيا : ارمينية الصغرى •

سميت بأرمينية الصغرى للتمييز بينها وبين أرمينية القديمة • وكانت أرمينية قديما تقع في المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الاسود أي بين بلاد فارس والعراق شرقا وبلاد الروم غربا • وقد أدر عليها هذا الموقع بأرباح طائلة نتيجة لمرور طريق التجارة بين الشرق والغرب بأراضيها • غير أن هذا الطريق لم يلبث ان تحول نحو الجنوب في القرن العاشر الميلادي

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٩٤ •

صار يمر بحلب وانطاكية في شمال الشام نظرا لصعوبة الطريق القديم الذي كان يمر بجبال أرمينيا الى البحر الاسود •

ولا شك أن هذا التحول الجديد قد أفقد أرمينية أهميتها الاقتصادية فأخذت تضعف تدريجيا الى أن استولت عليها الدولة البيزنطية في القرن الحادي عشر الميلادي •

غير أن الارمن وهم عنصر اقتصادي مكافح لم يستسلموا لهذا الوضع ، بل غادروا بلادهم وانتقلوا جنوبا مع انتقال الطرق التجارية من ناحية ، وتحت ضغط هجرات السلاجقة والمغول من ناحية اخرى ، واستقروا في جنوب الاناضول وقليقية اي في المنطقة الممتدة من الرها شرقا الى أطنة غربا • وهناك في جنوب آسيا الصغرى اسسوا مملكة أرمينية الصغرى المعروفة زمن الحروب الصليبية والمماليك ، واتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم (١) •

ولقد لعبت هذه المملكة السيحية دورا خطيرا ضد دولة المماليك في مصر والشام ، اذ انها لم تكتف بمساعدة الامارات الصليبية في الشام ، بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تحرض هولاكو وابنه أبغا او أباقا على غزو الشام ومصر ، هذا الى جانب الحصار الاقتصادي الذي فرضته على دولة المماليك بمنع تصدير الخشب والحديد من آسيا الصغرى الى مصر (٢) •

واضطر السلطان بيبرس أن يتبع مع مملكة ارمينية الصغرى نفس سياسة العنف والقسوة التي اتبعها مع الامارات الصليبية في الشام • فأرسل اليها سنة ١٢٦٦ م حملة تأديبية بقيادة الامير قلاوون ، أغارت على مدنها

---

(١) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٣٤

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ٢ ص ١١٤٧ وكذلك

(Mas Latrie : Hist. Chypre I p. 412.)

الرئيسية مثل سيس وأطنه وطرسوس والمصيصة ، وعاثت فيها فساد، وتخريبا مدة عشرين يوما ثم عادت بغنائم كثيرة ، وعدد كبير من الاسرى من بينهم ابن هيثوم الاول ملك ارمينية الصغرى [1]. واضطر الملك هيثوم لكي يطلق سراح ولده ان يتنازل للماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط أرمينية بحلفائها المغول في الجزيرة شمالي العراق من ناحية ، وبالصليبيين في انطاكية من ناحية أخرى . كذلك تعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية لسلطان مصر والشام في مقابل مسالمته. وظلت أرمينيا الصغرى بعد ذلك محدودة القوى ضعيفة التأثير في مجرى أحداث الشرق العربي الى ان قامت بحركة عصيان اخرى في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون (ق ١٤ م) انتهت بخضوعها واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام [2] .

ثالثا : مملكة النوبة :

كانت النوبة مملكة مسيحية في اعالى النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر ، وتؤدي له الجزية السنوية المعروفة بالبقط [3] منذ الاتفاقية التي عقدها معها القائد العربي عبدالله بن ابى سرح سنة ٦٥٠ م . غير أن هذه

---

(١) يقول احد الشعراء في تحطيم مدينة سيس قاعدة ارمينيا الصغرى:

يا ملك الارض الذي عزمه   كم عالم للكفر منه خرب
قلبت سيس فوقها تحتها   والناس قالوا سيس لا تنقلب

(تايخ ابن الفرات جـ٧ ص ٣١) .

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٥٢ ، سعيد عاشور : المرجع السابق جـ٢ ص ١١٤٨ . ويلاحظ أن أرمينيا في الوقت الحاضر مقسمة الى منطقتين : منطقة روسية باسم جمهورية ارمينيا الاشتراكية ، ومنطقة تركية من عدة ولايات أهمها ولاية أرضروم .

(٣) هذه الكلمة بقط اما مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد ، او من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد او اتفاق ، او انها عربية الاصل بمعنى قطعة او فرقة . راجع (السيدة الكاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٥) .

التبعية كانت اسمية في غالب الاحيان ، اذ ان هذه الدولة كانت كثيرا مـا تجنح الى العصيان وعدم دفع الجزية ، وتغـير على الاراضي المصريـة الجنوبية • وقد اهتمت السياسة المصرية بوضع هذه المملكة المسيحية ابان الحروب الصليبية بصفة خاصة ، عندما صارت قوافل الحجاج والتجـار تتجه جنوبا عن طريق النيل الى مدينة قوص ، ومنها الى عيذاب وجدة في البحر الاحمر بدلا من طريق السويس ــ العقبة في سيناء ، الذي صار محفوفا بالمخاطر بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين وقيام الامارات الصليبية [1] •

ويبدو أن صلاح الدين الايوبي قد خشي من أن تكون هناك صلة بين غارات النوبيين على اسوان وبلاد الصعيد ، وبين غارات الصليبيين على سواحل بحر القلزم (الاحمر) حتى بلغت عيذاب وتوغلت الى قوص [2] • لهذا ارسل صلاح الدين أخاه تورانشاه على رأس حملة تأديبية توغلت في بلاد النوبة حتى دنقلة ثم استقر قسم منها في قلعة ابريم [3] لحماية قوافل الحجاج والتجارة في هذه الاطراف المصرية الجنوبية •

وعند قيام دولة المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الاراضي المصرية ، وانتهز ملك النوبة المدعو داود فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة ارمينية الصغرى ، وهاجم ثغر

---

(١) راجع (مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٤٢)

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٧٩ •

(٣) ابريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبـة المصرية التي عرفت في العصر الرومانـي باسم Nubatai وفي المراجـع القديمة باسم مريس •

انظر (مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٦)

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين جـ١ ق٢ ص ٥٣٢، الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ص ٣٩) •

أسوان سنة ١٢٧٢ م • ويبدو أن داود قام بهذه الاعمال الاستفزازية مدفوعا بروح صليبية وكراهية دينية ، بدليل أنه هاجم أيضا ميناء عيذاب لا بقصد تهديد التجارة المملوكية في البحر الاحمر فحسب ، بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة (١) •

وقد رد بيبرس على ذلك بارسال حملتين متتاليتين الى بلاد النوبه في سنتي ١٢٧٣ م ، ١٢٧٥ ، بقيادة الاميرين آقسنقر الفارقانى ، وعزالدين الافرم • وشاركت البحرية النيلية في هذه الحملات بنقل الجنود والآلات والاقوات حتى مدينة أسوان • وتمكن الامير عزالدين الافرم من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني ، والانتصارعلى الملك داود وأسره واقامة عمه شكنده الذي تعهد بدفع الجزية في كل عام • هذا وكان السلطان بيبرس قد احتل مدينة سواكن المنفذ البحري لممالك النوبة على البحر الاحمر سنة ١٢٦٥ م مما ادى الى تهديد المعاقل المسيحية في بلاد النوبة فضلا عن احكام السيطرة المصرية على البحر الاحمر وتجارته • وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذه الانتصارات ديوانا خاصا للنوبة في القاهرة تحت اشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام (٢) •

ويلاحظ ان الحملات المستمرة على بلاد النوبة قد شجعت بعض القبائل العربية على مصاحبتها بغية الاستقرار الى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة في منطقة شمال النوبة أو أرض المريس • ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا بنات رؤساء النوبيين ،

---

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٨ •

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٤٥–٥١ المقريزي : السلوك جـ١ ص ٦٢١ – ٦٢٢ ، مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ١٤٨ ، حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٨٠ •

فاصبحت لهم مصالح مادية لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين وهو توريث ابن البنت او ابن الاخت (١) .

وهكذا اخذت هذه المملكة المسيحية تصطبغ بالصبغة العربية الاسلامية وتفقد طابعها المسيحي تدريجيا بحيث لم يكد يمر على وفاة بيبرس نصف قرن تقريبا (ق ١٤ م) حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الاسلام ، وانتقل الملك فيهم الى بنى كنز ، فسقطت عنهم الجزية لان بني كنز عرب مسلمون من ربيعة وهم الكنوز الحاليون .

٨ ـ حروب بيبرس ضد المغول :

كانت المشكلة الكبرى التي واجهت السلطان بيبرس منذ بداية حكمه هي مواجهة مغول فارس، ذلك لان خطرهم كان واضحا تماما خصوصا بعد واقعة عين جالوت التي تعد بداية لا نهاية لعلاقات دولة ايلخانات فارس بالمماليك . ولعل بيبرس لم ينس الكلمات التي تفوه بها كتبغانوين قائد المغول في عين جالوت قبيل مصرعه على يد قطز وهي : « انى ان هلكت على يدك ، فانى أعلم ان الله لا أنت هو الذي أراد قتلى . فلا تنخدع بهذا النصر المؤقت ، لانه لا يكاد يصل الى هولاكوخان خبر موتى ، حتى يغلي غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الخيل المغولية أرض البلاد ابتداء من أذربيجان الى أبواب مصر » (٣) .

(١) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٥١

(٢) أصل هذه التسمية يرجع الى ايام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حينما استعان بأمير ربيعة ابى المكارم هبة الله في القبض على الثائر ابى ركوة الذي فر بعد هزيمته الى جنوب مصر . ونجح ابو المكارم في القبض عليه سنة ١٠٠٦ م فكافاه الخليفة الحاكم بلقب كنز الدولة وتوارث ابناؤه هذا اللقب وعرف بنو ربيعة ببنى كنز . انظر (مصطفى مسعد : نفس المرجع ص ١٣٥) .

(١) راجع (فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهذاني ص ٥٥) .

فمثل هذه الكلمات الجريئة القوية تصور مدى الخطر الذي كان ينتظر دولة المماليك من هولاكو بعد أن هزم جيشه وقتل قائده وصهره كتبغا • ثم ازداد هذا الموقف خطورة عندما ارتبط الخطر المغولي بخطر الصليبيين الذين حاولوا استمالة المغول ومحالفتهم طمعا في نشر المسيحية بينهم والاستعانة بهم في غزو مصر والشام •

ولمجابهة هذا الموقف تحالف بيبرس مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الاسلام وصار حربا على بني جنسه مغول فارس • ويظهر ذلك بوضوح في الرسالة التي بعث بها الى السلطان بيبرس سنة ١٢٦٣ يقول فيها : « فليعلم السلطان انني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الاسلام » (١) •

على أن بيبرس لم يعتمد فقط على هذا التحالف ، بل أخذ يحصن أطراف دولته المواجهة لدولة مغول فارس على نهر الفرات ، لا سيما قلعة البيرة التي زودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عشر سنوات كي تظل شوكة في جنب المغول في هذه الجبهة الشرقية • كذلك عمل على افساد الطرق والوديان المؤدية الى الشام كي لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون اليه من أقوات أو أعشاب لدوابهم (٢) •

وفي عام سنة ١٢٦٥ م (٦٦٣ هـ) مات هولاكوخان ، غير أن وفاة الاشخاص في دولة فتية مثل الدولة المغولية ، لم يؤثر مطلقا في عزم التتار على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو غزو دولة المماليك في مصر والشام ، بل ان الخان الجديد لدولة ايلخانات فارس واسمه اباقا او أبغا

---

(١) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (الجزء الخاص بحوادث ٦٥٦ ـ ٦٧٣ هـ) ص ٤٩٤ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٤٠ •

(٢) راجع الجزء الخاص بتحصين الثغور والاطراف من هذا الباب •

(١٢٦٥ ــ ١٢٨٢ م = ٦٦٣ ــ ٦٨٠ هـ) زاد على سياسة أبيه هولاكو بأن اهتم بمسألة الحلف مع الصليبيين ، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوربا • وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والاستيلاء على بيت المقدس • وقد ظهر أثر هذا التحالف واضحا عندما انتهز اباقا خان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للاغارة على الحدود الاسلامية • مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦ حينما اغارت الجيوش المغولية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية في الوقت الذي كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية •

ولكن على الرغم من هذا الجو العدائي ، فانه يبدو أن اباقا خان حاول أن يجرب الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول فقط ، أو بمعنى آخر حاول ان يستخدم الاساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل الى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨ م يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ ، مثل قوله : « فأنت لو صعدت السماء أو هبطت الى الارض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا » (١) • غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة في طلب الصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المغولي بقوله : « اعلم اني وراءه بالمطالبة، ولا أزال انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الارض » (٢) •

وفي سنة ١٢٧٢ م توجه بيبرس لملاقاة التتر في أرضهم ، فحمل معه عدة مراكب مفصلة اجزاء على ظهور الجمال ، وأنزلها في نهر الفرات

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٥٧٤

(٢) العيني : نفس المرجع ص ٥٤٩ ، سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤٢ •

لتعبر بها جيوشه ، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الاراضي العراقية سنة ١٢٧٣ م • ويبدو ان نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية الى جانبه ، اذ يروى مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا خان نكب أسرة الجوينيين الذين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس ، والاتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا ملك الجويني حاكم العراق ، واخوه الخواجه شمس الدين محمد وزيره ، وابناؤهما • وكلهم أهل فضل وأدب ، وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محط رحال الادباء والكتاب والشعراء ومناط آمالهم • بذلوا كل ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول ، ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح (١) •

هذه الحادثة التي تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد ، تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على اعدائه في هذه الجبهة، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولي •

على أن الصراع بين دولتي المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد ، اذ سرعان ما انتقل الى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى في الشمال • والسبب في هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدوده الشرقية ، أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد سلاجقة الروم في آسيا الصغرى • وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها الى هولاكو ، وكانت مقاليد الحكم فيها بيد الوزير معين الدين سليمان البرواناه ، والبرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب •

وكان هذا البرواناه يعمل الى جانب أصحاب السيادة في البلاد وهم

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول رشيد الدين ص ٥٨ـ٥٩

المغول ، فلما تغلب بيبرس على المغول ، مال البرواناه الى جانب المنتصر وأخذ يراسل بيبرس معلنا انضمامه اليه ، فتقدم بيبرس بجيوشه الى آسيا الصغرى ، وانتصر على الجيوش المغولية انتصارا ساحقا عند بلدة ابلستين أو أبلستان [1] Abulustayn سنة ١٢٧٧ م (٦٧٥ هـ) ، اذ فقد من المغول في تلك المعركة ما يقرب من ٧٠٠٠ نفس . ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الاهالي استقبالا رائعا ، ثم عاد بيبرس الى الشام [2] .

ولما علم اباقاخان بما حل بجيشه في الاناضول ، سارع الى ميدان المعركة في ابلستين ، ويقال انه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ثم صب جام غضبه على أهالي البلاد فقتل منهم عددا كبيرا لترحيبهم بسلطان مصر [3] ، كما أمر بقتل البرواناه أيضا بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لانه كان السبب في هذه الكارثة [4].

ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد الى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم انها صارت تابعة لدولة المماليك

---

(١) تقع ابلستين في شرق مدينة قيصرية .

(٢) يقال في هذا الصدد ان أول ما فتحه بيبرس قيسارية الشام وآخر ما فتحه قيسارية الروم (تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٨٤) هذا وقد اورد القلقشندي نص الرسالة الرسمية التي من انشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر الى الوزير بهاء الدين ابن حنا يصف فيها فتح قيسارية الروم من ايدي التتار واستيلاء بيبرس على ملكها وجلوسه على تخت بني سلجوق . (صبح الاعشى جـ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥) .

(٣) فؤاد الصياد : المرجع السابق ص ٥٩ وكذلك
(Browne : A Literary Hist of Persia Vol. III p. 19) .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٨٤ — ٨٥ نشر قسطنطين زريق .

رسميا • ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيبرس في ذلك الوقت تولاه التعب أو المرض بدليل انه مات في نفس تلك السنة [1] بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧ م (٦٧٦ هـ) •

وهكذا تنتهي حياة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي الذي تصفه المراجع بأنه كان طويل القامة ، أسمر اللون ، أزرق العينين ، جهوري الصوت ، شجاعا بطلا هماما ، عسوفا عجولا ، في عينه أثر بياض بقدر خرم ابره ، وكان هذا من اسباب عدم الاقبال على شرائه • ثم اشتراه الامير أيدكين البندقداري فبقي في خدمته الى أن أخذه منه الملك الصالح نجم الدين ايوب •

كذلك يؤثر عن السلطان بيبرس انه كان خفيف الركاب طول أيامه راكبا على الهجن وخيول البريد دايرا على الممالك والقلاع حتى انه كان يلعب الكرة (البولو) في الجمعة يومين ، يوم بمصر ويوم بدمشق • وفي ذلك يقول سيف الدولة المهمندار يمدحه :

يوما بمصر ويوما بالحجاز ويو   ما بالشآم ويوما في قرى حلب[2]

ولا شك ان هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله واصلاحاته الواسعة النطاق أن يحول دولة المماليك ، من دولة ناشئة الى دولة قوية مدعمة الاركان ، وان يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتموا رسالته ، ويصلوا الى الهدف المنشود وهو القضاء على المغول والصليبيين [3] •

---

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٨٥ ـ ٨٧ حيث ترد روايات المؤرخين حول اسباب وفاته ويعتقد البعض انه مات مسموما .

(٢) تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٨١ ـ ٨٤ .

(٣) جاء بعد بيبرس ، الملك المنصور قلاوون الذي ترسم خطاه في مكافحة هذين الخطرين ، فانتصر على المغول في حمص سنة ١٢٨١ م كما انتصر على الصليبيين واستولى على امارة طرابلس سنة ١٢٨٩ م . ثم

لهذا بعد صيته ، واشتهرت سيرته دونا عن سائر السلاطين : لدرجة أن أخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص ، ونذكر على سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية أو سيرة الظاهر بيبرس (٢) التي تصور شخصية بيبرس وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي شخصية انسان ، اذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الجديد أو هذه النقلة الجديدة التي تحولت فيها دولة المماليك في مصر والشام الى دولة قوية راسخة الاقدام .

خلفه ولداه على التوالي : الاشرف خليل بن قلاوون الذي استولى على الامارة الباقية للدولة الصليبية في الشام وهي امارة عكا سنة ١٢٩١ م ، فانهى بذلك الفصل الختامي من تاريخ الحروب الصليبية في الشام . ثم تبعه الناصر محمد بن قلاوون الذي انتصر على مغول فارس عند مرج الصفر جنوبي دمشق سنة ١٣٠٣ م وعقد مع ملكهم أبى سعيد خان صلحا نهائيا ، انهى العداء بين مصر والشام ومغول فارس .

(٢) للظاهر بيبرس سيرتان احداهما للقاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، والاخرى لمحمد بن شداد . وقد أورد ابن الفرات نماذج منها في تاريخه . راجع (تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٨٤ — ٨٨ نشر قسطنطين زريق) وتجدر الاشارة هنا الى السيرة الظاهرية التي كتبها حديثا المرحوم بيرم التونسي .

الضمـــائم

ضميمة رقم ــ ١ ــ

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبدالله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب •

ضميمة رقم ــ ٢ ــ

خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان مغول فارس الى سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة عين جالوت •

ضميمة رقم ــ ٣ ــ

رواية صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي ، في وصف التتـــار وعاداتهم وموقعة عين جالوت •

ضميمة رقم ــ ٤ ــ

الرسالة التي وجهها الملك المظفر سيف الدين قطز الى ملك اليمن يبشره فيها بهزيمة التتار •

ضميمة رقم ــ ٥ ــ

نص الهدنة التي عقدت بين الظاهر بيبرس وبــين ملكــة بيروت وجبالها (لبنان) من البلاد الشامية •

قوائم المراجع العربية والاوربية والخرائط والصور •

ضميمة رقم — ١ —

رسالة (١) خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبدالله بن الحداد (٢) يعاتبه (٣) فيها ويفضل العجم على العرب

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف فريضه على حلقة بجانة أرش (٤) اليمن ، بزهيد الثمن كأن ما في الارض انسان الا من غسان

---

(١) راجع ما سبق ان قلناه عن هذه الرسالة في ص ٥٦ من هذا الكتاب . وتتفق نسخة الاسكوريال مع نسخة الذخيرة في الفاظها ومعانيها وروحها مما لا يثير شكا في أن المؤلف واحد وهو ابن غرسية كما نصت على ذلك كلتا النسختين ، وجميع الرسائل التي تناولت الرد عليه بعد ذلك . على أننا نلاحظ اختلافا شديدا بين النسختين في ترتيب سياق العبارات وصياغتها لدرجة يصعب معها مقابلة النص بالآخر، هذا فضلا عن أن نسخة الذخيرة تنقص بكثير من التفصيلات عن نسخة الاسكوريال كما تحتوي على بعض الالفاظ المحرفة . ولهذا اتخذنا نسخة الاسكوريال — رغم كونها مجهولة الناسخ — أصلا للنشر وان كانت هي الاخرى لم تبرأ من التحريفات . هذا وقد ذكرنا في الحواشي ما ورد في نسخة الذخيرة من فروقات في الالفاظ والعبارات التي لا تتفق مع المتن .

(٢) راجع ترجمته وترجمة ابن صمادح في (ابن بسام : الذخيرة ق١ ج٢ ص ٢٠١ ، ٢٣٦) .

(٣) العتاب هنا — كما ذكرنا آنفا وكما ورد في نسخة الذخيرة — بسبب تركه مدح مجاهد واقتصاره على مدائح ابن صمادح .

(٤) ارش اليمن يقصد بها الارض الممنوحة الى اليمنيين ، وقد اطلقت على الاقليم الساحلي لمدينة بجانة والمرية . وأصل هذه التسمية ترجع الى ان بنى امية لما دخلوا الاندلس ، انزلوا بني سراج القضاعيين في هذا الاقليم وجعلوا اليهم حراسة ساحله ولهذا سمى أرش اليمن أي عطيتهم . ويحتمل أن يكون هؤلاء القوم هم أجداد بني سراج Abencerages المعروف نفوذهم في تأريخ مملكة غرناطة في القرن الخامس عشر .

أو من آل ذي حسان [1] • وان كان القوم أقنوك وعن العالم أغنوك على حسب المذكور فما هذا الاعمال للكور ، وترك الوكور ، وقل ما تأخذ الشعرة [2] في الرحيل ، الا عن الربع المحيل [3] • ولو أن القوم خلطوك بالآل [4] ، لما أحوجوك الى الخبط في الآل [5] • مه مه من أحوجك الى ركوب المهمة [6] ، وثقف ، وودك لا تقف ، على من اضطرك الى الايغال ، وباعك بيع المسامح بك [7] لا المغال ، وعوضك من الاندية، بجوب [8] الأودية ، ومن المآلف ، بقطع [9] المتالف ، وحملك على مخالفة التحصان، ومحالفة الحصان، ووكلك بمسح الأرض ذات الطول والعرض• فاذا [10] يممت تباله [11] ، تتباله ، وصرت ضغثاً على إباله ، تتعلل باليمين ضنا بالعلق الثمين •

أأحسبك أزريت ، وبهذا الجيل البجيل [12] ازدريت ، وما دريت ،

Lévi Provençal : La Péninsule Iberique au moyen — Age d'aprés le Kitàb Ar—Rawd Al mi'tàr. p. 37 (texto àrabe) y 47 y notas (traduccion).

(١) عبارة من « آل ذي حسان » وضعت في « نسخة الذخيرة » في غير موضعها في السطر الذي يليها .

(٢) جاء في لسان العرب والشعرة بالكسر الركب للنساء خاصة .

(٣) النحيل ، والمتن أصح .

(٤) (٥) الآل الاولى بمعنى الاهل والثانية بمعنى السراب .

(٦) المهمه : الصحراء الواسعة .

(٧) غير موجودة في نسخة الذخيرة .

(٨) بقطع ، وفي جولدزيهر بجوف والمتن اصح .

(٩) بجوب (١٠) أممت .

(١١) تباله موضع ببلاد اليمن (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٣٥٧)

(١٢) بجيل اي عظيم القدر ، قال ابن جنى « ومنه اشتق الشيخ البجال والرجل البجيل والتبجيل » .

أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ذوي أينق (١) جرب ، أساورة أكاسرة ، مجد نجد بهم (٢) ، لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغلوا بالماذى (٣) والمران (٤) ، عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو (٥) المغافر والدروع ، للتنفيس (٦) عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة (٧) الصروح ، صقوره ، غلبت عليهم شقوره (٨) ، وشقورة الخرصان (٩) ، لكنهم خطبة بالخرصان (١٠) ، شعر :

ما ضرهم أن شهدوا أمجاداً أو كافحوا يوم الوغى الأندادا
أن لا يكون لونهم سواداً (١١)

أرومة رومية ، وجرثومة أصفرية ،

---

(١) اينق جمع نوق جمع ناقة .

(٢) بهم بضم الباء جمع بهمه وهو الفارس الذي لا يدري من أين يؤتى لشجاعته

(٣) الماذي: كل سلاح من الحديد. والماذى ايضا العسل الابيض الجيد

(٤) المران: شجر تصنع منه الرماح، وقيل كذلك الرماح اللدنة في صلابة.

(٥) وردت في النسختين ذو (٦) نقلها جولدزيهر « للتنفير » .

(٧) اي رافعوا الصروح وقد استبدلها جولدزيهر بكلمة « كماه » .

(٨) شقورة : لم ترد هذه الكلمة في لسان العرب ولعله يريد بها معنى الشقرة .

(٩) كذا ، وبهذا الشكل وردت في جولدزيهر ولم يفسرها معلقا عليها بأنه لا يستطيع تأويلها ، ولعلها تحريف عن خرسان ، قال في لسان العرب « وخراسان كورة النسب اليها خراساني ، قال سيبويه وهو أجود ، وخراسي وخرسي ويقال هم خرسان كما يقال هم سودان وبيضان . وليس ذلك بمستغرب اذ أن ابن غرسيه سوف يتمدح بعد ذلك بفضل الفرس ومآثر الدول الانوشروانية والمملكة الاردشيرية ... الخ .

(١٠) الخرص : سنان الرمح وقيل هو الرمح وجمعه خرصان .

(١١) ورد في الذخيرة : أبا رباب الملوك ازدريت وعلى وعندي الجيل ازدريت ، وما دريت بهذا أحسبك أرديت ، وما دريت أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ذوي اينق جرب ، بل هم القياصرة الاكاسرة ، نجد

نمتهم ذوو (١) الأحساب والمجد والعلى
من الصهب لا راعو غضى (٢) وأبان (٣).

من القوم الملس الأدم ، لم تعرف فيهم الأقباط (٤) ولا الأنباط ، حسب حرى ، ونسب سرى .

أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلقوا (٥) ظلمه ، فلا تهايل ، في التكايل ، فما سسنا قط قروداً ، ولا حكنا بروداً ، ولا أكلنا عروداً (٦).

فلا تهاجر بنى هاجر (٧) ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ، مننا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ، وألحقناكم بالأحرار ، فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعا يشارك سفعاً (٨) ، اضطركم إلى سكنى الحجاز والجأكم (٩) الى ذلق المجاز ، رزن رصن (١٠) .

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم
بعد الممات جمال الكتب والسير

وإذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت في اتساق ، وقرعت

مجد صحاة السروح ونماة الصروح :
ما ضرهم ان شهدوا امجادا الا يكون لونهم سوادا

(١) في الاصل « ذو » . (٢) الغضى : شجر خبيث الذئاب .
(٣) أبان : جبل بجزيرة العرب . وقد وردت العبارة في جولدزيهر .. لا راعوا غنما وافنان ، وهي محرفة وقد اوردها على انها نثر لا شعر .
(٤) الاقماط في الذخيرة . (٥) في جولدزيهر : تلفوا .
(٦) العرد : هو الصلب الجاف ويكنى بذلك عن خشونة العيش .
(٨) السفع : هو الجذب من الناصية .
(٧) في جولدزيهر في هاجر .
(٩) وردت العبارة في جولدزيهر محرفة هكذا : اضطركم الى سيء المنحاز وانحاكم الى ذلق المجاز .
(١٠) تركت بياض في جولدزيهر .

الظنابيب[1] وأشرعت الأنابيب ، وقلصت الشفاه ، وفغر الميدان فاه، [2] وولى قفـاه ، ألفيتهم [3] ذمرة [4] الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ، أحلى عندهم من العسل [5] .

مستلئمين [6] إلى الحتوف كأنما　　بين الحتوف وبينهم أرحـام

من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لهم على القدمة [7] اليـدان على التنائي [8] والتدان .

من الأولى غير زجر الخيـل مـا عرفوا
إذ تعرف العُربُ زجر الشاء والعكر [9]

بصر [10] صبُر تزدان بهم المحافل والجحافل ، قيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، مـن العجم ضراغمة الأجم ، بنو غاب ، منتفون من كل عاب ، لم تلدهم صواحب الرايات بل تفججت [11] عليهم سارة الجمال ربة الآيات ، شمخ بذخ ، بررة

---

(١) الظنبوب : حرف الساق اليابس وقيل هو عظم الساق ، وقرع الظنبوب كناية عـن التهيؤ وسرعة الاجابة . وقـد وردت في جولدزيهر « الطنابيب » بالطاء .

(٢) وردت في جولدزيهر . « فماه » . (٣) القيتهم في جولدزيهر .

(٤) ذمرة لعلها جمع ذمر وهو الرجل الشجاع .

(٥) يشير بهذا الى البيت المعروف : نحن بني ضبة أصحاب الجمل الطعن أحلى عندنا مـن العسل

(٦) استلأم : استعد ولبس كل ماله من سلاح .

(٧) القدمه : الاقدام .　　(٨) النأي في الذخيرة .

(٩) العكرة القطعة من الابل وقيل العكر ما فوق الخمسمائة من الابل .

(١٠) في جلدزيهر : نصر .

(١١) في جلدزيهر تبجحت ، والتفجج هو انفجار ما بين الساقين ويكنى بذلك أن سارة ولدتهم .

أقيال ، جررة أذيال ، بخ بخ أحلتهم سيوفهم بسطة الارضين ، فما قنعوا بذلك ولا رضين حتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب •

بضرب يزيل الهام عن سكناته　　وطعن كتشهاق العفا[1] هم بالنهق[2]

شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ،[3] وبركوب السروج عن الكلب والفروج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالخب [4] عن الحب،[5] وبالشليل[6] عن السليل، (٧) وبالأمر والذمر عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان وعن قنيان القيان ، طياتهم خطياتهم [8]، وغلاتهم آلاتهم ، وحصونهم حصنهم ، أقيال ، آباؤهم من بين الأنام أقتال [9] •

أولئك قومي إن بنوا شيدوا البنا
وإن حاربوا جدوا وإن عقدوا شدوا [10]

---

(١) العفا ولد الحمار .

(٢) هذا البيت لحنظلة بن شرقي المعروف بأبي الطمحان القيني (الاغاني ج١٠ ص ١ ٤، ج١١ ص ٥ ٢ـ ١٢٩) .

(٣) وردت هذه العبارة في جلدزيهر هكذا : شرهوا برقات السيوف، لا برقات الشنوف وهو تحريف .

(٤) الخب : ضرب من السير السريع ويقصد به الاسراع للحرب .

(٥) في الاصل : الخب .

(٦) ، (٧) الشليل : الاسراع ، والسليل : من معانيه الولد ، ولعله يقصد انهم اشتغلوا بالاسراع الى الغزو والحرب عن الخلف والولد .

(٨) الخطية : الرماح . منسوبة الى الخط وهو اسم مكان ، فيقال « رماح خطية » و « رماح الخط » .

(٩) كذا ، وقد وردت في القاموس بمعنى اعداء .

(١٠) هذا البيت للحطيئة في مدح بني بغيض (الاغاني ج٢ ص ٤١ ـ ٥٩) .

وضَّح، رجح، لا حفزة عكر ، ولا قفزة (١) أكر ملوك جلة ، لا محرقوا (٢) جلة ، ندس، (٣) غنوا بالاستبرق والسندس ، عن البيت (٤) المقيظ المشتى ، المجموع من النعيجات الست، بسّل ، لا حراس مسّل، (٥) ولا غراس فسّل ، (٦) ملاك كفــاح (٧) ، ليس منهم في ورد ولا صدر شرّاب درّ اللقاح، (٨) بل شرابهم النبيذ، وطعامهم الحنيذ ، لا زهيد الهبيد (٩) في البيد ، ولا مكون (١٠) الوكون، (١١) ولا منهم من احتشى بمذموم الكُشى، (١٢) ولا في سائر الأحباش من وليد وناش ، (١٣) من اغتذى بالأحناش ، فــلا يقعقع لهم بالشّنان ، (١٤) ولا يدعدع (١٥) لهم

(١) ورد في جولدزيهر عبدة أكر .

(٢) محرقو ، وورد في جولدزيهر مجوقو ، ولعله تحريف .

(٣) ندس : جمع ندس وهو الفطن الذكي ووردت في جولدزيهر هكذا « قدس ؟ » .

(٤) وردت جولدزيهر : البيت .

(٥) مسل : مسايل الماء .

(٦) الفسل جمع الفيسل وهي صغار النخل .

(٧) وردت في الذخيرة وفي جولدزيهر لقاح .

(٨) اللقاح : جمع لقحة وهي الناقة ، ودر اللقاح لبن النوق . وفي جولدزيهر وضعت كلمة ذي بدلا من در وهو تحريف .

(٩) الهبيد : الحنظل وقيل حبوبه ، وهذا كناية عن شظف العيش ، ووردت في جولدزيهر البيد وهو تحريف .

(١٠) مكون : جمع مكن هو بيض الضب والجراد ، قال ابو الهندي :

ومكن الضباب طعام العريب   ولا تشتهيه نفوس العجم

(١١) الوكون : الجحور .

(١٢) الكشي : جمع كشية ، وكشية الضب أصل ذنبه .

(١٣) ناش أي ناشيء .

(١٤) الشنان : جمع شن وهو القربة الخلق وفي المثل « لا يقعقع لى بالشنان » .

(١٥) يدعدع : من دع يدع وهو الدفع العنيف، وفي الذخيرة: يزعزع.

بالشّنان،[١] وكف أيها الشان،[٢] فلهم عظم الشان، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان، صنيع منيع،[٣] ومنة لا يشوبها منة، فيالها منحة، لكنها أعقبت محنة، إذ صادفت كفرة لا شكرة، ربما إذا تأبطتم تيها معشر البداة العراة اعتقدتم غلا، فاستثرتم صلاء،[٤] أما علمتم أن الدولة النوشروانية والمملكة الأردشيرية، بقروا أجوافكم، وخلعوا أكتافكم، ثم عطفوا ورأفوا وملكوكم الحيرة بعد عظيم الحيرة. وللا ذللا، تتخيرون البنات عند البيات، مبهورات، لا ممهورات، فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم، وكان برمه سبباً لرزء أمانكم، فأصبح بعد جر الذيول مدوسا بأخفاف الفيول والكرام بنو الأصفر، الأطهر الأظهر، عطفتهم عليكم الرحم الابراهيمية، والعمومية الاسماعيلية، فسمحوا لكم من الشأم بأقصى مكان، بعد ما كان من سيل العرم ما كان يؤدى نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم الاتاوة على الجماجم[٥].

---

(١) الشنان: وهي لغة الشنآن اي الكراهية ولعله يريد انهم قوم لا يدفع في وجوهم باظهار الكراهية هيبة وقوة.

(٢) يقصد بها الشاني اي الكاره.

(٣) كذا في الاصل وفي نسخة الذخيرة، وورد في جلدزيهر مهيع ولعله تحريف.

(٤) الحية الخبيث.

(٥) ما ورد في الذخيرة في هذا المعنى هو هكذا: جمح طمح، طعامهم الحنيذ وشرابهم النبيذ، ما منهم من اختشى مذ مشى بمذموم الكشى، ولا تعللوا بزهيد البيد، ولا أوطنوا بيوت الشعر ولا غنوا عن الحطب بالجملة والبعر، ولا فيهم وليد وناش ممن اغتذى بالاحناش، ملك لقاح ليس منه في ورد ولا صدر شراب در اللقاح، سرج وهج قروم الاعاجم، يؤدي ←

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا [1]

مهلا بني الاماء ، عن الغمز والايماء ، فنحن عِرق عَرَقَ في الأنساب الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا او يروعنا ، وقد رسخت في المجد أصولنا وفروعنا ، ومن يطولنا وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا .

شرف ينطح النجوم بروقيـــة وعز يقلقل الأجبال

حلُم [2] علم ذوو [3] الآراء الفلسفية الأرضية والعلوم المنطقية الرياضية كحملــة الاسترلوميقى والموسيقى والعَلَمــة بالأرتطماطيقي والجومطريقي والقومة [4] بالألوطيقي والبوطيقي ، ما شئت من تدقيق وتحقيق حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية لا على وصف الناقة الفدنية ، فعلمهم ليس بالسفساف كفعل نائلة وأساف ، أصغر بشأنكم إذ بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبورغالكم قاد فيل الحبشة الى حرم الله لاستيصالكم :

أزيدك أم كفـــاك وذاك أنـــى رأيتك في انتحالك كنت أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان بالقديـــم ، المفرى للاديم ، ولكن الفخر بابن عمنا الذي بالبركة عمنا ، الابراهيميّ النسب ، الاسماعيليّ الحسب، الذي انتشلنا [5] الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية . أما

الى نعمانكم وغسانكم الاتاوة على الجماجم فلا يقعقع له بالشنان ولا يزعزع له بالشنـان .

(1) هذا البيت لابي الصلت الثقفي في مدح سيف بن ذي يزن .
(2) في جلدزيهر : فخام . (3) في الاصل « ذو » .
(4) كذا في الذخيرة ووردت في جولدزيهر « القدمة » .
(5) وردت في جولدزيهر « انشأنا » وهي تحريف .

نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث ، وعبادة الأوثان ، لا غرو إن كان منكم حبره وسبره ، ففي الرغام يلفى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك [١] العزالـــى [٢] .

لله ممـــا قـــد بر صفـــوة" وصفوة الخلق بنـــو هاشم
وصفوة الصفوة مـــن بينهم محمد البدر [٣] أبو القاسم

بهذا النبي الأمي أفاخر من تفخر [٤] ، وأكاثر من تقدم [٥] وتأخر الشريف السالفين ، والكريم [٦] الطرفين، الملتقى [٧] بالرسالة ، والمنتقى للاداء [٨] والدلالة، [٩] أصلي عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلي على واصلي جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يابن الأعـــارب ما علينـــا باس لم أحك إلا مـــا حكاه الناس

---

(١) وردت العبارة في الذخيرة هكذا : حلم علم أصحاب العلوم الرياضية والآراء الفلسفية الاريضية ، حملة الاسترلوميقا ، والجومطيقا ، والعلمة بالارتطماطيقا ، وانولوطيقا ، والقومة بالموسيقا ، والبوطيقا ، والنهضة بعلوم الشرائع ، والطبائع ، والمهرة في علوم الاديان والابدان ،

هم ملكوا شرق البلاد وغربها وهم منحوكم بعد ذلك سودها

فلا فخر معشر العربان الغربان بالقديم ، فعلى فرى الاديـــم اصغر بشأنكم اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غبشانكم واذا أبو رغالكم قاد فيـــل الحبشة الى حرم الله لاستيصالكم ، غضوا الابصار فهذا الذكر الى الفحش أصـــار .

(٢) العزالى : جمع عزلاه وهي رباط القربة .
(٣) « النور » في الذخيرة . (٤) فجر
(٥) جميع من تقدم . (٦) المنيف الطرفين .
(٧) في الذخيرة : المتلقى . (٨) في جولدزيهر : للدعاء .
(٩) في جولدزيهر : في موضع هذه الكلمة بياض .

هذا ،

ولم أشتم لكم عرضـــا ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء

ثم احج بشاعر غسان لاساسان في هذا العيد بالوعيد [١] ، وأجر في هذا الفصل بعدم الوصل لقد غم آخرك ، لكن بالرغـــم أخرك ، إذ أضربت عن مديح علقنا الربيح معز الدولـــة (المولى الأعظم والموئـــل الأعصم [٢]) ، شهمنا الرئيس، وشهمنا النفيس ، قيل الأمم، وسيل الأمم، معنى المعاني ، ومغنى المغانى ، ذي الرياسة الساسانية ، والنفاسة النفسانية، فاذهب ياغث [٣] المذهب ، وابتغ [٤] في الأرض نفقا أو في السماء مرتقى ، فهذه أليه [٥] ، جلبت عليـــك بليه ، أو حك من البسيط المديـــد ، ما تستجير به من بطشنا الشديد [٦] ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالي إلا من هو لعظيمتنا [٧] موالى ، وحذار حذار أن تقرع سن الندم ، ولات حين مندم [٨] ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبـــك، [٩] وكربك في

---

(١) عبارة الذخيرة هكذا : ثم احج في هذا العيد بالوعيد .

(٢) الزيادة عن الذخيرة .

(٣) في جلدزيهر : ياغب .

(٤) في جلدزيهر : وابتن .

(٥) اليه : القسم أو الحلف .

(٦) عبارة الذخيرة مضطربة وغير مستقيمة : « أوحك واليسيط في الملك الخلق البسيط ما تستجير به من بطشنا » وكذلك وردت في جلدزيهر محرفة : « أوحك من البسيط والمرير ما تستجير به من بطشنا الشرير » .

(٧) « لعظيمنا » في الذخيرة .

(٨) جلدزيهر : تندم .

(٩) الذنوب : الدلو الممتلىء .

كرَبك (١) ، فمن أبصر أقصر ، وما جرب (٢) من صديقه خوّف (٣) :

فـلا تتبشع (٤) ممض العتاب يلقاك يومـا بلقيـاه (٥) لاق
فإن الـدواء حميـد الفعـال وإن كان مراً كريـه المـذاق

يا معتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحييت منـك فلا تكلني إلى شيء سوى عذر جميـل
وقـد أنفـذت ما حقي عليـه قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك على انفرادك قوت يـوم إذا أنفقت إنفـاق البخيـل
وكيف وأنت عـلوي السجايا وليس إلى(٦) اقتصادك من سبيل
وقد يقوى الفصيح(٧) فلا تقابل ضعيـف البر إلا بالقبـول
وإن الوزن وهو أصح وزن(٨) يقام صغاه بالحرف العليـل
فان يك مـا بعثت بـه قليلا فلى حال أقـل من القليـل

والسلام عليك ما سبح الفلك وسبَّح الملك ورحمة الله وبركاته ،

---

(١) الكرب : حبل يشد على عراقي الدلو وفي ذلك يقول الشاعر :
اخضر الجلدة مـن بيت العرب يمـلأ الدلو الى عقـد الكرب
(٢) في جلدزيهر : خرف وهو تحريف .
(٣) وردت هذه العبارات في الخيرة هكذا : فاستأخر او تقدم وحذار ان تقرع سن الندم قبل ان تجمع ذنوبك وكروبك فمن ابصر اقصر ، وما خاف من صديقه اخاف .
(٤) وردت في الذخيرة : تتشنع .
(٥) وردت في الذخيرة : فيلقا .
(٦) « الى » محذوفة في الذخيرة .
(٧) كذا في الذخيرة وقد كتب على هامشها « يغوى النصيح » وهي احسن .
(٨) ورد المصراع الاول من هذا البيت في الذخيرة هكذا « فان الشعر وهو أتم وزن » وهو أحسن من المتن .

ضميمة رقم ـ ٢ ـ

خطاب التهديد الذي ارسله هولاكوخان الى سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة عين جالوت [١]

من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم .

باسمك اللهم باسط الارض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم [٢] ، يتنعمون بانعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جندالله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الارض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأي أرض تأويكم ، وأي طريق تنجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع . فانكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند كلام ، وخنتم العهود والايمان ، وفشا فيكم العقوق

---

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩ ، وراجع ما قلناه عن هذه الرسالة في ص ١٥٨ من هذا الكتاب .

(٢) اشارة الى أصل قطز ، وقد تقدم القول بأنه كان من الخوارزمية .

والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فان اتتم لشرطنا ولامرنا أطعتم ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وان خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا انكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الامور المقدرة والاحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون مناجاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد انصفناكم اذ راسلناكم، وايقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الاعلى .

ألا قل لمصر ها هلاوون[1] قد أتى بحد سيوف تنتضي وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالا لهم بالاكابر

---

(٢) صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرا في كتب المؤرخين المعاصرين .

ضميمة رقم ـ ٣ ـ

رواية صارم الدين ازبك بن عبدالله الاشرفي ، في وصف التتار وعاداتهم وموقعة عين جالوت (١)

قال الامير شهاب الدين قرطاي العزي الخازنداري في تاريخه ما صيغته :

قال الصارم أزبك مملوك الملك الاشرف الايوبي صاحب حمص : لما نزل هلاوون على حلب ، كنت غائبا عنها ، فتخبأت في مغارة من مغارات حلب مدة ثلاثة أيام ، وأنا اسمع حنين حوافر الخيل فوق رأسي . فلما انقطع الحنين ، طلعت من المغارة ، فوجدت على بابها رجلا من التتار ميتا ،

---

(١) راجع ما قلناه عن هذه الموقعة في ص ١٦٤ من هذا الكتاب . هذا وقد ورد هذا النص في تاريخ قرطاي العزى الخازنداري الذي لا نعرف عن صاحبه سوى انه كان من كبار امراء المماليك وشغل عدة وظائف كبيرة مثل امير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس ومات فوق سن الستين سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) . وقد كتب تاريخا نقله المؤرخ المصري ناصر الدين محمد بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ م) في تاريخه الكبير « الطريق الواضح المسلوك الى معرفة تراجم الخلفاء والملوك » ، الذي لم يستطع اتمامه . ويوجد من هذا التاريخ الكبير لابن الفرات تسعة أجزاء (تشمل اخبار سني ٥٠١ ـ ٧٩٩ هـ) نشر منها الدكتور قسطنطين زريق الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ التي تضم اخبار سني ٧٢ ٦ـ ٧٩٩ هـ . اما الجزء الذي يهمنا هنا فهو الجزء السادس الذي يضم اخبار سني ٦٢٥ ـ ٦٥٩ هـ ويتضمن تاريخ قرطاي العزى واخبار صارم الدين أزبك التي وردت هنا في المتن . وهذا الجزء موجود بمكتبة الفاتيكان وقد نشر منه المستشرق Della Vida اخبار صارم الدين في Leri Della Vida : L' Invasione dei Tartari in Syria Nel 1260 di un testimone oculare . Orientalia , Vol. IV, Roma 1935.

فلبست قماشه ، وتزيأت بزي التتر ، وقصدت دهليز هلاوون • ومن جملة عدل التتار أنهم اذا نزلوا بأرض ، نصبوا قريبا من الدهليز الذي للملك صاريا ، وفي رأس الصاري وضعوا صندوقا صغيرا معلقا بالحبال، وعند الصاري وقف من يحرسه وهم جماعة من أكبر أمناء التتار • فاذا كان لرجل شكوى أو ظلامة ، يكتب ظلامته في قصة ويختمها ويضعها في ذلك الصندوق ، فاذا كان يوم الجمعة ، يطلب الملك الصندوق الى بين يديه ، ويفتحه بمفتاح من عنده ويكشف ظلمات الناس • قال الصارم : فكتبت قصة شرحها : « المملوك الصارم » ولم أقل أزبك ، وخفت أن اكتب في قصتي أزبك فلا ينادوني التتر يومئذ « يا صارم » ، بل ينادوني « يا أزبك » • فكتبت في القصة : المملوك الصارم مملوك الملك الاشراف صاحب حمص ، يقبل الارض ويسأل الحضرر بين يدي القان • فلما طلبني وحضرت بين يديه ، رأيت ملكا جليل القدر عظيم الشأن ، كثير الحرمة ، قصير القامة ، كبير الوجه ، جهر الصوت ، حنون عينيه على وجهه ، والخواتين جالسات الى جانبه ، والست طقز خاتون عن شماله • قال الصارم : لما وقفت بين يدي هلاوون ، تكلم معي من حجاب أربعة ، وقال لي في جملة كلامه : « أنت مملوك الملك الاشرف صاحب حمص ، بهادر المسلمين ؟ — يعني فارس المسلمين — قلت نعم • وجعل يحدثني من حاجب الى حاجب ، والحاجب الرابع يتحدث معى بلسان التركية • فلما رآني فصيح اللسان ، قوى الجنان ، سريع الجواب ، قربني اليه ، وأمر ان لا يكون بيني وبينه غير حاجب واحد • ثم قال لي : « تشرب الخمر ؟ » قلت : نعم • فأمر لي بهناب (كأس) مملوء خمرا ، وأشار الى الحاجب فناولني • فقبلت الارض ورقصت وعملت أشياء كان يعملها الحرفاء بين يدي ملوك الاسلام لما كانت البلاد لهم • فاعجب ذلك الخواتين وانشرحن وتبسمن • فأما هلاوون ، فانه لم يرفع رأسه من الارض ، ثم أمر لي

بالجلوس فجلست ، وبالشرب فشربت ، وبالاكل فأكلت • فلما رآني أي أمر أشاربه امتثلت ، أمرني بالجلوس فوق ندمائه في اعز مكان وأعلاهم مرتبة • وصار لا يأكل الا وأنا حاضر ، ولا يشرب الا وأنا حاضر • وان نام هلاوون ، طلبتني الست طقز خاتون زوجته • فأقمت على تلك الحال أول ليلة وثاني ليلة وثالث ليلة ، ونحن نحاصر حلب • ثم سألنى هلاوون عن أمر من الامور ، فجاوبته جوابا كذبا وددت لو ابتلعتنى الارض ولم انطق به • سألني على لسان حاجبه : في كم من الوقت نسلك هذا البلد ؟ ــ يعني حلب ــ قلت : في عشرسنين • فأطرق هلاوون برأسه الى الأرض غضبا مني • وقال لحاجبه أسئلة : في كم مقدار ما نملك هذه القلعة ؟ ــ يعني قلعة حلب • قلت : في ثلاثين سنة • وقصدت في كلامي أن هلاوون اذا سمع هذا الكلام يرحل عن حلب • فتبسم هلاوون وقال لحاجبه : لولا سابق خدمته لى ضربت عنقه ، أما يستحى من هذا الكلام ؟ أيكون هذا همة ملوكهم ــ يعنى ملوك المسلمين ــ المختلفة آرائهم ، المشتغلين ببعضهم البعض !؟ » كل هذا بلسان التتار ، وأنا لم أعلم ما يقول • قال الصارم : فسكت ، وندمت على جوابي له ، وذلك لما رأيت من الغيظ الذي تبين في وجهه • فلم يفرغ هلاوون من كلامه الا وقد دخل عليه رجل من التتار ، وفي يده رأس مقطوعة من رؤوس بني آدم ، معلقــة بشعره . وهي مخضبة بالدم • فرماها بين يدي هلاوون وتحدث معه بلسان التتار ، ثم أخذ الرأس وخرج • فالتفت الحاجب نحوي وقال لي : يا صارم ! تعرف ما هذه الرأس ، وما هذا الرجل ، قلت : لا • قال : هذا أكبر مقدمي التتار ، وكان في نقب من بعض النقوبات التي تحت القلعة ، وخرج يزيل حقنه ، وجعل ولده مكانه ، فكشفهم الحلبيون وهجموا عليهم في النقب ، فهرب ولده ومعه جماعة من التتار • فبلغ ذلك أبــاه ، فعبر النقب وقطع رأس ولده بيده ، وجاء بها الى القان • قال الصارم : فعند

ذلك علمت أن التتار لا بد لهم من حلب ، وأن بنيننا وبناتنا ومن يلينا في أيدي التتار ، وهذا أمر أراده الله تعالى فلا راد لمشيئته ٠

وكنت ليلة عند هلاوون ونحن نشرب ، اذ ورد عليه جماعة من مقدمي التتار ومعهم أصناف كثيرة من جملتها زبيب وحب قطن وقمح ونجارة خشب وفحم وخروب ، فجعل هلاوون ينظر الي ويبتسم ، ولا أعلم ما في نفسه ، ثم أمر لنا بأن نشرب بالاقداح الكبار وبالزبادي ٠ فلما خرجت اقضي شغلا ، لحقني الحاجب وكان يحبني واحبه محبة عظيمة ، وقال يا صارم : أتدري ما هذا الذي جاء به المقدمون ؟ قلت : لا والله ٠ قال: انهم قد وصلوا في النقب تحت القلعة الى أن وصلوا الى هذا الذي رأيته٠

ثم ان هلاوون سأل المقدمين : كم يسع النقب ؟ قالوا يسع ستة آلاف رجل ٠ قال : « أوسعوه حتى يسع عشرة آلاف ! وان غدا بعد الظهر تأخذ التتار قلعة حلب ، وتصبح بناتكم ونساؤكم وبنات الملوك اللواتي تحصن بهذه القلعة جواري لهذه الست طقزخاتون ، فانظر يا صارم الدين ماذا تفعل ! » ٠

قال الصارم : والله لما سمعت هذا الكلام ، صحوت من السكر ، ودخلت المجلس ، وجلست بين يدي هلاوون ، وقلت بطريق المصخركية : والله ان ملوك التتر مثل الحمير ٠ فنظرت طقز خاتون نحوى وهي تبتسم وقالت : كيف هذا يا صارم ؟ قلت : « ان ملوك المسلمين ، كانوا اذا شربوا الخمر ، يكون نقلهم الفستق ، وشراب الحماض ، وأقراص الليمون، في الزبادي الصبني ، وقماقم الماورد والريحان والبنفسج والآس المنثور والنرجس ، وما يناسب هذه الاشياء العظيمة ٠ وانتم التتار ، تشربون

الخمر على الفحم وحب القطن والزبيب ونشارة الخشب وهذه الاشياء القبيحة » .

وتبسم هلاوون وضحكت الخواتين . قال الصارم : ثم سبقت منى كلمة كان جزائي فيها ان تضرب عنقي ، فقلت : « أنا أعلم من أين جاؤوا هؤلاء المقدمون بهذه الاصناف » . فغضب هلاوون وقال : من أين تعلم هذا ؟ فقبلت الأرض وقلت : « يحفظ الله القان ، وحق رأس الملك ، أنا ادخرت هذه الذخائر كلها بيدي في هذه القلعة خوفا من التتر واستعدادا للحصار » . وسكن هلاوون من غيظه ، وكان قد اعتقد في نفسه ان الحاجب أوحى الي شيئا من هذا الكلام ، وكان الامر كذلك .

ثم نهضت قائما وقلبت الارض ، وقلت : « نصرالله القان ، ان حرمتك عظيمة ومملكتك واسعة ، والملوك تخشاك ، ولا يقدر احد منهم ان يقف بين يديك . والله والله يا خوند ، الملوك يودون لو كانوا وقوفا بين يديك مثل ممالیكك هؤلاء الوقوف ، ولكن يخافون من سطوتك » . فاعجب هلاوون كلامي وقال لي :

يا صارم ! قلت : لبيك . قال : « تقدر أن تأتيني باستاذك الملك الاشرف صاحب حمص ؟ » قلت : نعم . قال : اركب وآتني به . قلت : بعد يومين . قال : نعم . فأمر لي هلاوون بالخيل ، وقال : اركب ولا تقعد . قلت : بشرط . قال : وما هو ؟ قلت : أن لا تفتح هذه القلعة الى أن يحضر الملك الاشرف بين يدي القان . قال : نعم . فركبت وأخذت معي عشرة أكاديش ، وعلقت في عنقي الطغمة ــ يعني لوح البريد ــ وسقت ووصلت الى غزة . فبلغني ان الملوك هاربين في البرية ، مشتتين

مخيرين مبعثرين • وكان قد بلغ ملوك المسلمين منزلتي عند هلاوون ، فسقت ولحقت الملوك على منزلة تعرف ببركة زيزة •

فلما رأتني الملوك ، نزلوا عن خيولهم وقبلوا يدي كما كنت أقبل أيديهم • وقبل الملك الاشرف استاذي يدي فعظم ذلك علي واستحييت من استاذي ومن الملك الناصر • ثم قلت للملك الاشرف : « القان يطلبك » • فخاف ، فقلت : ممن تخاف ؟ قال : من القان • قلت : « الضمان علي ، تعود ملكا جليلا على ما في نفسك ولا يصل اليك مكروه » • فالتفت الملك الناصر نحوي وقال : وأنا يا صارم الدين ؟ قلت : مالي معك كلام • فبكى الملك الناصر •

ولما أخذت الملك الاشرف ومضيت الى هلاوون ، وحضر بين يديه ، رسم له بشقة ينزل فيها ، وخروف وقدر وحطب • والله ان الشقة التي ضربها هلاوون للملك الاشرف ، لا ترضى الكلاب أن تنزل فيها ، والخروف لا يرضى الذئب ان يأكله ، والحطب لا يرضى المشاعلي ان يقده في مشعله !! ، وهكذا عيش التتر دائما • فتركت الملك الاشرف في الشقة ، ومضيت الى خدمة هلاوون ، فأجلسني على جاري عادتي ، وأمرني أن آكل فأكلت ، وأمرني أن اشرب فشربت ، وسألني عن أحوال الملوك ، وما هم فيه ، وكيف تركتهم • قلت : في أنحس الاحوال ، هاربين مشتتين مبعثرين محيرين في البراري ، لا يستلذون بالنوم خوفا من حرمة القان • فأعجب هلاوون بكلامي ، وقال : كيف تركت استاذك يا صارم ؟

قلت : مالي استاذ الا القان • قال : لا ، ألا استاذك الملك الاشرف؟ قلت : ما أعلم شيئا عن حاله • قال : كيف تركته وحده ؟ قلت : ما أفارق وجه القا ن نصره الله • فأطرق هلاوون برأسه زمانا وقال : « لا تقل هذا يا صارم ، بل امض الى استاذك ، وانظر أي حال هو عليه » • فأتيت

الى الملك الاشرف ، فرأيته ويده تحت خده وهو حزين ، والخروف مربوط بحبل ، والحطب ملقى على الارض • فقلت : ما بالك يا خونـد ؟ فقال : ألا ترى هذا الحال يا صارم الدين ؟ وبكى • قلت : « لا تبك يا خوند ، والله والله هذا عيش التتر دائما ، وهذا حالهم • والله يا خوند ما فعلوا هذا استقلالا بك ، ولكن هذا خيار عيشة التتر » • فتبسم الملك الاشرف وقال : « هكذا تكون الملوك ، وبهذا الحال والرجال تملك الملوك البـلاد » •

وبينما أنا اتحدث مع الملك الاشرف ، اذ ورد مرسـوم هلاوون بحضوره بين يديه ، فوالله لقد رأيت الملك الاشرف تغير لونه ، وما رأيت الملك تغير لونه قبلها • ولقد كسر الملك الاشرف الخوارزمية وهم ستة آلاف وهو في ألف وخمسمائة فارس ولم يتغير لونه ، ولقد كسر التتار في وقت كان التتر في ألفي وخمسمائة فارس والملك الاشرف في ثمانمائة فارس ولم يتغير لونه •

ولما وقف الملك الاشرف بين يدي هلاوون ، وأنا ماسك بشماله والحاجب ماسك بيمينه • والله لقد رأيت الملك الاشرف وهو يرتعد مثل القصبة ، ولم يستطع الوقوف على رجليه وذلك خوفا من هلاوون •

وكان الملك الاشرف شابا حسن الوجه ، أسمر اللـون بحمرة ، تام القامة بوجهه شامات متفرقة • وكان لابسا قباء تتريـا أخضر ببنود أطلس أحمر ، وخف بلغاري بكوابج ذهب وتخفيفة مزركشة • فنظرت طقز خاتون للملك الاشرف ، ونظرت الى هلاوون وقالت : « ان هـذا شاب مليح وفارس المسلمين ، وهكذا تكون الملوك » • فنظر هلاوون نحوها وتبسم وقال : « انما نحن الملوك الذين نحضر هذه الملوك بـين

أيدينا وقوفا أذلة خائفين من سطوتنا» . كل هذا والملك الاشرف واقف بين يدي هلاوون لا يدري ما يصنع به الدهر . ثم رفع هلاوون رأسه وقال : «يا أشرف! تمنن ما تختار؟» فقبل الملك الاشرف الارض ثلاث مرات . قال الصارم : فقلت له : اطلب منه أن يهبك هذا البرج الذي في القلعة الذي فيه أمك واخواتك وبناتك وحريم الملوك وبنات الملك الناصر يوسف وحريمه ، ومتى لم تطلب منه هذا البرج في هذه الساعة والا في هذه الليلة تملك التتار قلعة حلب وتصبح حريم الملوك الاسلامية جواري لهذه الست طقز خاتون . قال الملك الاشرف : « لا يكون يقتلني » . فقلت له : ان التتر لا يقتلون من يكون عندهم بمنزلة الضيف .

ثم قال هلاوون لثاني مرة : « اطلب ما تختار يا أشرف سلطان » . فقال الملك الاشرف : « اتمنى على القان أن يهب لي هذا البرج الذي فيه حريمي وحريم الملك الناصر وحريم الملوك الذين هم هاربون من سطوة القان » . فأغضب هلاوون ذلك ، وأطرق الى الارض وقال : « اطلب غير هذا » . فسكت الملك الاشرف . فنظرت طقز خاتون الى الملك هلاوون وقالت : « ما تستحي ! يطلب منك هذا الملك هذا البرج ، وتمنعه عنه ، والله لو طلب مني حلب ما منعتها عنه ، فانه فارس المسلمين » . قال هلاوون : « انما منعته ذلك لاجلك ، لتكون بنات الملوك ونساؤهم جواري بين يديك » . قالت : « أنا قد اعتقتهم لوجه الله تعالى ولاجل الملك الاشرف » . فعند ذلك رسم هلاوون للملك الاشرف بما طلب . وقبل الاشرف يد هلاوون ثلاث مرات .

قال الصارم : لما قبل الملك الاشرف يد هلاوون ورجع الينا ووقف بيننا وأراد أن يقبل الارض ، وأنا ماسك بشماله والحاجب بيمينه ، ووالله لقد قبل الملك الاشرف الارض وأراد القيام فلم يستطع القيام وذلك

خوفا من هلاوون ، فأقمته أنا والحاجب بباطيه ، وقلت له تثبت وقرأت « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » •

قال الصارم أزبك الاشرفي : قال لي هولاكو في جملة كلامه : « يا صارم ، تختار أن تكون مع الملك الاشرف استاذك او تكون معي ؟ » • فقبلت الارض وقبلت يده ، وقلت : « ما أفارق وجه القان » • وكان كذبا مني • ثم رسم هولاكو بالتوجه الى الشرق ، وجعل كتبغانوين نائبا له بحلب وأعمالها ، وبيدرا نائبا له بدمشق وأعمالها • وتوجه الى الشرق واستصحب الصارم صحبته ، والمماليك الترك البحرية الذين كانــوا محبوسين بقلعة حلب وهم : سنقر الاشقر ، وسكز ، وبرامق ، وبكمش المسعودي • وكانوا سبع نفر وقيل تسعة •

قال الصارم : لما وصل هولاكو الى اعزاز ووصل الى بلاد الموصل طلبني ، وقال : يا صارم ، تختار المقام عندي وأنا اعطيك طبلخاناه [1] ، أو تختار المقام بأرضك بالشام ؟ » فقبلت يده وقلت : « ما أفارق وجه القان » •

قال : لا ، الشام احب اليك ، فان أهلك وأولادك وأملاكك بالشام»

---

(١) لا نعلم شيئا عن نظام امرة طبلخاناة في العهد المغولي ، ولعله كان على غرار النظام المتبع في العهد المملوكي حيث كان صاحب امرة طبلخاناه ممن يقتنون اربعين فارسا من المماليك ، ليساهم بهم في حروب الدولة . ومن مميزات هذا الامير عمن دونه مرتبة ، ان تكون له فرقة موسيقى حربية تسمى الطبلخاناه تدق بآلاتها على باب داره . ومن امراء الطبلخاناه كان ولاة الاعمال ــ المديرون ــ وصغار كبار الوظفين مثل نائب الدوادار ووالي القلعة ومقدم المماليك . راجع (القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص ٨ ، ١٣ ، ١٥ ، ٥٠) .

وأمر لي بالخيول والاموال والانعام ، ورسم للملوك والامراء الذين عنده وفي خدمته أن يعطيني كل منهم على قدره • فوالله العظيم لما انفصلت من بين يدي هولاكو ، لم أعلم ما كان حصل لي من الاموال والتحف ، لكن الذي عرفته من عدة الخيل ألف وخمسمائة فرس ، ومن القماش عشرة آلاف تفصيله ما بين مروزي وكمخى ونسيج اطلس وعتابى وغير ذلك • ولما أمرني أن اتوجه الى الشام ، قال لي في جملة كلامه « يا صارم ، أنت تعلم ما فعلنا معك من الخير ، واولادي عندك كتبغا وبيدرا هما عندي أعز من أولادي ، يكونان تحت نظرك ، ويكون حسبك عليهما » • كل هذا وأنا أقبل الارض وأقبل يده • ثم قال لي : « يا صارم ، اذا وصلت الى كتبغا ، أمسك رقبته بيدك » • ومسك هولاكو رقبتي بيده ، وقال لي : « قل لكتبغا ان بعلبك ودمشق وبلاد الشام بلادي وتحت مملكتي ، فما يحل لنا أن نظلم الرعية ، كيف تجرأت وأخذت صندوق ذهب من رجل من أهل بعلبك ؟ اردد اليه ذهبه والا تموت • ولا ترد يدك من رقبته الى أن يرد الى صاحب الذهب ذهبه » •

وقال لي هولاكو لما ودعته : « يا صارم ، اذا وصلت الى كتبغا وبيدرا ساعدهم على فتح بخش الفأر [1] ــ يعني بذلك الديار المصرية ــ فانى أمرتهم أن يفتحوا مصر » • قل الصارم : ان التتار مثل مصر عندهم

---

(١) يعنى جحر الفأر . وكانت مصر تعرف كذلك عند التتار باسم « كروان سراي » ففي الخطاب الذي وجهه هولاكو الى الملك الناصر يوسف صاحب الشام يقول : وقد بلغنا ان تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم الى كروان سراي ، فان كانوا في الجبال نسفناها ... الخ . والمقصود بكلمة كروان سراي هو محط الرحال أو فندق المسافرين . ولعل تسمية مصر بهذا اللفظ يرجع الى انتهاء معظم الطرق التجارية اليها من سائر جهات الشرق والغرب في القرون الوسطى . راجع (المقريزي : السلوك جـ١ ص ٤١٦ حاشية رقم ٣) .

مثل بخش الفأر ، اذا عبر من مكان لا يخرج الا منه وذلك لضيق المسلك .

ولما أمرني هولاكو بما أمرني به امتثلت أمره بالسمع والطاعة ، ثم توجهت الى الشام ، فوجدت التتار قد اجتمعوا على نهر الاردن ، فلما رأوني نزلوا عن خيولهم ، وقبلوا بين عيني ، وذلك اجلال كون عيني قريبة من النظر الى وجه الملك هولاكو . ثم ابلغت كتبغا ما كان من أمر الصندوق الذهب ، وان الملك هولاكو رسم انك ترد الصندوق الى صاحبه . فامتثل الامر بالسمع والطاعة ، ورد الصندوق الى صاحبه والله أعلم .

قال الصارم : لما ودعت الملك هلاوون من بلاد الموصل ، قال لي في جملة كلامه : «يا صارم ، اشكر نعمتي عليك» . قلت : يا خوند ، أيد الله القان ، لك على نعم كثيرة من الله تعالى ومنك . قال : تعرف كيف جئتني ؟ قلت : نعم . قال عظمتك في أعين الملوك الى أن صرت تشفع فيهم عندي ، ويقبلوا يدك كما كنت تقبل أيديهم » . ثم قال : « يا صارم ، اشكر نعمتي » . فقبلت يده وقلت : يحفظ الله القان ، نعمتك على كثيرة . قال : « ولا مثل هذه النعمة ؟ » قلت : وما هي ؟ قال : في ليلة كذا وكذا ، ونحن على حلب ، تحدثت معك بلسان التركية ثلاث كلمات ، والله لم يكن جرى مني هذا قبلها لاحد ، وما فعلت معك هذا كله الا لكي تتوصى باولادي كتبغا وبيدرا ، وتعمل معهما كما فعلت معك ، ولا يجيئنى كتابك انْ شاء الله تعالى الا بعد أن تكونوا فتحتم مصر .

قال الصارم : لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر الاردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية . وقــد خرج المسلمون للقائهم . فلما علمت أن التتا رلا بد لهم من الديار المصرية ، بعثت غلاما

لي في صفة جاسوس ، وأمرته ان يجتمع بالملك المظفر قطز ، والامير بيبرس البندقداري ، وبلبان الرشيدي ، وسنقر الرومي ، ويعرفهم أن التتار لا شيء ، فلا تخافوا منهم ، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال ، وعرفهم بأن التتار في عسكر قليل • وأوصيته أن يوصي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس • فلما وصل غلامي الـى عسكر المسلمين ، وجدهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع ببعض الامراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما أوصيتهم به • وكنت قلت في جملة كلامي : قل للامراء لا تخافوا ، هأنذا وأصحابي والملك الاشرف ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان • فلما سمع الامراء كلام غلامي ، قال بعضهم لبعض : لا يكون هذا معمولية على المسلمين » •

فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس علينا ، وظللت عساكر الاسلام • وكان أول سنجق سبق ، أحمر وأبيض ، وكانوا لابسين العدد المليحة • وأشرقت الشمس على تلك العدد ، فطلبنى كتبغا وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم ، وجمالهم وهم منحدرون من الجبل • وقال لي : يا صارم ، هذا رنك [1] من ؟ قلت : سنقر الرومي • ثم ظهرت سناجق صفر • قال : هذا رنك من ؟ قلت : بلبان الرشيدي • ثم تتابعت الاطلاب أولا فأولا ، وانحدروا من سفح الجبل • ودقت الكوسات [2] والطبلخانات ، وامتلأ الوادي والبر

---

(١) سبق أن اشرنا الى أن كلمة رنك معناها شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التي يشغلها صاحب هذا الشعار . وكان من عادة كل أمـير مملوكي كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه . وبينما كانت رنوك المسلمين في المشرق تدل على الوظائف ، اذا بها في اوربا العصور الوسطـى ترمز للاسر الاقطاعية . فكل اسرة لها شعار خاص تتميز به عن غيرها .

(٢) الكوسات آلات نحاسية مثل الصاجات .

من العياط ، وغابت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب • وكنت غرا بمعرفة رنوك المسلمين ، فصار كتبغا يسألني : هذا رنك من ؟ فصرت أي شيء طلع على لساني قلته •

ثم ان التتار انحازوا الى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد خبر الى هلاوون ، ولكن قتل الجميع ، ولم يرد خبرهم الا من كان مقيما بدمشق أو حلب • انتهى ما ذكره قرطاي [1] •

---

(١) يلاحظ ان هذا النص فضلا عن الحيوية التي يشتمل عليها ، والاشارات القيمة التي يتضمنها ، فان له أهمية خاصة للتاريخ السياسي والحضاري على السواء . وقد بالغ صارم الدين ازبك في الدور الذي قام به خلال احداث تلك الفترة ، ولكن يبدو انه لم يغير من جوهر الحقائق التاريخية .

ضميمة رقم – ٤ –

قال القلقشندي [١] :

وهذه نسخة كتاب ، كتب بها عن الملك المظفر قطز – وصاحب اليمن يومئذ المنصور [٢] – بالبشارة بهزيمة التتار . وأظنها من انشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر [٣] ، وهي : –

أعز الله تعالى أنصار المعز الشريف العالى ، المولوي ، السلطان ، الملكي المنصوري ، وأعلا مناره ، وضاعف اقتداره ، تعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب [٤] ، فتح الله بنصر المسلمين على أعداء الدين .

... ... أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى ، استطالوا على الايام ، وخاضوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الاسلام :

سعى الطمعُ المردى بهم لحتوفهم ومَن يمسكن ذيل المطامع يعطب

(١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٧ ص ٣٦٠ – ٣٦٢ .

(٢) لعله الملك المنصور نور الدين عمر بن على سلطان الدولة الرسولية باليمن .

(٣) صاحب ديوان الانشاء ايام قطز وبيبرس وقلاوون والاشرف خليل وتوفي سنة ١٢٩٢ م . وله كتاب تشريف الايام والعصور في سيرة المنصور تحقيق مراد كامل (القاهرة ١٩٦١) .

(٤) هذا التاريخ يتعارض مع ما ورد في المراجع العربية الاخرى من ان موقعة عين جالوت حدثت يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م .

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك آمال خائبة ، ومراكب للظنون عاطبه ... هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاذية عقبانها في وكور ظباها ، رابضة آسادها في غيل أقناها ، ما تزلزل لمؤمن قدم الا وقدم ايمانه راسخة ، ولا ثبتت لاحد حجة الا وكانت الجمعة ناسخه ، ولا عقدت برجمة ناقوس الا وحلها الآذان ، ولا نطق كتاب الا وأخرسه القرآن .

ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل الى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل الى المسلمين ، الى ان خلط الصباح فضته بذهب الاصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الاعين بمرود السّهاد ، وخاف كلٌ من المسلمين اصدار البيات :

ينام باحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الاعادي ، فهو يقظان نائم!

الى ان تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم تر الا ضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك في بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المفاوز دلاصا ، ومراتع الظبا للظبا عراصا ، واقتنصت آساد المسلمين المشركين اقتناصا ، ورأي المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا ، فلا روضة الا درع ، ولا جدول الا حسام ، ولا غمامة الا نقع ، ولا وبل الا سهام ، ولا مدام الا دماء ، ولا نغم الا صهيل ، ولا معربد الا قاتل ، ولا سكران الا قتيل ، حتى صار كافور الدين شقيقا ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقا ، وضرب النقع في السماء طريقا ، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقا ، وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

وقلت (١) : وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها في بعض المجاميع فحفظها منه ، وهي في غاية من البلاغة ، الا أنها لا تخلو من تغيير وقع في بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ، من حيث انه ليس من أهل هذه الصناعة • ولم يسعني ترك ايرادها لما فيها من المحاسن ، ولانفرادها باسلوب من الاساليب التي كتب بها الى ملوك اليمن ، فأوردتها على ما هي عليه ، وجزى الله خيرا من ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها •

---

(١) هذا كلام القلقشندي معلقا على الرسالة •

ضميمة رقم (١) ـ ٥ ـ

نسخة من الهدنة التي عقدت بين الظاهر بيبرس ، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية ، في شهور سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة ، فلانة بنت فلان ، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة ، على بيروت وأعمالها المضافة اليها ، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل ابي بكر بن أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى ، وأيام الملك

(١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ١٤ ص ٣٩ ـ ٤٢ ، راجع كذلك ما قلناه عن هذا النص في هذا الكتاب ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) سبقت الاشارة الى ان بعض المراجع العربية اطلقت على هذه الملكة اسم الدبونة وهو تعريب للفظ D'Ibelin وهو اسم الاسرة الحاكمة في بيروت ، وهي من الاسر العريقة اصلا في جزيرة قبرص . ومن المعروف ان اسم هذه الملكة التي حكمت بيروت وجبالها ـ اي محافظة جبل لبنان ـ في عهد السلطان بيبرس هو ازابيلا Isabella بنت جون الثاني ابلين John II I belin الذي مات سنة ١٢٦٤ م . وقد عقدت هذه الملكة هدنة مع بيبرس سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) وفق الشروط المبينة في المتن . وصارت كلما سافرت الى قبرص ، تذهب الى لقاء السلطان بيبرس وتترك مملكتها وديعة بين يديه الى حين عودتها ، كما اتخذت لنفسها حرسا من المماليك. وتوفيت سنة ١٢٨٢ م . راجع (تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٣٥ وكذلك (Steven Runciman, A Hist. of The Crusades Vol. 3 P 329, 342, 343.)

الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز • والقاعدة المستقرة في زمنهم الى آخر الايام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية • وذلك مدينـة بيروت واماكنها المضافة اليها :

من حد جبيل الى حد صيدا ، وهي المواضع الآتي ذكرها :

جونية بحدودها ، والعذب بحدودها ، والعصفورية بحدودهـا ، والرواوق بحدودها ، وسن الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وانطلياس بحدودها ، والحديـدة بحدودها ، وحسوس بحدودهـا ، واليشرية بحدودها ، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ، وجلدا بحدودها ، والناعمة بحدودهـا ، ورأس الفقيه ، والوطاء المعروف بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذه الاماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منهـا والواردين اليها من جميع أجناس الناس ، والمترددين الى بلاد السلطان « بيبرس » وهي :

الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ، والمملكة الانطاكية وقلاعها وبلادها ، وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها ، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب اليه ، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هـو مختص بها • والمملكة الرحبية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها • والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها • والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها : من قلاعها وبلادها ورعاياها وممالكها • والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها • والمملكة القدسية وما يختص بها • والمملكة الحلبية وما يختص بها • والمملكة الكركية

والشوبكية وما يختص بها من القـلاع والبلاد والرعايـا . والمملكة النابلسية ، والمملكة الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها : بثغورها، وحصونها ، وممالكها ، وبلادها ، وسواحلها ، وبرهـا ، وبحرهـا ، ورعاياها ، وما يختص بها ، والساكنين في جميع هذه الممالك : المذكورة، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده ، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه يكون داخلا في هذه الهدنة المباركة ، ومنتظما في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد واليها آمنين مطمئنـين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من الملكة فلانة وغلمانها ، وجميع من هو في حكمها وطاعتها : برا وبحرا ، ليلا ونهارا ، ومن مراكبها وشوانيها. وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته : برا وبحرا ، ليلا ونهارا : في جبلة واللاذقية ، وجميع بـلاد السلطان ، ومن مراكبه وشوانيه .

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين . وان عدم لاحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة ، وصحت في الجهـة الاخرى ردت ان كانت موجودة ، أو قيمتها ان كانت مفقودة . وان خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوما ، فان وجدت ردت ، وان لم توجد حلف والى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى ، وبرئت جهته من تلك الدعوى . فان ابى المدعى عليه عن اليمين حلف الوالي المدعى ، وأخذ ما يدعيه . وان قتل احد من الجانبين خطـأ كان او عمدا ، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره : فارس بفارس، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح . وان هرب أحد من الجانبين الى الجانب الآخر بمال لغيره ، رد من الجهتين هو والمال ، ولا يعتذر بعذر .

وعلى أنه ان تاجر فرنجي صدر من بيروت الى بلاد السلطان يكون داخلا في هذه الهدنة ، وان عاد الى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة.

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين.

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها الى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد الجانبين .

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوما ، ولا يمنع أحد منهم من العود الى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق في تاريخ كذا .



ثبت بأسماء المراجع

اولا : المصادر العربية

ابن الأبار : ابو عبدالله محمد بن عبدالله البلنسي (ت ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م)
« التكملة لكتاب الصلة » • نشر كوديرا •
(الجزءان الخامس والسادس من مجموعة « المعجم » (الجزء الرابع من مجموعة المكتبة الاندلسية)

ابن أبي الفضائل : مفضل (ت ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م)
« النهج السديد والدد الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » جزءان حققه وترجمه الى الفرنسية مع مقدمة تاريخية •
المستشرق الفرنسي بلوشيه E· Blochet
(باريس ١٩١٢)

ابن الاثير : على بن محمد الجزري الملقب بعزالدين (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م) « الكامل في التاريخ » ، ١٢ جزءا
(بولاق ١٢٩٠ هـ)

ابن اياس : ابو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م) كتاب تاريخ مصر المعروف باسم : «بدائع الزهور في وقائع الدهور» ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ) •

ابن بسام : ابو الحسن على الشنترينى (ت ٥٤٣ هـ = ١١٤٧ م) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة القسم الاول في جزئين والقسم الرابع الجزء الاول (القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) القسم الثالث مخطوط بالاكاديمية التاريخية بمدريد رقم ١٢ •

ابن بطوطة : محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار •
تحقيق نشر وترجمة دفريمري وسانجونيتي Defremeri et Sanguinetti (باريس ١٩٢٢)

ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين احمد بن على (ت ٨٥٢ هـ = ١٤٤٩ م) رفع الاصر عن قضاة مصر (في آخر كتاب الولاة والقضاة للكندي طبعة روفن جست) •

ابن حسول : الوزير ابو العلاء (ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م) كتاب تفضيل الاتراك على سائر الاجناد حققه الاستاذ عباس العزاوي في المجلة التركية

بأنقرة (الجزء الرابع عـــدد ١٤ ــ ١٥ ،
١٩٤٠) •

ابن حوقل : ابو القاسم محمد (القرن الرابع الهجري)
كتاب صورة الارض
(ليدن ١٩٣٩)

ابن خلدون : عبــد الرحمن بن احمــد (ت ٨٠٨ هـ =
١٤٠٥ م) مقدمة تاريخ ابن خلدون
العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجــزاء
بالمقدمة)
(القاهرة ١٢٨٤ هـ) •

ابن خلكان : شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم
الشافعي (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) وفيات
الاعيان وانباء أبناء اهل الزمان جزءان
(بولاق ١٢٨٣ هـ)

ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائــي (ت
٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م) الانتصار لواسطة عقد
الامصار • (بولاق ١٨٩٣ م)

ابن سعيد المغربي : على بن موسى (ت ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م)
العيون الدعج في حلى دولة بني طغج • من
كتاب المغرب في حلى المغرب نشر كنــوت
تلكوست

(ليدن ۱۸۹۸) Knut Talquist

ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ۸۷۳ هـ = ١٤٦٨ م)
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
(حققه بـول رافيس Paul Râvisse
(باريس ۱۸۹٥) .

ابن طباطبا : محمد بن على المعروف بابن الطقطقي (ولد ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م) « الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية »
(القاهرة ١٣١٩ هـ)

ابن فضل الله العمري : شهاب الدين احمد (ت ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م)
مسالك الابصار في ممالك الامصار .
(حقـق الجزء الخاص بوصف افريقيـة والاندلس ، حسن حسني عبد الوهـاب بتونس)
التعريف بالمصطلح الشريف
(القاهرة ١٣١٢ هـ)

ابن العبري : جورج أبو الفرج
مختصر الـدول
(بيروت ۱۸۹۰)

ابن عذارى : ابو العباس احمد بن محمد (كان حيا سنة ٧١٢ هـ = ١٣١٢م) البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب
(الجزءان الاول والثاني طبعة بيروت ١٩٥٠)

ابن غرسية : الكاتب
رسالة يفضل فيها العجم على العرب
(المخطوط رقم٥٢٨ بالاسكوريال والمخطوط
رقم ١٢ بالاكاديمية التاريخية بمدريد) •

ابن الفرات المصري : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ
= ١٤٠٥ م) تاريخ ابن الفرات المعروف باسم
الطريق الواضح المسلوك الى معرفة تراجم
الخلفاء والملوك • تسعة اجزاء (تشمل اخبار
سني ٥٠١ ــ ٧٩٩ هـ)
حقق قسطنطين زريق الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ التي
تضم أخبار سني ٦٧٢ ــ ٧٩٩ هـ (بيروت
١٩٣٩) أما الجزء السادس الخاص بأحداث
سني ٦٢٥ ــ ٦٥٩هـ يوجد بمكتبةالفاتيكان
ويتضمن تاريخ قرطاي العزى وأخبار صارم
الدين أزبك التي نشرهـا المستشرق ليفي
دلافيدا (انظر القسم الاوربى) Levi della
. Vida

ابن الفوطى : كمال الدين عبد الرزاق بن احمد الشيباني
البغدادي (ت ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م) الحوادث
الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة
(بغداد ١٣٥١ هـ)

ابن واصل جمال الدين ابو عبدالله محمد بن سليـــم
الشافعي (ت ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧ م) مفــرج

الكروب في اخبار بني أيوب
(اعتمدنا على الصور الشمسية التي بمكتبة جامعة الاسكندرية مأخوذة عن نسخة المكتبة الاهلية بباريس ونسخة جامعة كمبردج بانجلترا) وقد حقق الدكتور جمال الشيال معظم الجزء الخاص بالدولة الايوبية في ثلاثة اجزاء وبقي الجزء الخاص بقيام دولة المماليك ونهاية الدولة الايوبية ، مخطوطا .

ابو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ = ١٢٦٨ م)

١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية . جزءان .
(القاهرة ١٢٨٧ هـ)

٢) الذيل على الروضتين
تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان : « تراجم رجال القرنين السادس والسابع »
(القاهرة ١٩٤٧)
(وقد اعتمدنا كذلك على نسخة خطية من هذا الكتاب بمكتبة البلدية بالاسكندرية في ثلاثة اجزاء رقم ٣٥٥٣ د)

ابو الفــداء : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماة (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) المختصر في اخبار البشر ٤ أجزاء
(القسطنطينية ١٢٨٦)

ابو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بــن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ = ١٤٦٥ م)
١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ظهر منه ١٣ جزءا
(القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٤٣)
٢) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (ممخطوط بدار الكتب المصرية رقم١١١٣ في ثلاثة أجزاء) .

أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحز المتوسط (من ٥٠٠ ــ ١١٠٠ م) ترجمــة احمد محمد عيسى

الاصفهاني : أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) كتاب الاغاني ٢١ جزءا
(القاهرة ١٢٨٥ هـ) .

الاصفهاني : عماد الدين محمــد بن محمد بن حامــد (ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م) دولة آل سلجوق
(القاهرة ١٩٠٠)

أماري : ميشيل
المكتبة العربية الصقلية
(ليبسك ١٨٧٥)

البلوى : ابو محمد عبدالله بن محمد المديني (القرن الرابع الهجري) سيرة احمد بن طولون
نشره محمد كرد علي، دمشق ١٩٣٩)

البلوى : يوسف بن الشيخ ، المالقي الاندلسي
(ت ٦٠٣ هـ = ١٢٠٧ م) كتاب ألف باء .

الثعالبي : ابو منصور عبد الملك (ت٤٢٩هـ = ١٠٣٧م)
يتيمة الدهر ٤ أجزاء
(القاهرة ١٩٣٩)

ثقة الامام علم الاسلام : الداعى
المجالس المستنصرية
(نشر كامل حسين في سلسلة المخطوطات الفاطمية)
(القاهرة ١٩٤٧)

جورجي زيدان :
تاريخ التمدن الاسلامي ٥ أجزاء
(القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦)

جوزيف نسيم :
لويس التاسع في الشرق الاوسط

(القاهرة ١٩٥٩)
العدوان الصليبي على مصر
(الاسكندرية ١٩٦٨)

حاجي خليفة : مصطفى المسمى كاتب جلبي (ت ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) كشف الظنون على اسامى الكتب والفنون (اسطنبول ١٢٦٠ هـ)

الحسن بن عبدالله : (ت ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م)
آثار الاول في ترتيب الدول
(القاهرة ١٣٠٥ هـ)

حسن ابراهيم حسن :
الفاطميون في مصر
النظم الاسلامية بالاشتراك مع على ابراهيم حسن
(القاهرة ١٩٣٩)

حسن حبشي : نور الدين والصليبيون
(القاهرة ١٩٤٨)

حسن السندوبي :
ابو العباس المرسي ومسجده الجامع بالاسكندرية
(القاهرة ١٩٤٤)

حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية بافريقية
(القاهرة ١٩٦٣)

الخزرجي : علــى بن حسن (القرن الثامــن الهجري)
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسوليــة
جزءان
(Gibb memrial vol. III fasc. 4, 5.)

محمد الخضري :
محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية جزءان
(القاهرة ١٩٣٠)

الدوري : محمد عبدالعزيز
العصر العباسي الاول
(بغداد)

الرمزي : م٠م٠
تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان
وبلغار وملوك التتار جزءان
(أور نبورغ ١٩٠٨)

زترستين : ك٠ ف
تاريخ سلاطين المماليك
نشرة زترستين
(ليدن ١٩١٩)

زيادة : محمد مصطفى
بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر مجلة كلية الآداب جامعة القاهـرة المجلد الرابع سنة ١٩٣٦

السبكي : تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م)
طبقات الشافعية الكبرى ٥ أجزاء
(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

سركيس : يوسف يليان
معجم المطبوعات العربية والمعربة
(القاهرة ١٩٢٨)

سعيد عبد الفتاح عاشور :
الحركة الصليبية جزءان
(القاهرة ١٩٦٣)
مصر في عصر دولة المماليك البحرية
(القاهرة ١٩٦٩)

السلاوي الناصري : ابو العباس شهاب الدين احمد بن خالـد (ت ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م) الاستقصـا لاخبار دول المغرب الاقصى ٤ أجزاء
(القاهرة ١٣٠٦ هـ)

السيد الباز العريني :
مصر في عصر الايوبيين
(القاهرة ١٩٦٠)

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) تاريخ الخلفـــاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الامة
(القاهرة ١٢٥١ هـ)
حسن المحاضرة في اخبـــار مصر والقاهرة
جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

أشباخ : يوسف
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين
جزءان ترجمه عن الالمانية عبدالله عنان
(القاهرة ١٩٤٠)

شفيق : أحمـــد
الرق في الاسلام
ترجمة احمد زكي عن الفرنسية
(القاهرة ١٣٠٩ هـ)

الضبى : ابو جعفر احمد بن يحيي القرطبي (ت ٥٩٩ هـ = ١٢٠٣ م بغية المتمس في تاريخ أهـــل الاندلس
(مدريد ١٨٨٤)

صدر الدين ابو الحسن : على بن ناصر بن على الحسيني (توفي في أوائل القرن السابع الهجري) اخبار الدولة السلجوقية .
نشره محمد اقبال في جامعة البنجاب
(لاهور ١٩٢٣)

الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م) تاريخ الرسل والملوك ١٣ جزءا
طبعة دي خوية De Goeje
(ليدن ١٨٧٩ ــ ١٨٩٠)

العبادي : احمد مختار
الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية
(مدريد ١٩٥٣)
تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط نصان جديدان
(مدريد ١٩٦٦)
دراسات في تاريخ المغرب والاندلس
(الاسكندرية ١٩٦٨)
الموحدون والوحدة الاسلامية
(مجلة التربية الوطنية بالرباط ١٩٦٢)

العبادي : عبد الحميد
المجمل في تاريخ الاندلس
(القاهرة ١٩٥٨)

صور وبحوث في التاريخ الاسلامي
(الاسكندرية ١٩٤٨)

عباس العزاوي :
تاريخ العراق بين احتلالين ٣ أجزاء
(بغداد ١٩٣٥)

عبدالله بن أيبك : ابو بكر (عاش في القرن الثامن الهجري)
كنز الدرر وجامع الغرر أو الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية تسعة أجـزاء في ٢٧ مجلد (مخطوط بدار الكتب المصرية رقـم ٢٥٧٨)

عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي
(الاسكندرية ١٩٦٧)
تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس
(بيروت ١٩٦٢)

عبد الفتاح السرنجاوي :
النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية
(القاهرة ١٩٤٦)

عبد المنعم ماجد :
الناصر صلاح الدين الايوبي
(القاهرة ١٩٥٨)

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٦٤)

العذرى : احمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت ٤٧٨ هـ = ٩٨٨ م) ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى الممالك • نشر عبد العزيز الاهواني (مدريد ١٩٦٥)

علي ابراهيم حسن : دراسات في عصر المماليك
(الناصر محمد ، سيرته ونظم الحكم في عهده)
(القاهرة ١٩٤٢)

عمارة اليمني : ابو الحسن نجم الدين اليمنى (ت ٥٦٩ هـ = ١١٨٧٤ م)
تاريخ اليمن نشره كاي Kay
(لندن ١٣٠٩ هـ)

عنـان : محمد عبدالله
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
(القاهرة ١٩٣٧)
دولة الاسلام في الاندلس
(القاهرة ١٩٤٣)

العيني : بدر الدين ابو محمد بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ = ١٤٥٢ م)

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان
الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ ــ ٦٧٣ هـ
(مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤)

فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني (القاهرة ١٩٦٧)

القلقشندى : ابو العباس احمد (ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م)
صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءا
(القاهرة ١٩١٣ ــ ١٩١٩ م)

القرمانى : ابو العباس احمد بن يوسف (ت ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م) اخبار الدول وآثار الاول
(القاهرة ١٢٩٠ هـ)

الكتبي : فخر الدين محمد بن شاكر (٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م) فوات الوفيات جزءان
(بولاق ١٢٩٩ هـ)

كرد على : محمد
خطط الشام ٦ أجزاء
(دمشق ١٩٢٥ م)

كليكيا سارنلي :
مجاهد العامري
(القاهرة ١٩٦١)

الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) الولاة والقضاة
طبعة روفن جست R. Guest
(بيروت ١٩٠٨ م)

لسان الدين بن الخطيب : الوزير محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م) الاحاطة في اخبار غرناطة جزءان
(القاهرة ١٣١٩ هـ)
اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام (الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا حققه ليفي بروفنسال (بيروت ١٩٥٦)
(والجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية حققه احمد مختار العبادي ، وابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ١٩٦٤)
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب تحقيق احمد مختار العبادي
(القاهرة ١٩٦٧)

مبارك : علي
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٥ — ١٣٠٦ هـ)

متز : آدم
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جزءان ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة
(القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١)

ابن مماتي الاسعد (ت ١٢٠٩ م)
قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال
(القاهرة ١٩٤٣)

محمد جمال الدين سرور :

الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده
(القاهرة ١٩٣٨)
دولة بني قلاوون في مصر
(القاهرة ١٩٤٧)

مختـــار : اللواء محمد
التوفيقات الالهامية
(بولاق ١٣١١ هـ)

المراكشي : محي الدين عبد الواحد بـن علي التميمي (ولد سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب • نشره دوزي
(ليدن ١٨٨١ م)

المقري : ابو العباس احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ١٠ أجزاء نشر الشيخ محي الدين عبد الحميد
(القاهرة ١٩٤٩)

المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (٨٤٥ هـ=١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة
(القاهرة ١٩٣٦)

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار
جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ)
البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب
(القاهرة ١٣٣٤ هـ)
اغاثة الامة بكشف الغمة
تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين
الشيال (القاهرة ١٩٤٠)
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا
(القاهرة ١٩٤٨)

مؤلف مجهول : كتاب أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر
أمرائها نشر وترجمة لافونتي الكنترا
(مدريد ١٨٦٧)

مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية
نشر علوش
(الرباط ١٩٣٦)

ميخائيل عواد :
المآصر في بلاد الروم والاسلام
(بغداد ١٩٤٧)

النابلس عثمان بن ابراهيم (ت ١٢٥٨ م)
كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار
المصرية .
Bubletin Des Etudes Qrientales, Tome XVI 1958 - 1960 (Damas 1961)

النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت
٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) نهاية الارب في فنون
الأدب
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩)

النويري : محمد بن القاسم السكندري المالكي (عاش في القرن الثامن الهجري) الالمام بالاعلام لما جرت به الاحكام المقضية في واقعة الاسكندرية
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٩٣)

ياقوت : شهاب الدين ابو عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان • ثمانية أجزاء •
(القاهرة ١٩٠٦)

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب (القرن الرابع الهجري) كتاب البلدان نشر دي خويه •
(ليدن ١٨٦٠ م)

Ameer Ali : S.

A Short History of the Saracens
(London 1900).

Aristole :

The Politics of Aristole. Book I
tr. by J.E. Welldon
(London 1932).

Arnold : Sir Thomas W.

The Caliphate
(Oxford 1924).

Atiya : A. S.

The Crusade in the Later middle ages
(London 1938).

Barthold : W.

Histoire des Turcs d'Asie Centrale
Adaptation Française par Mme. Danskts
(Paris 1946).

Blochet : E.

Histoire des Sultans Mamlouks par Mufazzal Ibn Abil Fazail.
Texte Arabe publié et traduit en français.
(Patrologia Orientalis, XII 3) 2 vols.
(Paris 1912).

Brockemann : Carl.

Geschichte der Arabischen Litteratur.
(Weimer et Berlin, 1898 - 1902).

Browne : Edward G.

A Literary History of Persia. 4 Vols.
(Cambridge 1909-1930).

Camb. Med. Hist.

Cambridge Medieval History, Vols. IV, VI,

Chabas : R.

Mochehid Hijo de Yusuf, y Ali Hijo de Mochehid.
en el Homenaje a Don Francisco Codera.
(Zaragoza 1904).

Codera : F.

Mochehid conquistador de Cerdena.
en el centenario di Michele Amari
(Palermo 1910).

Creswell :

The Works of Sultan Bibars Al-Bunduqdari in Egypt.
Bulletin de l'Istitut Française d'Archeologie Orientale,
tome 26, fasc. 2

Czaplicka : M.

The Turks of Central Asia in History and the present day.
(Oxford 1918).

Davis : E. J.

Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France.
(London 1899).

Davis : Fox

A Complete guide to Heraldry.

Demombynes : G. M.

La Syrie a l'Epoque des Mamelouks.
(Paris 1922).

Dozy : Reinhart.

1) Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquete des Almoravides Tr. in English by Francis Griffin.
(London 1913).

2) Supplement aux Dictionnaires Arabes. 2 Vols.
(Leiden 1881).

3) Dictionnaire des Noms des Vetements chez les Arabes.
(Amesterdam 1845)

Devonshire : R. L.

Rambles in Cairo.
(Cairo 1931).

Ency. Isl. :

Encyclopedia of Islam

Ency. Brit. :

Encyclopaedia Britannica

Felix Pareja : M.

Islamologia 2 tomas
(Madrid 1952-1954).

Garcia Gomez : E.

El Collar de la Poloma de Ibn Hazm.
(Madrid 1952).

Guillaume :

Legacy of Islam.

(Oxford 1931).

Gibb : H. A. R.

The Arab Conquests in Central Asia.
(R.A.S., London 1923).

Goldziher : I.

Die Su'ubijja unter den Muhammedanern in Spanien
(Z. D. M. G. 1899).

Heyd : W.

Histoire du Commerce du Levant au Moyen age, 2 Vols.
(Leipzig 1889).

Herzefeld : Ernst

Damascus : Studies in Architecture. Ars Islamica,
Vols. XI - XII.

Hitti : P. K.

The History of the Arabs.
(London 1934).

Howorth : Sir Henry.

History of the Mongols, Vols. I, III.
(London 1876 - 1880).

Joinville : Jean Sire de

— Memoirs of John Lord de Joinville by Thomas Johnes
(2 parts in one vol.)
(Oxford Press 1807).

Memoirs of the Lord of Joinville, by Wedgwood
(London 1906)..

— Histoire de Saint Louis, Par Natalis de Wailly.
(Paris 1874).

— Saint Louis King of France, by James Hutton.
(London 1868).

— The History of Saint Louis, by Joan Evans.
(Oxford 1938.)

Kay : H. Cassels

Yaman, its early medieval History, by Omara.
(London 1892).

King : E. J.

The Knights Hospitallers in the Holy Land.
(London 1931).

Lybyer :

The Ottoman Empire in the time of Suleiman.
(Cambridge 1913).

Lane - Poole : S.

— History of Egypt in the Middle Ages
(London 1925).

— Medieval India under Muhammadan Rule .
(London 1912).

— The Muhammadan Dynasties .
(Paris 1925).

— Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem.
(New York 1898).

— The Story of Cairo .
(London 1902).

Le Strange : G.

— The Lands of the Eastern Caliphate
(Cambridge 1930).

— Palestine under the Moslems.
(London 1890).

Levi Della Vida

L'Invasione dei Tartari in Syria nel 1260, di un testimone oculare.
(Orientalia, Vol. IV, Roma 1935).

Lévi Provençal :

— L'Espagne Musulmane aux Xème Siècle
(Paris 1932).

— Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 tomes
(Paris 1950).

— La Peninsule Iberique du Moyen Age d'après le Kitab Ar-Rawd al Mitar de Abd al Munim al Himyari
(Leiden 1938).

Muir : Sir Williams

— The Caliphate, its rise, decline and fall.
(Edinburgh, 1924).

— The Mameluk or Slave Dynasty of Egypt
(London 1896).

Nickolson : Reymond A.

Literary History of the Arabs
(London 1914).

Oman : Sir Charles

A History of the Art of War in the middle ages .
(London 1924).

Poliak A. N.

— Le Caractère Colonial de l'Etat mamelouk dans ses Rapports avec la Horde D'or. Revue des Etudes Islamique 1935, Cahier III.

— Les Revoltes Populaires en Egypte a l'époque de Mamelouks et leur causes économiques.
(R. E. I. 1934, Cahier III.)

— Le Dialecte des Mamelouks
(R.E.I. 1935).

—Some Notes on the Feudal system of the Mamelouks
(J. R. A. S. 1937 January).

Prieto y Vives : Antonio

Los Reyes de Taifas
(Madrid 1926).

Quatremere : E. T.

Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 Vols.
(Paris 1845).,

Ribera : Julian

Disertaciones y Opùsculos. 2 Tomos
(Madrid 1928).

Sauvaget : J.

— Historiens Arabes
(Paris 1946).

— Introduction a l'Histoire de l'Orient Musulman.
(Paris 1943).

Somogyi : Joseph de

Adh. Dhabi's Tarikh al Islam as an authority on the Mongol invasion of the Caliphate.
(J.R.A.S. October, 1936).

Sauvaire : H.

Description de Damas :

(Journal Asiatique, Tome IV, 1894.)

Schefer : Charles.

Siaset Nameh par le Vizir Nizam-oul-Mulk.
Traité de gouvernement composé pour le Sultan Melik - Chah. 2 Vols.
(Paris, 1893).

Stevenson : W. B.

The Crusaders in the East.
(Cambridge 1909).

Vernet : Juan

El Valle del Ebro como nexo entre Oriente y Occidente: Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, XXIII, 1950.

Wiet : Gaston,

— Histoire de la Nation Egyptienne. t. IV.
(Paris, 1926).

— Précis de l'Histoire d'Egypte t. II.
(Le Caire, 1932).

— Le Sultan Baibars
(Rẹvue du Caire, t. III, 1939 - 1940.)

Zaki : Hasan

Les Tulunides.
(Paris, 1933).

Zambour : E. K

Mànuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire

de l'Islam, 2 Vols.
(Hanover, 1927)



الخرائط [1] والصور وفهرس الموضوعات

(١) قام بعمل الخرائط مشكورا الدكتور حسن ابو العينين المدرس بكلية الآداب بجامعتي الاسكندرية وبيروت .





الهند في عصر دولة سلاطين المماليك بدلهي

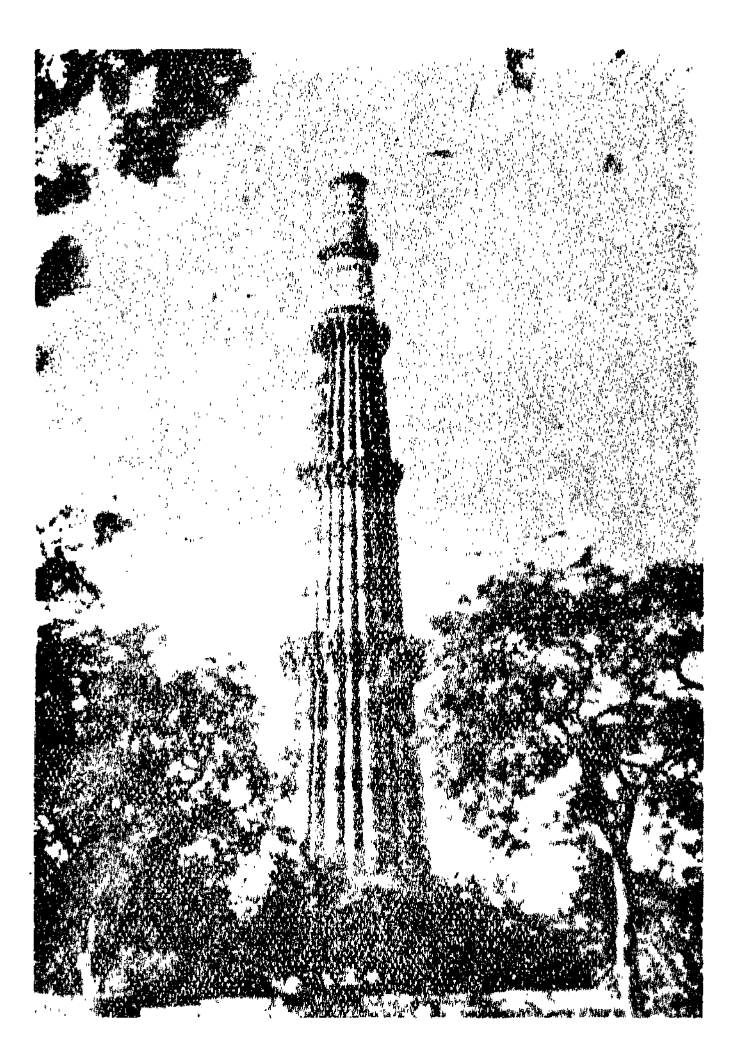


دلتا النيل أثناء حملة لويس التاسع



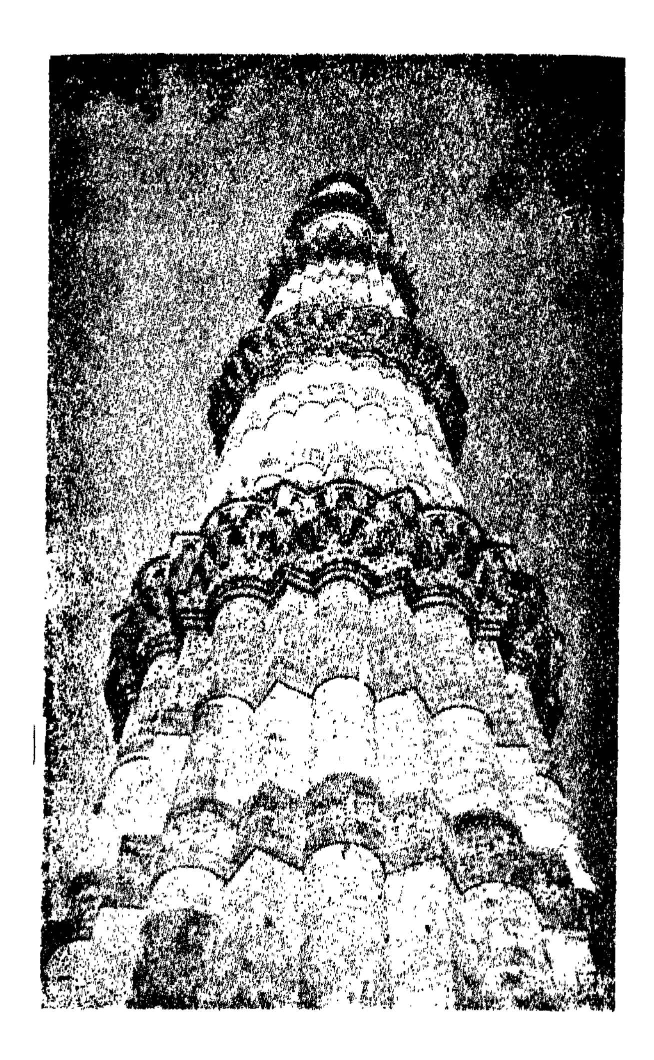
الشام وآسيا الصغرى والعراق في عصر دولة المماليك





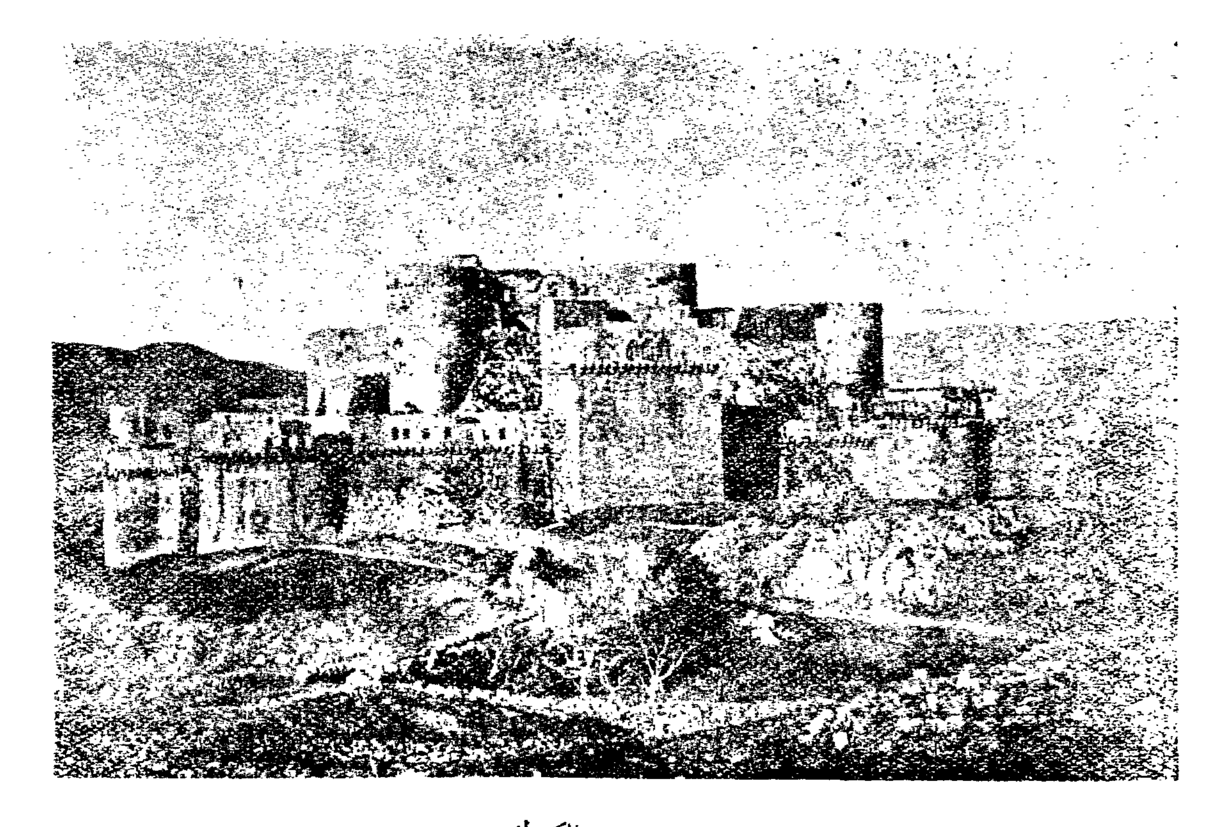
قطب منار أطول مئذنة في العالم بمدينة دلهي





قطب منــار





حصن الكرك



فهرس الموضوعات

الصفحة

الصفحة





